

الرب الله جودو

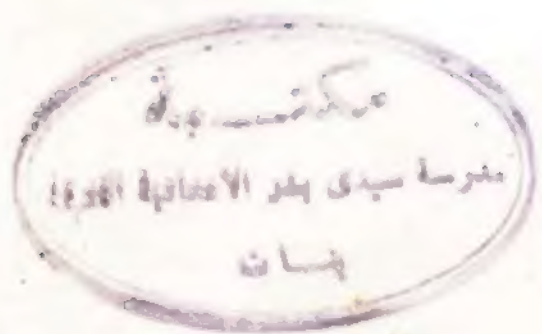
الأديان في افريقية المعاصرة



تأليف: هانك شمسوت
ترجمة: إبراهيم السيد محمد

دار الفكر
بيروت

٨٦٨٠



الربُّ واللَّهُ وجموعُ

الأديان في إفريقية المعاصرة

مدرسة سيدى بشر الإعدادية بنات	
المكتبة	
الرقم العام	٨٦٨٠
الرقم الخاص	٢١١
تاريخ الودود	١٩٨٠ / ١٤ / ٤

الربُّ واللَّهُ وجوه

الأديان في إفريقية المعاصرة

تأليف
چالك مندلسوت

ترجمة
إبراهيم أسعد محمد



دار المغاري بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى الفئة القليلة من الرجال والنساء في كل مجتمع إفريقي
الذين يتلهفون إلى كل ما هو إفريقي أساساً ، كما يتلهفون
إلى كل ما هو أحسن ، أو ما هو جديد في العالم .
إنهم ما يزالون قلة في العدد ويلاقون وقتاً عصيباً .

« إن الإناء يغلى لأن هنالك من يجعله يغلى »

مثل إفريقي

تقديم المترجم

إن تعبير إفريقيا جنوبي الصحراء ، هو تعبير ابتدعه الاستعمار ، ضمن ما ابتدع ، لتحقيق أهدافه الخاصة ، ليفصل به الشعوب الإفريقية بعضها عن بعض . والواقع أنه من مدة لا تزيد كثيراً على ألف سنة لم تكن الصحراء الكبرى كما هي الآن ، إذ كانت بحيرة تشاد أكبر كثيراً مما هي عليه ، كما أن طرق القوافل بين أواسط إفريقيا وشمالها كانت تحترق الصحراء بصفة منتظمة ، بل إنها كانت الطريق الوحيد للتجارة الدولية لشعوب أواسط إفريقيا ، واستمرت كذلك إلى أواخر القرن الماضي ، وأوائل القرن الحالى ، حينما حاربت الدول الاستعمارية هذا الطريق حتى أغلقته بحجة منع تجارة الرقيق ، ووجهت تجارة شعوب أواسط إفريقيا نحو المحيط الأطلسي ، إلى الموانئ التي أنشأتها لتحمل البضائع من أوروبا وإليها ، على بواجرها ، فضربت بذلك عصفورين بحجر واحد ، فقد قطعت الاتصال بين شعوب شمالى إفريقيا وأواسطها من ناحية ، واستأثرت بالتجارة مع شعوب ما أسمته إفريقيا « جنوبي الصحراء » من ناحية أخرى .

ومن الناحية السلافية لا يمكن أن يطلق وصف واحد على شعوب جنوبي الصحراء ، إذ أن لفظ « Negroid » لا يجوز إطلاقه ، حتى بصفة عامة على هذه الشعوب ، فإننا نرى أن العناصر الحامية والنيلية ، بل العنصر السامي أيضاً ، تمتزج جميعاً مع السمات الزنجية في معظم قبائل إفريقيا ، هذا إذا استثنينا البوشمن والأقزام . والأولون يكادون أن يكونوا منعزلين في جزء صغير شبه صحراوي من شرق جنوبي إفريقيا ، في حين أننا نرى أن الأخيرين يكونون جماعات في مناطق الغابات الاستوائية .

والواقع أن الاتصال الحضري والامتزاج السلافى قد أثرا فيما يطلق عليه الديانات الإفريقية القديمة إلى درجة بعيدة . فإننا نجد ، على خلاف

السائد ، أن فكرة الله الأعلى تكاد أن تكون موجودة لدى جميع القبائل ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور ، والذاتية الاكتفاء ، والشاملة القدرة ، نجده بين كثير من القبائل كالزولو بجنوبي إفريقيا ، والبايرا واندا ، والأشانتى بساحل العاج ، والآكان بغانا ، واليروبا بنيجيريا ، والبركونجو بأنجولا ، والنجومية بجمهورية الكونغو ، ومن اليسير إعطاء أمثلة كثيرة غير ما سبق لولا ضيق المجال .

على أننا يجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر أن لدى الأقزام ، وهم كما قلنا أقدم سلالات إفريقيا ، كائناً أعلى أيضاً يطلقون عليه اسم مونجو . وهم يلتمسون منه الفوز بالصيد . كما لا يأكلون بكر الثمار قبل أن تطرح في الغابة باسم مونجو ، ويقول القزم حين يطرحه : « مونجو هذا لك » . ويخصص بكر المحصول له ، لأنه خلق أشجار الفاكهة ، وساعد على نضج ثمرتها . وإلى هذا الكائن الأعلى ، يعزو الأقزام أيضاً ، خلق جميع الأشياء ، وأنها ترجع إليه .

ولعل في بعض الأساطير القبلية ، بالإضافة إلى الخصائص الجسمانية ، ما يؤكد الاختلاف السلالي بين الشمال والجنوب . فإننا نرى مثلاً أن قبائل الميرو في كينيا يعتقدون أن الله قادم منذ أزمنة سحيقة من أرض عبرديتهم بواسطة زعيم ديني (وجويه) إلى أرضهم الحالية . وإننا نستطيع أن نقبل هنا الشبه الكبير ، بل التطابق ، بين هذه الأسطورة وقصة الخروج لدى الإسرائيليين ، وحتى اسم الزعيم الديني يتشابه إلى حد كبير مع اسم سيدنا موسى عليه السلام ، ولا يستبعد أن يحدث مثل هذا التحوير في الاسم مع مضي قرون طويلة . ومن المعروف أن سيدنا موسى كان قد تزوج امرأة كوشية ، كما لا يستبعد أبداً أن يكون قد ذهب على رأس إحدى حملات فرعون إلى السودان على عادة أبناء الفراعنة في قديم الزمان . وأسطورة تبلبل الألسنة في بابل نجدها أيضاً لدى قبائل اللوجبارا في أوغندا . والواقع أن كثيراً من الأساطير الإفريقية ، وهي جزء من الديانات

والتقاليد المتوارثة ، فيها شبه كبير بأساطير الشرق الأدنى وما ورد في دياناته من قصص .

ويرى بعض الجالا بالحبشة أن الله أتى ذات مرة من السماء ، وأنه تخاطب مع الجنس البشرى ، في حين يعتقد الجيكويو من كينيا أن الله حينما يأتي من السماء يستقر على جبل كينيا وأربعة جبال أخريات . وإذا ذكرنا تقديم الأقزام لبكر المحصولات والصيد وغيرها إلى إلههم مونجو فلا بد أن هذا يذكرنا بدوره بالممارسة نفسها في ديانة "بعل" ، بل لعله يذكرنا أيضاً بما أمر الله به سيدنا إبراهيم بأن يقدم له ابنه البكر قرباناً . وواضح مدى تشابه الأساطير مع ما ورد في العهد القديم عن سيدنا موسى ومخاطبته الله في سيناء . كما أن هنالك أسطورة من قبائل تشاجا بتانزانيا تروى أن الله قد غضب من أعمال البشر فأهلكهم فيما عدا قلة ، وجلى مدى التشابه بين هذه الأسطورة ، وقصة سيدنا نوح . ويروى البامبوتى والتشاجا والميرو كيف أن الرب حرّم أكل ثمار شجرة معينة على الإنسان ، وكيف أنه حينما عصى الإنسان الأمر وأكل منها جاء الموت إلى الأرض وعزل الرب نفسه عن الإنسان . ولا نحتاج هنا إلى التذكير بقصة سيدنا آدم عليه السلام . بل إننا نجد بين بعض القبائل كالدنديلية والتشونا بروديسيا فكرة الثالث : الآب ، والأم ، والروح القدس .

وجميع الأديان الإفريقية التقليدية تعتقد فيما وراء الموت بشكل أو بآخر ، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته في عالم الأرواح ، واتصاله بأقاربه الأحياء ، بل استمرار رعايته لهم كما كان حال حياته . ومن هنا جاءت الفكرة الشائعة الخاطئة عن عبادة الأسلاف ، وهى في الواقع ليست أى نوع من العبادة في جوهرها ، ولكنها ، كما كانت عند قدماء المصريين ، فكرة استمرار حياة الروح بعد الوفاة في عالم الأرواح ، أو هى بمعنى آخر امتداد زمنى للحياة الأرضية بجميع مظاهرها ، مما أدى إلى تقديم طعام وشراب للروح ، وأدى هذا بدوره إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الديانات الإفريقية نوع من عبادة الأسلاف .

على أن الديانات التقليدية من ناحية أخرى ترى أن الله أسمى من أن يتصل به البشر رأساً ، وإنما يكون اتصالهم به عن طريق أرباب أدنى منزلة وكلهم الله بشئون الحياة المختلفة . فالله ، من وجهة النظر الغالبة في هذه الديانات ، خلق الكون بأكمله ووهبه الحياة ، ووضع نواميس الطبيعة ، ولكنه لا يمكن الاتصال به ، في الطلبات اليومية للبشر ، إلا عن طريق أرباب أو أرواح ، وقد تكون بعضها من أرواح الأسلاف . وكل رب ، أو روح ، يختص بعمل معين على الأرض ، فهناك مثلاً روح النهر أو رب الغابة ، والمطر ، والصيد ، والزرع وما شابه ، وإلى هذه الأرباب أو الأرواح يكون الالتجاء أولاً .

وفهم الخير والشر موجودة أيضاً في هذه الديانات ، بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصوره الكثيرون . فغشيان المحارم مثلاً لا يقتصر كما هو في الديانة الإسلامية على أقارب الدرجة الأولى والثانية فحسب ، ولكننا نجد أنه يمتد إلى كل الفخذ . وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا مثلاً أن له - مع أنه يشقى من المرض - قد يصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفن الطقوس الهامة . ويقول التشاجا إن الله يرسل روحاً لتسبب الحصباء وأوبئة أخرى جزاء على أعمال الإنسان الشريرة ، وإن كان لا يموت بها أحد إلا بإذن الله .

وعلى هذا فإن الديانات الإفريقية التقليدية كلها تجمع على وجود إله واحد ، وقليل منها من يؤمن بثالوث ، وإن هذا الإله هو إله سام ، ومنفرد بصفة الخلق ، فلم ينسب إطلاقاً - على ما أعرف - أنه تنازل ، أو أناب في هذا العمل أحد الأرباب أو الأرواح ، وأنه ذاتي الوجود ، وأزليه . وترك بهذه النبذة السريعة الأديان الإفريقية لنتقل إلى المسيحية والإسلام وناربعهما في إفريقيا .

تختلف الروايات عن دخول الدين المسيحي في الحبشة ، فمنها ما يروى أن مكان الحبشة كانوا يهوداً حتى سنة ٣٢٠ ميلادية حينما ارتطمت سفينة

في البحر الأحمر بإحدى الشعب المرجانية ونجا منها بعض المسيحيين . كان منهم السوري فرومنتيوس ، وقابلوا النجاشي « عزانا » وأقنعوه باعتماد المسيحية هو وحاشيته ، وأن الأمر اتصل بعد ذلك ببطريك الإسكندرية أثناسيوس ، الذي رسم فرومنتيوس السوري مطراناً على الحبشة ، ثم استمر الاتصال بعد ذلك بين بطريركية الإسكندرية والكنيسة الحبشية . ويزعم فريق آخر أن المسيحية دخلت الحبشة من الشمال حوالي سنة ٣٠ ميلادية ثم انتشرت فيها ببطء حتى شملت بلاد الجلا والدناكل وجزءاً كبيراً من بلاد الصومال . وهناك رأى ثالث يقول إن الأحباش لم يكونوا يهوداً قبل أن يعتنقوا المسيحية سنة ٣٣٣ ، وإنما كانوا وثنيين ، وإن كان المقطوع به أنه كان هناك شعب فلاشة يدين بالدين اليهودي ، بل إنهم في القرن العاشر بعد الميلاد بقيادة ملكهم چوديت طردوا العائلة المالكة . وحكموا الحبشة ثلاث سنوات حتى طردهم الحبشان بدورهم ، ثم أعيد الحكم بعد ذلك إلى العائلة المالكة لأصلية :

ودخلت المسيحية السودان عقب انقضاء الحضارة المروية : ذلك أن المسيحية كانت قد دخلت مصر في وقت مبكر ، وقاومها أباطرة الرومان وتعرض من اعتنقوا المسيحية إلى الاضطهاد ، فهاجر بعضهم إلى الصعيد ، وبعضهم إلى الصحراء ، في حين تعمق آخرون حتى وصلوا إلى بلاد النوبة ، فاعتنق بعض النوبيين الدين المسيحي نتيجة لاختلاطهم بهم . ويبرز في هذه الفترة اسم ثيودور أسقف فيلة وأسوان الذي عاش في هذه المنطقة حوالي خمسين عاماً ، وتصادق مع كثير من الزعماء النوبيين حتى تحمس زعيم منهم يدعى سلكو للدين الجديد ، واعتنقه فاعتنقه معه كثير من أتباعه . ولم تكف الرحلات التبشيرية بعد أن كفت حركة الاضطهاد إثر اعتناق الإمبراطور جستنيان للدين المسيحي ٥١٧ - ٥٦٥ م . وكان من نتيجة هذا أن اعتنقت دول النوبة الثلاثة ، نباتا ودنقلة وعلاوة ، الديانة المسيحية . وحوالي منتصف القرن السابع الميلادي بدأ الغزو الإسلامي لإفريقيا فتوقف

النشاط المسيحي فيها ، ثم عاد ثانية إلى الظهور بعد الاتصال الأوربي . وكانت البرتغال هي أول الدول الأوروبية احتكاكاً بإفريقيا ، إذ وصلت إلى الكونغو وأنجولا سنة ١٤٨٣ م وإلى موزمبيق في سنة ١٥٠٥ ، وفي كل من المنطقتين اتصلت بممالك البانتو : وكونغو ، وكاكنغو ، ولوانجو ، وندونجو وغيرها . وبدأ النشاط التبشيري منذ ذلك التاريخ .

واستمرت البرتغال تقريباً الدولة الوحيدة المحتكرة لتجارة العبيد والذهب على سواحل إفريقيا الغربية ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين في حين استمر النشاط التبشيري البرتغالي يعمل .

وحتى القرن السابع عشر لم يلتفت التوسع الأوربي إلى جنوبي إفريقيا إذ لم يكن لدى الأهالي ما يقدمونه للتجارة كالعاج والذهب ، كما لم تكن هناك موانئ آمنة تستطيع أن ترسو فيها السفن . على أنه في منتصف القرن السابع عشر أرادت الشركة الهولندية للهند الشرقية أن تؤمن طريقها إلى الهند الشرقية فأرسلت في سنة ١٦٥٢ فرقة صغيرة من الجنود والموظفين تحت رئاسة «جان فان سيبيلك» لإقامة قاعدة في خليج تابل في الحد الشمالي لشبه جزيرة الكاب ، وكان على الفرقة أن تعامل قبائل الهنتوت لتأخذ ما يكفيها لمعاشها . ولكن لما وجدت الشركة أن القاعدة بالرغم من هذا تكلفها مبالغ باهظة ابتدأت تشجع الفلاحين الهولنديين على الاستيطان ، ثم شجعت أيضاً الهنتوت الفرنسيين ابتداء من سنة ١٦٨٨ . وفي سنة ١٧٩٥ كان المستوطنون قد أضحوا من القوة بحيث انفصلوا عن الشركة وكونوا أول جمهوريتين تحت اسم «جراف ينت» «سويلندام» .

وفي أواسط إفريقيا كان الاستعمار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد بدأ يتغلغل . فدخلت بلجيكا في عهد ليوبولد الثاني سنة ١٨٨٤ الكونغو ، واستعمرت الإرساليات البريطانية البروتستانتية نياسالاند ، واستعمرت فرنسا شمال الكونغو وجابون وأوبانجي شاري وتشاد . وحوالي هذا التاريخ أيضاً . سنة ١٨٥٢ - ١٨٧٣ م . بدأت الاستكشافات داخل أواسط

إفريقيا وما تبعها من رحلات تبشيرية .

على أن الإرساليات والرحلات التبشيرية لم تحقق ما قدر لها من نجاح بصفة عامة في إفريقيا وذلك لأسباب أهمها وجود الاستعمار في حد ذاته . ففاهيم المسيحية لم يكن من السهل على الشعب الإفريقي العادي أن يهضمها ، وحينما بدأت تظهر النخبة المتعلمة من الإفريقيين ، كانت المسيحية ، لمصاحبتها المستمرة للاستعمار ، ترمز له بطريقة أو بأخرى . ولهذا بدأت بين المسيحيين الإفريقيين حركة «أفرقة» الدين المسيحي بما تبعها من تعدد الكنائس الانفصالية التي عملت على أن تأخذ من المسيحية بقدر محدود من ناحية ، وعلى أن تحتفظ بالعادات والتقاليد الإفريقية من ناحية أخرى ^(١) . ولعل من أهم عوامل إخفاق المسيحية ، أو عدم تحقيقها ما كان يرجى لها من نجاح ، هو عدم تفهم المبشرين أنفسهم ، إلا قلة منهم ، للعنصرية الإفريقية ، وللديانات الإفريقية القديمة .

وفي القرن العشرين بدأت الولايات المتحدة تتجه نحو إفريقيا فأرسلت الكثير من البعثات الإرسالية وصرفت ببذخ عليها مما يمكن مطالعته ببعض تفصيل في الكتاب الذي بين أيدينا .

• • •

لم يكن أول اتصال للعرب بالقارة الإفريقية في عهد الغزو الإسلامي ، وإنما كان قبل ذلك بمدة طويلة جداً . ولعل حروب الحبشة في اليمن وما تلاها من تدخل الفرس ، وظهور سيف بن ذى يزن من الشهرة بمكان لا يدع هنالك أى داع لسردها هنا ، وإنما يكفي أن نذكر أن سفن العرب كانت تبحر عباب البحر الأحمر من زمن سحيق في القدم ، وذلك للتجارة مع القبائل الإفريقية في الحبشة والسودان . ونذكر هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لأن أرض الحبشة ، على حد

(١) بلغ عدد الكنائس الانفصالية في إفريقيا حوالى ٥٠٠٠ كنيسة منها حوالى ٤٠٠٠

لا تتبع أى من الكنائس العالمية المعروفة .

تعبير الطبرى ؛ كانت « متجراً لقريش يتجرون فيها ، ويجدون فيها رفاة من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً » .

وجدير بالذكر هنا أن نقرر أن قبائل الكنورى يبرنو تدعى أن ملوكها الأوائل من أصل عربى ، وأنهم من أبناء سيف بن ذى يزن .

هذا ، ومن المعروف أن اليمينين عبروا منذ أقدم العصور إلى الشاطئ الإفريقى ، واستقرت منهم جاليات فى أريتريا والصومال ، بل إنهم كونوا حكومات مستقلة فى تلك الأنحاء وربطوها بالحكومات العربية الجنوبية . فى سوقطرا جاليات عربية تابعة للمملكة العربية الجنوبية ، وعلى الساحل الرئيسى مشيخات عربية فى الصومال ، وفى رهايتا الواقعة على مقربة من زنجبار حكومة يرئسها حاكم من معافر (الحجرية) . وسلاطين زنجبار هم من العرب الجنوبيين . وأقدم ما جاء من آثار الحبشة كان باللغة البيئية ، والخط السبئى ، وهى نقوش ترجع إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وتتحدث عن الإله السبئى « ذات بعدان » ، كما وجد جزء من نقش سبئى لتقديس الإله العربى الجنوبى (عشر) ، وعثر فى بجة شمالى شرق عدوة على موضع سبئى مقدس ، كما عثر هناك على مذبح صغير مقام للإله « سين » . بل إن لغة إثيوبيا ما زالت حتى الآن فيها كلمات حميرية ، كما أن العادات فى الحبشة لا تختلف كثيراً عن عادات اليمن .

وفى أحد نقوش سرجون الثانى الملك الآشورى سنة ٧١٢ ق . م نرى تفصيلات عن جزية وردت له من ملكة عربية ، وشملت تفصيلات الجزية الذهب وأنواعاً من التوابل ، وبعض الرقيق . وهؤلاء لابد أن يكونوا قد أتوا من إفريقيا .

وإذا قلبنا الآية نجد أن أول غزو لليمن قامت به الحبشة كان فى عام ٣٢٩ ميلادية . وقد عُرِفَ هذا من كتابات عثر عليها فى أكسوم التى لقب فيها النجاشى (بملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبأ وسلح) . وفى حوالى سنة ٨٠ بعد الميلاد كتب رئيس مركب يونانى عن الساحل

الشرقي لإفريقيا ، التي أسماها قارة أزانبا ، أنه رأى مدناً تجارية كثيرة على الساحل يقطنها رجال طوال القامة ، ولم يصفهم بالسواد أو البياض ، ولكنه ذكر أن التجار العرب كانوا يتكلمون لغتهم ، كما ذكر أن معظم المدن الساحلية كانت تحت حكم أوسان وهي دولة كانت في جنوب الجزيرة العربية . وما هو جدير بالذكر أن هذا البحار اليوناني أبحر جنوباً حتى وصل إلى ما هي الآن دار السلام بتانزانيا .

وإذا ما استثنينا تلك الفئة القليلة التي كانت أول من دخل إفريقيا من المسلمين العرب ، نجد أن الإسلام بدأ دخوله الحقيقي إلى إفريقيا عن طريق مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤١م . كما بدأ دخول الجيوش الإسلامية إلى السودان على يد عقبة بن نافع سنة ٦٤١م ، ولكنهم لم يتوغلوا في بلاد النوبة حتى كانت سنة ٦٥٢م حينما جرد عبد الله بن أبي السرح ، وكان قد خلف عمرو بن العاص على ولاية مصر ، جيشاً توغل في مملكة المقررة حتى عاصمتها دنقلة في سنة ٦٥٢م ، وأحكم الحصار حولها حتى طلب الملك قليد وروث الصلح .

وبدأت علاقات المسلمين مع البجة ، وهم سكان الصحراء ، ما بين النيل والبحر الأحمر، في سنة ٧٢٥م حينما هاجموا صعيد مصر . ثم تجددت غاراتهم على أسوان في عهد الخليفة المأمون العباسي الذي أرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٨٤١م ، فهزمهم ، وأملى عليهم صلحاً جعل بموجبه بلاد البجة من حد أسوان إلى ما بين دهلك (مصوع) ، وباضع (جزيرة الريح) ، ملكاً للخليفة ، وفي الوقت نفسه دخلت قبائل من جهينة وبلى إلى بلاد البجة ، كما عبر فريق من هوازن البحر الأحمر ، عرفوا فيما بعد بالحلانقة ، وأقاموا في بلاد البجة ثم رحلوا إلى إقليم الناكه (كسلا) .

وعندما انهارت الخلافة الأموية هرب كثير من أتباع الأمويين إلى النوبة والبجة ، إلى الصحراء الشرقية . كما أنه عندما بدأ الخليفة المعتصم يستخدم الأتراك . تزايدت الهجرات العربية إلى الجنوب . ويحدثنا المسعودي حين زار مصر سنة ٩٤٠م عن اختلاط عرب ربيعة بالبجة . كما يحدثنا عن قبائل من

قحطان وربيعة وقريش تقدموا من أسوان جنوباً إلى بلاد النوبة ، وكتب سنة ٩٣١ م عن دولة الزنج ، وتكلم عن مدينة سفالة ، وأنه بالرغم من أن الشعب لم يكن قد أسلم ، فإن العائلة المالكة كانت قد أسلمت وحسن إسلامها .

ومن الناحية الأخرى ، عبر البحر الأحمر ، نجد أن تجار العرب المسلمين . كما يحدثنا المقريزي ، كانوا يتوافدون على الحبشة حتى كان القرن الرابع عشر حين نزلات جماعة من قريش قيل إنهم من بني عبد الدار وقيل من بني هاشم ، في أرض جبرت من أراضي الزيلع ، وأقاموا بمدينة أوقات . وأكبر غزوات المسلمين في الحبشة هي التي قام بها الأمير الصومالي أحمد بن محمد الأجراني الملقب بالأشول ، إذ اخترق الحبشة من حدودها الجنوبية إلى أقصى حدودها الشمالية . واستشهد في إحدى الوقائع ، فتأثر له الأمير نور الدين الذي خلفه . وقد أسلم في هذه الغزوات عدد كبير من الحبشانيين :

ومن ناحية ثالثة كان العرب بعد فتح مصر قد اندفعوا في غزو شمالي إفريقيا . فما كادت تنقضي سنة ٦٤٧ م حتى كان ابن أبي سرح قد أتم فتح طرابلس الغرب . ولكنه اكتفى بفرض الجزية .

وفي سنة ٦٦٧ م استأنف ابن حديج الحرب ضد المسيحيين في الغرب ، فأوغل في غزوته الأولى . ولكن المؤسس الحقيقي للحكم العربي في إفريقيا الشمالية هو عقبة بن نافع الذي أفاح سنة ٦٧٠ . بمعاونة البربر ، في القضاء على الحكم المسيحي في شمال إفريقيا دفعة واحدة . وفي سنة ٦٨٢ سار في حملة أخرى نحو الغرب حتى بلغ المحيط . وفي سنة ٧١١ افتتح المسلمون بقيادة طارق ابن زياد الأندلس بعد أن أنزلوا ضربة قاضية بالملكة القوطية .

وعلى الرغم من أن قبائل البربر كانت قد هزمت أكثر من مرة بعد سنة ٦٤٧ فإنها لم تهدأ ، وقامت بعدة ثورات ، منها ثورة سنة ٦٨٣ بقيادة كسيلة ، وثورتهم سنة ٧٤١ . والواقع أنه لم يحسن إسلام البربر

إلا بعد مضي حوالى مائة عام من بداية دخول الإسلام فى إفريقيا الشمالية . ومن الشمال بدأت جحافل الإسلام تغزو أواسط إفريقيا . وأول ما وصل إلينا هو ما يروى عن جماعة من المسلمين اخترقوا الصحراء حتى وصلوا إلى مملكة غانا القديمة سنة ٧٣٥ . وبعد سنوات حينما وصل إليهم بن حوقل ، كان المسلمون قد أنشأوا مدينة كوامبي التى ذكرها الرحالة الإسلامى البكرى حينما زارها فى القرن الحادى عشر . ولعله يستحسن هنا أن أقول إن غانا القديمة لا علاقة لها بغانا الحديثة ، فقد كانت الأولى بين النيجر والصحراء ، أى تقع فى موريتانيا الحديثة ، وبينها وبين غانا الحديثة عدة مئات من الأميال .

وفى قبيلة لمثونة . إحدى قبائل صنهاجة الضاربة فى اتجاه الجنوب حتى بلاد السنغال ، والمسيطرة على الشعوب الزنجية المجاورة ، ظهر يحيى ابن إبراهيم الجدالى . وفى نفيس ، تقابل مع عالم فقيه هو عبد الله بن يس الجزولى المولود بسلجماسه ، والذي أسس فئة المرابطين الذين وصلوا فى فتوحاتهم حتى عاصمة غانا سنة ١٠٦٢ . وبين القرنين الحادى عشر والرابع عشر كانت قد تأسست ممالك إسلامية كثيرة فى أواسط إفريقيا ، كمالى وسونغاي (بوا) ، وكانم ، وبرنو والهوسه ، والفلولانى .

وينجب هنا ألا ننسى رحالة الإسلام العظيم ابن بطوطة الذى زار حوالى سنة ١٣٥٠ ميلادية بلاداً كثيرة فى إفريقيا نذكر منها سلجماسه وتفازا ، وتاسر هلا . وأيرالاته وزاغرى . وكارسخو . وكابره ، وزاغه وميمه ، وتمبكتو . وكوكو . وبلاد برادمة . وبرنو ، وتوات ، ودنقلة ، وبودا . كما ذكر أنه فى رحلته هذه التقى بجماعة من بربر نساؤهم ناصعات البياض . والتقى كذلك فى رحلة عودته بجماعة أسماها هكار ، قال عنهم إنهم ملشون . ولعنه المطارق المعروفون . وفى إحدى رحلاته الأخرى ذكر أنه وصل إلى ساحل شرقى لإفريقيا وزار دول الزنج .

• • •

هذه نظرة سريعة جداً عن البيانات السائدة في إفريقيا ، التقليدية والمسيحية والإسلام . فالأولى لا يعرف التاريخ لها مصدراً ولا نشأة ، ربما تكون مجرد تطور عادي للعبادات الوثنية ، ولكن هذا مستبعد إذ أنها تكاد جميعها تؤمن بإله واحد ، وفي أساطيرها الكثير مما ورد في الكتب السماوية كما أوضحنا . لهاها كانت في المنشأ أدياناً سماوية قائمة بذاتها^(١) . أو لعل اليهودية الأولى وجدت طريقها إلى أواسط إفريقيا ، ربما عن طريق مصر ، أو الحبشة التي كان فيها كثير من اليهود قبل أن تصبح مسيحية ، أو لعل اليمنيين قد نقلوها في أثناء ترحالهم وهجراتهم إلى إفريقيا . من يدري ؟ والمسيحية دخلت مصر أولاً . ثم الحبشة في القرن الرابع الميلادي ، ثم توقفت حتى جاءت الإرساليات مع الاستعمار في بداية القرن السادس عشر مبتدئة بغرب إفريقيا الوسطى وشرقها ، ثم الوسط والجنوب . أما الإسلام فقد كانت له طرق ثلاثة ، من الساحل الشرقى . ومصر . وشمال إفريقيا . وأخيراً رفع الفولاني آخر راية للجهاد في القرن التاسع عشر .

(١) لعل هذا مصداق لقوله تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » . (سورة النحل)

مقدمة

لأننى أقبل استقلال إفريقيا بلا تحفظ . هذا مبدئى ، ومن المستحسن أن أقرره أولاً .

وأعترف أيضاً بلا تحفظ ، بمساواة الإفريقى فى الكرامة ، وأعتقد أن الإفريقيين لا يخضعون لأى التزام بأن يبرروا حريتهم أو كرامتهم . شأنهم فى ذلك تماماً شأن الغربيين ، لا أكثر ولا أقل ، فنحن ، إفريقيين وغربيين ، من معدن واحد .

ومن الناحية العملية ، فإن نتيجة تحرير الإفريقيين سوف تتوقف على عوامل عدة ، بعضها إفريقى محض ، وبعضها الآخر لا شك فى تأثيره بشعور الغرب وتصرفه وعلاقاته مع إفريقيا .

والكثير من هذه العوامل سياسى واقتصادى ، وقد كتب عنها بغزارة . ولكن السياسة والاقتصاد ليساهما العاملين الوحيدين اللذين يشكلان مستقبل إفريقيا ، فالدين أيضاً عامل له اعتباره عامل أساسى هام .

وقليلون هم الذين كتبوا عنه بالتوسع الكافى المسطر فى هذا الكتاب .

وهناك أسئلة لها أعمق الدلالة لإفريقيا ولشعور الغربيين نحو الإفريقيين مثل :

ما هو مستقبل المسيحية كرابطة دينية مع قادة إفريقيا الناهضة ؟

ما هو مستقبل الإسلام فى نفس الاتجاه ؟

ما هو الأساس الأخلاقى الذى ترى نخبة الإفريقيين بناء المجتمعات المتحررة

حديثاً عليه ؟ ماذا يعنى المثقفون الإفريقيون حينما ينادون بالقيم الروحية

الإفريقية التقليدية كأساس ؟

إذا كان السحر جزءاً موروثاً من هذه القيم التقليدية فما أثره على التطور

الأخلاق والعقل ؟

ما هو نوع التدريب الديني والأخلاقى الذى ينادى به المثقفون الإفريقيون كجزء من التقدم التربوى ؟

ماذا يعنى مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة بالنسبة للمجتمع الإفريقى الحديث ؟

ماذا تعنى الارتباطات الدينية بالنسبة لحياة الزعماء الإفريقيين ؟
ما هو الأثر الحيوى ، إن وجد ، للبناء الإفريقى التقليدى لعالم الروح غير المرنى « نيم » ؟

ما علاقة كل ذلك بالإغراء بالشيوعية كبديل عن القوى الروحية ؟
على قدر علمى أن كلا من هذه الأسئلة قد عولج على حدة ، فى المؤلفات الكثيرة عن إفريقيا ، ولكن لم يوجد مؤلف يجمعها كلها بطريقة مترابطة . وهذا هو عذرى فى الدخول فى ميدان مزدحم فعلا . فكتابى يقصد به أن يكون مجملًا جامعاً أكثر من أن يكون مفصلاً شاملاً . وقد ذيلته بقائمة مؤلفات لمن يبنى أن يراجع بعض الخطوات التى سرت على هديها . وإنه إن لم يكن فى وسع كل شخص أن يقوم بمثل ما قمت به من الأسفار والمقابلات التى قمت بها فى إفريقيا ، فإن الجميع يمكنهم أن يوسعوا معلوماتهم وتفهمهم لروح إفريقيا الجديدة وإمكانياتها . إن قضية استقلال إفريقيا لا تعتمد على رأى الغرب ، ولكن إذا أراد الغربيون أن يساعدوا الإفريقيين فى الاستفادة من حرياتهم على خير وجه ، فإنه من المهم جداً أن يوجد تفهم أعمق للمشكلات والمسائل التى يثيرها هذا الكتاب . إن الإفريقيين لهم الحق فى حريتهم سواء أساموا استعمالها أم استفادوا منها . ولكن من السخف أن يترك الموضوع عند هذا الحد .

إن النساء والرجال ذوى الروح المدنية والعميق الروحى قلائل إلى حد مؤلم فى الوقت الحاضر فى إفريقيا . وسوف يزداد عددهم ، ولكن وجهة النظر الروحية الآن لهذه النخبة الضئيلة هامة جداً . ولهذا السبب فإنى مدين بالشكر العميق للدكتور أ.ى اسين أودوم من نيجيريا والعضو بمركز الشؤون الدولية بهارفارد ،

لمساعدته إياي في التنقيب عن الشعور الديني بين المثقفين الإفريقيين وكتابة تقرير عنهم . وفي المجموع قد تركتهم يتكلمون عن أنفسهم بدون محاولة تهذيب أو تعديل . وأعترف بديني أيضاً لروبين هورتون الذي أمدتني دراساته بمادة قيمة جداً عن شعب كالاباري .

هذا الكتاب عن إفريقيا جنوبي الصحراء . وإني أعلم جيداً بوجود الصحراء والمساحات الشاسعة شمالاً ، وإن كتاباً عن الديانة في إفريقيا يمكن أن يتسع ليشمل القارة بأكملها . إلا أن الصحراء ليست مجرد حاجز جغرافي، بل إنها أيضاً فاصل بين ثقافات متباينة .

ابتدأ روبرتون سميت كتابه التقليدي عن الدين لدى الساميين بهذه الكلمات : « لم يستطع أي دين إيجابي ذي أثر في الإنسان أن يبدأ من حد الصفر دون تدرج خارجي ، وأن يشرح نفسه كأنما قد بدأ الدين لأول مرة، سواء من ناحية الشكل أو الجوهر ، فالنظام الجديد يجب أن يسير على طول الخط الآراء والمعتقدات الأقدم منه التي يجدها سائدة ، ولو من ناحية الشكل . وإن نظاماً روحياً جديداً لا يمكن أن يجد أذنًا صاغية إلا إذا التجأ إلى الغرائز والمؤثرات الدينية الموجودة فعلاً . . . ولا يمكن أن يصل إليها بدون أن يأخذ في الاعتبار الأشكال التقليدية التي تحوي كل الشعور الديني ، وبدون أن يتكلم لغة يستطيع أن يفهمها هؤلاء الأشخاص الذين اعتادوا هذه الأوضاع » .

هذه روح أوافق عليها تماماً . فالتدرج . وليس الغزو ، هو دين إفريقيا المستقبل . ول هؤلاء الذين يرغبون في تفهم أحسن لما يحدث في النفوس الإفريقية أقول إنه من المستحسن أن يسيروا بخطوات حذرة ، أعني أن يتجردوا من الصفات التي ورثناها عن مدنيتنا .

في الماضي كانت الحياة في إفريقيا دينية أساساً . فعلاقة الفرد بأسرته وبالقبيلة . والأخلاق . والقانون ، والعبادات . والاحتفالات . والسياسة . والمركز الاجتماعي . والطرق الاقتصادية ، والحرب والسلام ، كلها كانت تضعف . أو تقوى في الحياة الإفريقية مركزة في الدين . وقد يقال إن النفوذ الغربي — وهو يتلاعب

بآلاف المسائل في الحياة الإفريقية قد محا الطابع القديم ، وإنه تكرر لقاعدة أضحت مسلة فعلا . ومع هذا ما زال الواقع قائماً ، والسؤال الآن هل تستمر الحياة في إفريقيا مستندة على الدين أساساً ؟ وإذا كان الرد بالإيجاب فعلى أى الأشكال ؟ وإن كان بالنفى فما النتيجة ؟

قبل إن الدين التقليدى لإفريقيا يقوم على الرقص أكثر مما يقوم على التفكير ؛ وإنى لو لم أكن قد نشأت على التقاليد الغربية لرقصت تعبيراً عن شكرى لزوجتى روث ، التى شاركتنى العمل فى هذا الكتاب فى أكثر النواحي العملية . وهناك مثل لقبيلة باروينا يقول : « إن أى شخص يحاول أن يبتلع حجراً ضخماً يلزم أن يكون لديه ثقة كبيرة فى حجم حنجرتة » ، ومن بعض النواحي كانت كتابة هذا الكتاب محاولة لابتلاع حجر ضخم ، ولكن ثقتى كانت فى مقبرة زوجتى على انشالى .

ولم توضع هذه الثقة فى غير محلها .

جاك مندلسون

بوسطن ، ماسوتش

صليب إفريقيا الأسود

بعد أن تناولت العشاء حوالى الساعة التاسعة ، حضر السيد الجليل « بن نزاريب » ، وهو الدكتور « بن نزاريب » الذى حصل على الدكتوراه من جامعة « كورينل باثيكا » ؛ ويعمل بجمعية الخدمات الإلهية كما يساعد موظفيها ، وقد عاد إلى قريته المسماة (أوو أو ماما) بشرق نيجيريا حيث أصبح ينظر إليه كأنه رئيس أعلى متوج . وتجمعت حوله عشرات المشروعات الحيوية التى أساسها مساعدة التطور الذاتى من مدارس ، وطرق ، ومعسكرات ومستشفيات ، ومطاعم شعبية ، ومزارع تجريبية . إن « أوو أو ماما » تتحرك مع الزمن إلى القرن العشرين ، وهذا الشاب هو المحول ، وهو المحرك ، وهو المنشئ .

وكان دق الطبول يملأ الأسماع . إذ هى ليلة « أوا » أيام رقص وولائم ، يبدأ فيها جمع محصول « اليوم » ، وهو نبات استوائى يشابه نبات البطاطا .

وقد جاء « بن » ليقودنى إلى كوخ الاجتماع حيث يقوم مواطنوه المسنون بعقد اجتماعاتهم الإرشادية الخاصة .

والكوخ مستدير . ومفتوح من الجوانب ، ومسقف بالجريد ، ويبعد حوالى مائة ياردة عن منزلى . وفى أثناء سيرنا فى الظلام حاولت أن أتذكر ما كان « بن » قد قاله لى عن أعياد اليوم لدى « الأوا » : طالما بقى العيد فإن بطون أوو أو ماما تمتلئ بمزيج رطب خاص يسمى « فوفو » فيعجن دقيق اليوم بكميات ضخمة ليكون مزيجاً لبنياً متماسكاً يشابه « لقمة التماضى » . وتمتد الأيدي لتقطع أجزاء منه ، وتكون قطعاً مستديرة صغيرة ، وتقذف هذه القطع إلى وعاء به طيبخ حريف ثم تؤكل .

وال « فوفو » هو الطعام الرئيسي في أحرار نيجيريا ، ويعمل من نبات الكسافا في أثناء الأشهر الطويلة التي لا يوجد فيها نبات الياقوت .
وقال بن : « إنه احتفال قديم العهد ، ولكن الفارق بين الكسافا والياقوت كالفارق بين لحم الضأن ولحم الماعز ، ولهذا كان موعد حصد محصول الياقوت عيداً . ولكنه ، مثل أشياء أخرى كثيرة هنا ، فقد الناس الصلة بمعناه . وإنني أحاول منذ عودتي أن أنبههم إلى أهمية فكرة الشعائر القديمة . إنها جزء من علاج نفسي لإيقاظهم من سباتهم ، ومساعدتهم في أن يشعروا بالفخر بأنفسهم . »

ولست أفهم المعنى الكامل لهذه الحملة ، لكنني أذكر أن بن قد ربط برباط محكم بين مشروع إيقاظ مواطنيه وبغضه الكامن للمبشرين ، الذي يحاول عبثاً أن يخفيه . قال « إننا مرزوعون بالمسيحيين . إنها ليست فقط التقارير الكاذبة عن الصور العارية لنسائنا ، ولكنها أيضاً الطريقة التي اتبعت معنا لكي يشعر معظمنا بالخجل من العادات القديمة . سوف يكون هذا أكبر "أوا" منذ سنين ؛ إذ يحضره مئات من العائدين من لاجوس ومن أنجيو ، بل من الكيمرون أيضاً . »

والمئات من الرجال الذين أشار إليهم بن إنما كانوا يمثلون الآلاف من رجال قبائل « أوو أو ماما » الذين شقوا طريقهم في المدن كتجار ، أو سقاة ، أو موظفين حكوميين ، وهم - مجتمعين - يكونون الشبكة الواسعة لـ « أوو أو ماما الوطنية » ، وهي القوة الحقيقية خلف الإصلاحات في قرية نزاريب . أوو أو ماما ليست قرية بالمفهوم الأمريكي ، ولكنها أقرب إلى طائفة متفرقة مكونة من حوالى خمسة وعشرين ألفاً من الأشخاص المنتشرين في مئات الأميال المربعة من أرض رملية وأحرار متشابكة ، أو أشجار نخيل الزيت . أو أراض مزرعة بالياقوت ، والكسافا ، والشعير . وأغلب هؤلاء الأشخاص عاشوا قروناً في مستوى معيشة يبلغ حد الكفاف في أكواخ متباعدة من الطين . وتحت ظلال الأشجار يابعب الأطفال عراة بقرب منازلهم ، في حين تندثر النساء بما يغطي النصف الأسفل فقط ، ولكنهم حينما يخرجون

إلى الشبكة الحديدية من الطرق المعبدة أو المرصوفة التي اقتطعها نزاريب وعمله المتطوعون من الأحراش يلبس الأطفال عادة سراويل قصيرة مشترقة من تجار متجولين . وتلتف النساء بسار كامل ذى ألوان زاهية .

وفي كل دقيقة يكسب حوالى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من رجال أوو القادريين عيشهم فى بعض المدن البعيدة . ومن بينهم كبار الراقصين الفنيين . والطبالون الحاذقون . الذين بغير وجودهم فى مناسبة الاحتفالات ، مثل « أوو » ، يضع الكثير من قوة الشعائر .

إن ما أفصح بن نزاريب فى عمله هو أنه قد ارتفع بفخر مواطنيه المتغيبين بنشئهم فى « أوو أو ماما » . حتى إن مئات منهم قرروا العودة إلى أوو . هذا النصر كان من الواجب أن يتم للتغلب على الخجل الذى يتسلط عليهم من العادات التى وصمها بالوثنية خطباء المبشرين . ومن الواضح أن الشخص لا يستطيع أن يهمل بسهولة تأثير الإرسالية الكاثوليكية الإيرلندية التى كانت حتى ثمانية عشر شهراً خلت المصدر الوحيد فى « أوو أو ماما » للتعليم الأولى ، والعناية الطبية بالأمهات المنتظرات .

هذه هى الأفكار التى كانت تملأ ذهنى حينما دخلت مع بن كوخ الاجتماع . حيث أضيفت مصابيح الكيروسين لتأق ظلالاً كثيفة على مجموعة من الناس يجلسون فى دائرة على مقاعد ، أو متربعين على الأرض القذرة الصلبة . وكان واحد أو اثنان منهم فى العشرين من العمر . واثنان آخران متقدمان جداً فى السن والباقون بين هذا وذاك .

وكانت تخيمهم رسمية ولكن بخبرة . وجلست على مقعد . وجلس بن عن يميني . وجلس عن يساري شخص جاحظ العينين متدثر بدثار مبالغ فيه . وهمس بن فى أذنى أن هذا الشخص هو القصاص . أو المغنى . وأنه أحسن المحترفين فى أرض إيبو .

وكان هنالك استعراض قطعه دخوانا . ولكن حينما جلسنا بدأ القصاص

مرة ثانية . ولم أسمع في حياتي شيئاً كهذا تماماً . كان يتكلم بصوت نافذ حاد النبرات ، وانسابت الكلمات من شفتيه وسطاً بين الغناء والكلام العادى ، وازدادت عيناه جحوظاً حتى خيل إلى أنهما سوف 'تقفزان' إلى مصباح الغاز الموضوع في وسط الدائرة ، وكان المستمعون في حالة ذهول تام ، يتعقبون كل كلمة ، وقد تقلصت عضلات وجوههم فأصبحت أكثر شدة من وتر القوس .

وفجأة انفجروا ضاحكين . ومال على بن وقال : « لقد وضع لهم لغزاً . أيهما أسوأ ، زوجة سوء أو ولد سوء ؟ ثم أجاب عن ذلك بقوله إن ولد سوء هو شر الطرفين لأن الرجل يمكن أن يطلق زوجته ، ولكن ابن سوء يظل معه دائماً » . وأعتقد أن هذا ملخص مقتضب جداً ، إذ أن اللغز كان أطول من ذلك كثيراً لأن القصاص استغرق أكثر من خمس دقائق وهو يرويهِ . واستمر بن يقول : « إن مغنياً مثل هذا له مكانة كبيرة ومرموقة نظراً لأنه من المحترفين . لقد أمضى سنوات عديدة ليتعلم ملايين الكلمات ، وإن نبوغه يتجلى في أنه لا يغير أبداً كلمة واحدة حين يعيد تلاوة مادته » . وسألته : « ماذا تعنى بكلمة مادة ؟ »

— إنها بالفعل مئآت من الأساطير القبلية وشعائرها ، والحوادث التاريخية وأمثالها وأحجياتها ونوادرها — أنواع شتى من الأشياء . وعليه أن يقولها بنفس الطريقة كل مرة حتى إنه إذا وضع كلمة في غير موضعها لحقه العار .

— وكيف تعلمون إذا ما أخطأ ؟

— ربما نعلم وربما لا نعلم . إننا جميعاً نعرف بعض هذه الأشياء . وعلى أى حال فإنه لا يجرؤ على المجازفة .

وفي هذه الأثناء كان القصاص قد استغرق في كلامه مرة ثانية ، كما انضم شخص جديد إلى الجماعة ، وكان القادم شاباً صغيراً يحمل برميلين من خمر البلع .

وكان القصاص يصرخ أحياناً ، ويطن أحياناً أخرى طنين النحل ، في حين كان بن يميل على مرة ثانية ليخبرني أننا نسمع الآن إحدى نظريات إيبو الفلسفية عن الخير والشر . وفي هذه الأثناء كانت أقداح زجاجية كبيرة تملأ بخمر البلح .

وكان كل واحد منهم إذا ما امتلأ كوبه ، يشربه دفعة واحدة بدون توقف . وارتشفت من كوبي بخذر ، ومع هذا كدت أفقد عشائي إذ كانت رائحة الخمر وطعمها كالجواز بالنسبة لي .

ومرت دقائق اختتم بعدها القصاص روايته . وأكثر الحاضرون استحسانهم بالإيماء والهمس ، ودارت الخمر دورة أخرى . وفي هذه المرة انضم المغني إلى الشاربين وأفرغ في جوفه الكأس مليئة مرتين . وفجأة وقف أحد الحاضرين على قدميه وبدأ الرقص . وهمس بن : « إنه ليس أحد المحترفين ، وإنما هو يعبر عما بنفسه فحسب » .

ولاح لي أن رقصه كان جيداً ، ولكن كان من الواضح أن باقي الرجال كانوا يتغامزون منتقدين ، وقام رجل آخر يرقص متحدياً ، وقد انفجر الآخرون ضاحكين . وبعد أن أروى المغني الذي لا يتعب ظمأه مؤقتاً ، بدأ مرة ثانية يقص قصصه . وتوقف الرقص .

واستمر سير الحوادث متماثلاً فترة لاحت لي أنها ساعات . وطوال الوقت كن يزداد لي وضوحاً أن تصرف أحد الرجال غير عادي . لم يكن يشترك مع المجموعة ، كما لم يكن من السهل تحديد سنه ، وربما كان في الخمسين ، وكان يرتدى قبعة رخوة تناثرت عليها الأوساخ . وقميصاً أزرق باهتاً ، وسروالا رمادياً من القطن ، وحذاء كبيراً في قدميه . وكان يجلس على الأرض ويخرج قليلاً عن الدائرة وقد وضع ذقنه على ركبتيه ، وهو يكاد يغلق عينيه .

وفجأة هب هذا الرجل على قدميه راقصاً حول الكوخ كأحد الدراويش . وحينما دلف متمايلاً أمام المصابيح وتطاول ظله يتابعه ، لاح أن نوعاً من المس

قد خالطه واستولى عليه . وبقفزات وحشية بدأ يطوح برجليه الرفيعتين في كل اتجاه ، وتأرجح الصليب المدلى من رقبته بشدة في كل اتجاه تبعاً لحركة الجسم العنيفة :

وصدرت ضحكات استحسان من الرجال الآخرين . وكان من الواضح أن هناك شيئاً مغايراً ومثيراً للغاية . واندفع أكبر الموجودين سنّاً إلى خارج الكوخ ، وضرب بشدة على طبلة قديمة مصنوعة يدوياً . وحينما خفت الهتاف ، مال على بن نزاريب وعيناه تبرقان وقال : « هل تعلم عن أى شيء كل هذا ؟ فأجبتة : « يا إلهي ! - كلا » .

قال بن : « هذا الرجل هو واحد من أكثر المسيحيين إخلاصاً لدينه . ولأن المبشرين حظروا عليه الرقص ، لم يرقص منذ سنوات ، ولكنه الليلة قد رقص ، ولم يكن في استطاعته المقاومة أكثر من هذا » .

وكان من الجلى أن كل الحاضرين يشاطرون بن رأيه . لقد عاد أخ مفقود إلى القطيع . ولم يعد الضال جالساً خارج الحلقة بل أصبح جزءاً منها .

وكان الراقص نفسه يلهث ، ولكن وجهه الكالح كان قد اكتسى مسحة من الراحة . وببدا مرتعشة أفرغ في جوفه قدحين متتاليين من الخمر . وخلال الأيام التي تلت رأيت المأساة نفسها تتكرر مراراً ، ودائماً أبداً كان الهدف واحداً . شخص كانت ارتباطاته بالمسيحية تمنعه من الرقص ، بقذف هذه القيود فيهتف له الآخرون بحيون فيه « التحرر » والعودة ، إلى « الإفريقية » . كانت مأساة رمزية لأحداث ذات معنى في حياة إفريقيا الدينية .

إن قلقاً روحياً واسعاً يحيط بإفريقيا ، فالمسيحية - وقد طبع عليها الاستعمار طابعه - أصبحت في موقف شديد الحرج . والإسلام بدأ نشاطه . والطقوس الدينية الأهلية - برغم أنها قوية في بعض النواحي - متراخية في

نواح أخرى . والاحتفالات القديمة: الرقص ، والطبول ، والطقوس ، الطبيعية أصبح ينظر إليها باهتمام ونأثر جديدين - سواء بين الشبان الإفريقيين المتعلمين أو السفطانيين - على أنها تعبيرات تربوية للروح الإفريقية . وبرغم تفهم الآلهة والأرواح القديمة فإن الإفريقى الناهض فى بحثه عن نفسه بدأ يتابع الاتجاهات الدينية الموسومة بالطابع الإفريقى الخالص .

وماذا عن حركة الدعوة التبشيرية المسيحية ؟ إن تقدمها البطيء المستمر قد اصطدم الآن بإفريقيا الجديدة . وأقيمت ضدها اتهامات ساخرة ومؤلة معاً .

وحينما تكون حالة الشبان الإفريقيين النفسية سعيدة ، لا يتعبون من ترداد القصة القديمة : « إن المبشرين جاءوا إلينا ، وقالوا إننا نريد أن نعلمكم العبادة » . وقلنا : « حسناً إننا نريد أن نتعلم العبادة » ، وطلب المبشرون منا أن نغلق أعيننا . وفعلنا ذلك وتعلمنا التعبد . وحينما فتحنا أعيننا وجدنا الإنجيل فى يدينا ، ووجدنا أراضينا قد اغتصبت !

ولكن هناك أيضاً تلك الكلمات المريرة ، كلمات تكررت بلا توقف فى إفريقيا كلها : « إن حركة التبشير المسيحية كانت محاولة لإخماد الروح الإفريقية » . « لقد حاولت أن نحول الإفريقيين إلى أوربيين مسيحيين ، فركلت مدينتنا لتظهر لنا مع أى جانب يقف الرب .

« إن المبشرين غير واقعيين فيما يتعلق بتعدد الزوجات .

« حينما يكون للرجل الأبيض اليد العليا فإن المبشرين يتقبلون برضاء غريب التفرقة العنصرية .

« إن المبشرين يتناقضون حينما يكون الأمر متعلقاً بتدريب أحد الإفريقيين لتولى الرئاسة والساطة فى الكنيسة .

« إن الإرساليات كانت تقف موقف عدم الاهتمام . بل العداء ، من القومية

ولم يوجد شعور صادق حقيقى للتوجيه السياسى الذى يسيطر على الشباب الإفريقى .

وقد حدثنى أحد كبار موظفى حكومة غانا بعد أن فكر ملياً قائلاً : « بعد تفكير عميق قررت ألا تكون لى صلة بأية كنيسة . فالكنايس لا تكاد تساعد فى حل مشكلات غانا الروحية ، وكل ما يابوح أنه يهتمها هو جمع المساعدات المالية وحضور قداس الآحاد . إن اتجاههم يظهر أنه إذا اهتمت بهذه الأشياء فالرب يرضى . إن شبابنا يريدون شيئاً لا يحصلون عليه . ولا أستطيع أن أرغمهم على الذهاب إلى الكنيسة ليستمعوا إلى مبادئ لا يؤمن بها المبشرون أنفسهم إيماناً راسخاً . »

وقال أحد الساسة الصاعدين بسرعة فى نيجيريا : « لا أود أن أظهر غير الشكر ، فإنه لولا الإرسالية المسيحية وما أنشأت من مدارس لما كان معظمنا ليتلقى أى تعليم ؛ ولكن الكنايس لم تسير التطور الزمنى ، ولا الروح الإفريقية . إننا نريد شيئاً أكثر دفئاً من قصص الإنجيل والانتقادات ضد الحفلات والرقصات القبلية . »

وسأل أحد المبشرين الإنجيليين فى أثناء تناولنا الشاي متبرماً : « ألا يمكنك أن تفعل شيئاً مع البروتستانت الأمريكيين المحافظين ؟ إنهم هنا بكثرة ، وينفقون الكثير من المال ، ومقابل كل إفريقى يقومون بهدايته يحرقون مائة ياصرارهم على سيطرة الرجل الأبيض على الإرساليات وبسخريتهم من السيادة . »

وأشار فلاح ثرى من كيكويو إلى قمة تل من التلال السوداء بكينيا قائلاً : « هل نرى الإرسالية التى هناك ؟ إنهم يديرون ملجأ للأيتام ، ومدرسة للتجارة ، ومشفى . وكل هذا لصالحنا نحن الكيكويين ، ولكن هل تعلم أننى لم أر قط أى قسيس أبيض منهم فى أى اجتماع أو قداس بقريتنا ؟ إذا كانت هذه هى المسيحية فإننا نستطيع الاستغناء عنها . »

وأبدي مدرس بريطاني في كلية عبدان هذه الملاحظة : « إن الكثير من سكان المدن الإفريقيين ليس لديهم سوى معلومات غامضة عن عادات شعبهم القديمة . ولكن تنبثق من الوطنية رغبة شديدة في تمجيد المدنية القديمة . وخلق - أو إعادة خلق - فنون وتعبيرات روحية إفريقية خالصة . وإن الخطباء المسيحيين للأسف غالباً ما يوحى تصرفهم بأنهم يعارضون هذه الأفكار بعصبية، وهذا بالنسبة للشباب الإفريقي المعاصر يماثل تماماً الاعتراض على أنه إفريقي » .

وقد قال لي أحد مشايخ القسس من بانغون في اجتماع سرى في جوهانسبرج . وقد تقلص وجهه من الانفعال : « يزداد الأمر صعوبة يوماً بعد يوم في أن أقنع شعبي بالتزام عقيدتهم المسيحية . لأنهم يريدون أن يعرفوا لآية مدة يمكن أن يظلوا مسيحيين ، في حين أن المسيحية هي دين حكومة البوير التي تعاملهم كأنما هم أدنى إنسانية ! »

ويزيد الكابوس على زعماء المسيحيين ارتفاع دلال الإسلام ، فالذين يتوجهون إلى الدين الإسلامي في معظم أجزاء إفريقيا تفوق نسبتهم كثيراً مكاسب المسيحية . فبين النخبة الصاعدة من الشباب الإفريقي ، حيث كان إخفاق المسيحية أكثر ظهوراً ، نجد - كما في نيجيريا - حركة إسلامية نشيطة . ذات طبيعة إيحائية ، وعقلية ، لها أثر ضخم ناجح . وللإسلام في المناطق القروية طريقة يندمج بها بسهولة في البناء الاجتماعي القديم .

وفي لاجوس ، المكتظة بالسكان ، حدثني شاب نيجيري ، وهو مدير تنفيذي في شركة بنزل هامة ، ودكتور في الفلسفة من جامعة نيويورك ، عن دوره الرئاسي في تنظيم جمعية إسلامية جديدة هدفها هداية الشباب الإفريقي المتنوع بالذات ، وبخاصة الذين ما كادوا يبدأون حياتهم العلمية في الحكومة ، أو في الصناعة .

وحدثني في لاجوس أيضاً أن تحدى أحد العلماء المسلمين المشهورين

بيلى جراهام فى مناظرة علنية ، وطبقاً لسياسة بيلى العادية فى مثل هذه المسائل رفض التحدى . وكان التعليق الطبيعى هو أنه إذا كان جراهام يرغب فى مهاجمة العقيدة الإسلامية فله مطلق الحرية فى ذلك ، ولكن كان يجب أن تكون لديه الشجاعة الكافية لأن يناقش وجهة نظره علناً .

والواقع أن هنالك عوامل أخرى أعمق من مجرد ثورة عابرة ضد الدين المسيحى المدموغ بالاستعمارية تعمل لمصلحة الإسلام . وأحد هذه العوامل هو قبول الإسلام مبدأ تعدد الزوجات فى ظروف يراها كثير من الإفريقيين معقولة . وتعدد الزواج يموت ميتة اقتصادية طبيعية فى المدينة حيث هو مربك ويتكلف كثيراً ، ولكنه فى مجال القرية يظهر للإفريقيين كنظام معقول وعلمى وطبيعى جداً .

وهناك عامل آخر قرى هو السهولة التى يمكن بها تعلم تعاليم الإسلام . فى حين أن النظريات المسيحية من ناحية أخرى تظهر للكثير من الإفريقيين غير مفهومة وخيالية . وتضمن المسيحية انعكاسات بسيطة مضادة لعادات إفريقية عميقة الجذور . فى إفريقيا يظهر الزائر احترامه لمنزل مضيفه بأن يخلع حذاه ، ولكنه حين يدخل كنيسة مسيحية فالمتوقع منه أن يعرى رأسه .

ولعل أقوى العوامل جميعاً هو غالباً مسألة اللون الأساسية . والإسلام لا يثن تحت عبء أنه أولاً وقبل كل شيء دين الرجل الأبيض . وإذا كان هنالك شعور باللون فى الإسلام فربما يكون موجهاً ضد ذوى اللون الأصفر .

ومن الإنصاف للمحاولات المسيحية فى إفريقيا أن نقرر أن الكثير من النقد السارى إنما يوجه به من ناحية البغض للأجانب من الوطنية الإفريقية الذى ينعكس بشدة . حتى الآن على الأقل ، ضد كل ماله علاقة بحقبة الاستعمار . وهى أى حال فليس من غير العادى أن يقع الإسلام فى نفس الورطة .

وهناك من الحركات الدينية الكثيرة التى ترفض كلا من المسيحية والإسلام

في نيجيريا وهو ما يسمى «الدين الطبيعي لإفريقيا» ويدعى السيد ب. أ. أوجي الذي عين نفسه رئيساً خاصاً لهذه الحركة أن له أكثر من أنى تابع . وقد قال لى إن ما تدعيه المسيحية من معاملة الناس بالحسنى لا معنى له ، لأن المسيحية نفسها قد ثبتت عملاً أنها دين مشاغب ، فكل ملة تهاجم الأخرى .

وبينما كان يقول لى هذا قفزت إلى عقلى تجربة فى قرية بغانا حيث أفادنى رئيسها أنه يعتقد « أن كل هذه الترهات المسيحية للأطفال » . وقد أكد وجهة نظره بأن كشف لى عن مشكلة من أخطر مشاكل التربية . « فثلث مواطى تقريباً تابعون للكنيسة الميثودسية ، والثلث تابعون لكنيسة البرسبيريون . والباقي يتبعون ما أسميه الدين الإفريقى . وحينما نحاول حل إحدى مشاكل القرية بدون العودة إلى التقاليد القديمة ، أى البناء العائلى ، يهاجم أتباع كل من الكنيستين الفريق الآخر . وحتى نقوم بأى عمل يجب أن نتوقف ونقول للنظاميين والمسنين أن يتركوا الخلافات الدينية وأن يعودوا إلى التقاليد القديمة وإلى النظام العائلى لاتخاذ القرارات » .

ولنعد إلى السيد أوجي . إنه يدعى أن كلا من المسيحية والإسلام قد أخفقا فى إنشاء السلام، والحب، والاتحاد فى الحياة الإفريقية ، وأن الدين الوحيد المناسب للروح الإفريقية هو المتغلغل فى التربية الإفريقية ، والذي احتضنه الإفريقيون .

ومستر أوجي ليس وحيداً فى هذا رأى ، وفى اعتباره أنه غير إفريقى أن يكون الشخص مسلماً أو مسيحياً . ويجب هنا التأكيد بأن مستر أوجي ليس متوساً ولا متعصباً . وهو محترم من الكثير فى شرق نيجيريا كمعلم يكرس نفسه للتعليم ، وكمجاهد لا يكل ضد الرشوة فى الحكومة والقطاعات الأخرى ، وهى معضلة ليست صغيرة فى أفريقيا الناهضة .

وتبقى الحقيقة قائمة ، وهى أن المسيحية فى إفريقيا تواجه اضطراباً
الله والرب

عميقاً . وكما كتب أخيراً كبير أساقفة يورك بعد جولته في إفريقيا : « إن الوقت ضيق ، وهو أضيق في بعض الأماكن من غيرها ، وقد يكون من الغباء ألا تعرف الجماعات المسيحية الأساسية أن العمل المسيحي في أفريقيا يحتاج إلى تجديد وإصلاح شاملين لعهد جديد تماماً في التاريخ الإفريقي » .

وفي الدين . كما في السياسة . يلوح أن الإفريقيين مصرون على أن ينجحوا انجهاً خاصاً بناسهم . فالشعور المسيطر عليهم هو مقاومة كل ما يفرق بينهم . ويضع الإفريقي ضد الإفريقي . وتجتاز إفريقيا ثورة روحية كما تجتاز ثورتها المستمرة لتوقعاتها الطامحة ، والطرق التي تتكلم بها الشعوب الإفريقية عن المماثل الدينية تغاير بوضوح الإطار القديم الذي بدأت فيه الإرساليات عملها . ويوجد الآن قلق في النطاق الروحي ، كما يوجد في النطاق السياسي . وهناك تيه مهديم للروح ، ولا سيما بين الشباب . وإن الكثير مما يلوح الآن نقداً تشهيريّاً وضاراً ، ما هو في الواقع إلا تفكير بصوت عال عما في أنفسهم . عن آمالهم الموجهة ومخاوفهم المؤلمة . وحينما يتكلمون بحماس عن تراث ماضيهم الزاهي يلوح في الواقع أنهم يعنون أن مستقبلهم يجب أن يبنى بشكل ما على أسس دياناتهم وثقافتهم التقليدية .

وقد قال أحدهم : « بالنسبة لنا ، نحن الإفريقيين ، يبدأ التاريخ اليوم ، ومع ذلك فإن الحاضر وليد الماضي . ماضينا نحن ، لا ماضيكم أنتم » !

آلهة إفريقيا العظام

في التاسع عشر من مارس سنة ١٩٦٠ كان فيليب كجوزانا ، وهو ترانسلفاني خجول في الحادية والعشرين من عمره ، يكسب عيشه عن طريق بيع جريدة يومية متحررة ناشئة تسمى « الكونتاك » . وفي مكاتب « الكونتاك » كان من المعروف أن هذا الشاب ملتحق بجامعة كيب تاون . وأنه يدير حساباته بدقة ، وكان لطيفاً إذا ما تحدث معه أحد . وفيما عدا هذا كان فيليب كجوزانا شاباً إفريقيّاً عادياً طويلاً ، نحيلاً ، قليل الكلام . وفي العشرين من مارس سنة ١٩٦٠ قذف فيليب كجوزانا بمستقبله في الجامعة ، وهو امتياز له قيمة كبيرة ، وقام بحملة هزت أركان كيب تاون .

وقف فيليب على أحد (الأرصفة) غير المنظمة في مدينة لانجا الإفريقية أمام بضعة آلاف من مواطنيه السود ، وقال لهم إنهم في الساعة السابعة تماماً من صباح اليوم التالي سوف يبدءون في « اتخاذ نشاط إيجابي قاطع حيال قوانين المرور » .

ولم يكن فيليب كجوزانا قد قاد أى شيء قبل ذلك في حياته ، ولكن المنصتين له كانوا يشعرون أنهم إنما ينصتون إلى رجل ملهم . كانت فصاحته مؤثرة : « في هذه المرحلة من مراحل نضالنا أمامنا الخيرة : فهل نظل أنصاف آدميين ؟ أو هل نحن مستعدون لأن نكون مواطنين ، رجالاً ونساءً ، في ديمقراطية متحررة من تعصب اللون في جنوب إفريقيا ؟ إلى متى سنظل " بانتو " و " من الأهالي " و " غير الأوربيين " ، و " غير البيض " أو " السود التقديرين " في أرض أجدادنا ؟ متى ننادى بسيدى وسيدتى وآنتى ، وسادتى وسيداتى ؟ إلى متى نظل في قاذورات " وندرمير " نياى . أو صحراء نيانجا الغربية ؟ إلى متى نظل نموت جوعاً وسط خيرات بلادنا الكثيرة ؟ إلى متى نظل أحد عشر مليوناً

بدون حقوق أو آراء أو حق انتخاب ؟

« بأى اللحوم يتغذى الرجل الأبيض الجائر حتى أصبح بهذه العظمة ؟
يا أبناء إفريقيا ، أمامنا أن نختار بين أمرين إما أن نكون عبيداً أرقاء ،
ولما رجالاً أحراراً — هذا هو كل ما هنالك ! »

وكان كجوزانا مستعداً لأن يفعل أكثر من مجرد إثارة الأحاسيس
ببلاغته . لقد كانت لديه خطة للعمل أبان عنها بقوله :

« أود أن أكون مفهوماً بوضوح هنا . لنندع العالم يتذكر أننا لا نحارب
الدكتور " فيرورد " لأنه الدكتور فيرورد ، إنما لا نحارب ضد الحزب الوطنى
أو حزب الاتحاد . إنما لا نحارب الأوربيين أو الهندود أو الصينيين ،
وبالاختصار إنما لا نحارب أحداً . إن مجهوداتنا وقوانا موجهة ضد أوضاع ،
ضد آراء وأساطير خرافية .

« إنها الأسطورة التى يطلق عليها الآخرون التفرقة العنصرية ، أو أحقية
الرجل الأبيض فى القيادة ، أو تفوق الرجل الأبيض . إنما نقاتل ضد مذهب
كالثن ، بأن أمة معينة كانت مختارة من الله لتتزعج ، وتقود ، وتحمى الأمم
الأخرى .

«إننا لسنا قطيعاً من البرابرة الأغبياء الذين يحاربون الرجل الأبيض فقط
لكونه أبيض . لا يوجد شخص عاقل يفعل هذا . ولكى يقضى على أسطورة
تفوق الجنس قام مجلس " إفريقيا المتحدة " بوضع مخطط يبدأ غداً وينتهى
سنة ١٩٦٣ حينما تتحقق ولايات إفريقيا المتحدة .

«سوف نبدأ بقوانين المرور ، ثم ما يليها ، وهكذا .

وبعد أن شرح ببعض التفاصيل كيفية قيام الحملة ضد قوانين المرور
قال كجوزانا لمستمعيه ما لن يفعلوه :

« لن نخرق . ولن نتلف أى جزء من كتاب المرور بأى طريقة . إنما لن
نقتل ، أو نحاول القتل ، لن نسب . أو نحاول السباب ، لن نعطل ، أو نحاول
تعطيل رجال الشرطة فى أثناء قيامهم بواجباتهم المشروعة . لن نقذفهم

بالحجارة ، ولن نفعل أى شىء آخر بشيرهم . من يتم بأى عمل من هذه الأعمال فمن البلديى أن الشرطة تتصرف معه . كما أننا أيضاً كمنظمة سوف نتصرف معه بعدئذ . يجب ألا يحمل أى شخص معه نقوداً أو مالى أو أسلحة خطيرة .

« إن أفراد الشعب لن تنضم إلى هذا الكفاح لمصالح شريفة شخصية . لن يقوم أحد بإحراق أى مبنى ، أو مكتب ، أو مدرسة ، أو أية ممتلكات حكومية لن يقوم أحد بقطع أسلاك ، أو محاولة قطع خطوط السكك الحديدية . لن يقوم أحد بإحراق سيارة ، أو تهديد أى إنسان .

« إذا قام أحدكم بهذه الأعمال ، وبدأ رجال الشرطة يطلقون النار فإن من يموت ، أو يصاب بجراح سوف يطلب القصاص له من المتسبب فى الشر . إن آلهة إفريقيا العظام سوف يوقعون الحكم على مثل هذا الإنسان .

« ويطبق المبدأ نفسه بالنسبة للشرطة . لسنا نريد أن نثار بأى طريقة . ولسنا نريد أن تُعطى تعليمات مستحيلة التنفيذ مثل تفرقوا فى ثلاث دقائق أو ما شابه ذلك من الأوامر غير المفهومة . إذا أرادت الشرطة منا أن نتفرق فلسوف نفعل ذلك . إن زعماءنا سوف يكونون دائماً معنا ليدلونا على ما نفعله . إننا لا نريد أن نكون ألعوبة إذا هاجمونا ، فلن نهرب ، ولكننا لن نقاتل . سوف نتركهم لحكم العالم ، ولآلهة إفريقيا العظام . »

وفى ٢١ من مارس بدأت الحملة فعلاً . وكانت قيادتها تماماً كما قال كجوزانا ، فكان تنظيمه لأتباعه فائقاً . وقد حبس هو شخصياً ، ولكن أفرج عنه فى ٢٥ من مارس . وحمل إلى لاجانا على أكتاف مؤيديه .

وبعد خمسة أيام ، قاد حملة السلام المشهورة المكونة من ثلاثين ألفاً إلى قلب كيب تاون . وطلب السماح له بمقابلة السلطات لمناقشة شكاوى الإفريقيين . والحملة الثانية ظهرت قيادته الفائقة . لم يكن هنالك سباب ، ولا قتال ، ولا قذف بالحجارة . ولا إثارة من أى نوع . ولم يحمل أى منهم سلاحاً . سار الثلاثون ألفاً بجانب أراضي الجولف فى وسط مناطق تجارية ومنازل الرجال

البیض ولم یکن هنالك أى شغب . وخرج التجار من متاجرهم للمشاهدة بدون أن یغلقوا نوافذهم أو أبوابهم ، كما مرت بعض السيارات الأتوبیس ذات الطابقین خلال الجمهور فی هدوء ، وكذلك بعض السيارات الخاصة . وساروا سریعاً ، یتقدمهم كجوزانا رافعاً رأسه ، ومؤرجحاً یدیه ، متعللاً صندلاً ، ومرتدياً سراویل سوداء قصيرة ، وقميصاً أبيض مفتوحاً ، وجاكتة . ومروا عبر « أنلون » و « مابراى » إلى طریق « دى فال » . وظهرت الشمس ، ولم یکن هنالك خوف ، أو مرارة بل سیر هین ودود یكاد أن یكون مرحاً فی مظهره .

وفى نهاية طریق دى فال توقف كجوزانا وسألهم أن یجلسوا فی الظلال ، ویستمعوا له . وقال لهم إنه سوف یتقدم مع خمسة آخرين ، ویطلب مقابلة وزیر العدل ، وإنه یجب علیهم الانتظار فی هدوء . وحين هم بتركهم سألہ الناس : ألا یخشى القبض علیه ؟ فأجاب بأنه یثق ثقة كاملة فی محاولته لإيجاد حل عادل لشكاواهم عن طریق التفاهم مع السلطات .

وتجمع جمهور غفیر من جمیع أنحاء المدينة فی میدان كالیدون . وصعد كجوزانا درجات مبنى شرطة میدان كالیدون ، ووعدوه بالمقابلة التى یطلبها . وبالهدوء نفسه قاد كجوزانا رجاله خارج كیب تلون عائداً إلى لانجا ، ولا بد أن آلهة إفريقيا العظام قد اغتبطت بهذا .

ولم تتم المقابلة التى وعد بها فیلیب كجوزانا ، وبدلاً منها ألقى القبض علیه . ولهذا لا بد أن آلهة إفريقيا العظام قد غضبت .

إننى أذكر هذه القصة لسببین — أولاً : لأنها قصة من إفريقيا لا تكاد تكون معروفة فی عالمنا . على الأقل بهذه التفصیلات العارضة المضحكة . إن بطاها كجوزانا سوف یسمع عنه مرة ثانية — بعد أكثر من عام من خیائنه . وسجنه بواسطة سلطات جنوب إفريقيا . لقد هرب عبر القارة بمساعدة الخدائین الإفريقيین حتى وصل سالماً إلى تانجانيقا . ومن هناك طار إلى لندن لیلحق بالمنفيین الآخرين الذين أبعدهوا عن أرض أجدادهم .

وللقصة سبب آخر قوى من وجهة نظر هذا الكتاب . هو أن أوضح بمثل حتى النظرة الوراثة لمثل هؤلاء الإفريقيين صانعي مستقبل قارة إفريقيا ، أمثال فيليب كجوزانا . من الواضح أن آلهة إفريقيا العظام الذين ترك كجوزانا لهم الحكم على أتباعه وعلى شرطة جنوب إفريقيا آلهة حقيقيون هؤلاء الذين يلجئون إليهم . كما أنهم يلعبون دوراً جوهرياً في تكوين شخصيات زعماء إفريقيا . إن فيليب كجوزانا لم يكن بالتأكيد ليستطيع أن يشق طريقه إلى جامعة كيب تاون بدون الكثير من فهم التعاليم المسيحية وتبنيها . ومع هذا نرا- حينما وقف هنالك على « الرصيف » في لانجا ، وقد وضع ثوب الزعامة الموهوبة فجأة وبغموض على كتفيه . وأظهر معرفة تامة بنظرية كالشن . لم يتضرع إلى إبراهيم . وإسحاق ، ويوسف ، ولا إلى الأب والابن والروح ولكن إلى آلهة إفريقيا العظام .

إن الزعيم في إفريقيا كأي زعيم في كل المدنيات . يجب أن يفهم قومه وأن يفهموه . وأن يعمل في حدود التقاليد والمفاهيم الشعبية . وهذا دور من الواضح أن كجوزانا مستعد له روحياً . ولو أن ظهوره الفجائي قد يكون محيراً للذين لا يشاطرونه ميراثه .

وبالنسبة لأي شخص أجنبي لا يظهر أن لإفريقيا أي ميراث روحاني خاص متميز مثل بقاع أخرى من العالم كالدول العربية مثلاً ، أو الهند ، أو بورما . ومع هذا فإن الزعيم الإفريقي الحديث . برغم أنه يلوح أن تنشئته أوربية خالصة . قد أظهر القدرة مرة بعد أخرى على أنه يلمس جذور الروح الإفريقية .

ومن الملح في جنوب إفريقيا التي تقال عن « غير الأوربيين » — كما نطق السلطات البيضاء على الإفريقيين — يسأل الشرطي الأبيض : « من أين تأتي ؟ » تكون الإجابة « من غير أوربا » « إني لم آت من أوربا » .

وهذا الشعور بالانتماء بأنه « يأتي من غير أوربا » متغلغل في كل إفريقيا ،

وننتاجه هو أن يفهم الإفريقي أنه ينتمى بروحه وجسده إلى وحدة محددة هي إفريقيا .

وإذا كانت آلهة إفريقيا هي المهيمنة على هذه الوحدة ، فمن هم إذاً ؟ وماذا يمثلون ؟

قال بعضهم إن الصفة العامة الوحيدة التي يمكن أن تطلق على إفريقيا بصدق هي أنها قارة . ولكنني مقتنع أن هنالك أيضاً بعض التعميم عن التقاليد الإفريقية في المعتقدات الروحانية . فيمكن أن يقال مثلاً إن الديانات القديمة الموروثة في إفريقيا أحسن ما توصف به هي أنها وثنية ، أو أنها تهتم بآلهة متعددة ، وبالأرواح ، وليس هنالك شيء غير عادي في هذا ، فإن مثل هذا الطابع كان قديماً يسود اليونان ، ومصر ، والهند ، وأماكن أخرى . والشئ غير العادي عن إفريقيا أن يكون في قارة يمثل هذه الضخامة ، ومجزأة إلى قبائل ، وليس لها تاريخ محدد شامل ، دين يكاد يكون عاماً في تقديس الأرواح ، والقوى الروحانية . وأسماء هذه الأرواح والقوى الروحانية متعددة في إفريقيا تعدد القبائل واللغات ، ولكن الأساس عملاً في كل نطاق يمكن أن يوصف بالتثليث - إله أعظم ، وآلهة وأرواح أقل درجة ، ثم أرواح الموتى .

وفي قبائل يوروبا في غرب نيجيريا يطلق على الإله الخالق الأب ، والسيد والعظيم . مالك النفس ، أو الروح وأصل العظمة ، ويعتقدون أنه خالق كل شيء ، والقاضي على الناس الآن وبعد الموت ، المحافظ على القوانين الأخلاقية . وبلسان يوروبا تعطي كامتا « أداك واچو » وظيفة الإله النفسانية سمة جميلة من الصمت والنشاط . وأكثر أسمائه المقدسة هو « أولورن » التي تعني مالك الجنة .

ويعتقد معتنق اليوروبا التقليدي أن روحه يجب أن تقدم حساباً للإله عن أعمالها الدنيوية ، وأن المحسن يذهب إلى جنة الخلد ، والمسيء يذهب إلى أكمة القاذورات .

والآلهة الأقل مرتبة تعتمد على « أولورن » ، فهو منبتهم ورئيسهم الموهوب ؛ ومع هذا يمكن أن تعبر أرض يوروباً طويلاً وعرضاً دون أن تجد معبداً واحداً يعبد فيه « أولورن » . والآلهة الآخريين معابدهم وقساوستهم ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للإله الأعظم . والآلهة الآخريين مناسبات أعيادهم ، ولكن ليس لأولورن أعياد .

وهذه الظاهرة قد أثارت وحيرت أحد كبار دارسي الديانات في غرب إفريقيا وهو « جيفرى باريندر » وفأخذ يبحث عن تعاليل لها . وهل « أولورن » إله بعيد وغامض حتى إنه يمكن أن يخفى من النظرية اليوربية دون أن يفتقد ؟

وحيثما سئل أحد قساوسة معبد هام عن هذه النقطة أجاب بأن أولورن لا يعبد ، ولكنه يعتقد أن الله خالق معبده الإلهي الخاص « أودودوا » . وقال : « إنه قبل أن يأتى الأوربيون إلى هذه البلاد كان شعب يوروبا يعرف شيئاً عن الله لكنهم لم يقيموا له معابد ، أما الآن فإن أى شخص يمتلك بعض المال يستطيع أن يبنى منزلاً لله ؛ أعني كنيسة أو جامعاً » .

وانتبه قسيس أوريشلا وجهة أخرى حينما سئل فقرر لباريندر أن كل صلواته تنتهى باسم الله ، والاسم المستعمل عادة هو الرحمن . أو رئيس الكل (أولودومار) . وفى آخر الصلوات الآلهة الآخريين يقول : « الله صانع كل شيء » (أواورن آه شى ايه) . ومعناها أن أى شيء لم يتم عمله سوف يتمه الله .

واكتشف باريندر أيضاً أن الناس كثيراً ما يكسرون جوز الكولا ويصبون الماء خارج ديارهم قرباناً لأولورن فى حالات الاستعجال ، أو شدة الاحتياج . وكان شرحهم وتفسيرهم لذلك أنه حينما لم تفلح الآلهة الآخرون فمن الضرورى . ومن الحكمة . الانجاة إلى كبيرهم . ولم يكن غير عادى لأية أسرة ينزل بأحدىها المرض أن يضع أفرادها شيئاً من طعام بارد للإله ، ويعطى المريض الباقي بعد صلوات مناسبة .

وقرر العجايز لباريندر أن هذه الصلوات تقال في الخلاء ، لأن أحداً لا يعلم أين يوجد وجه الله . وقال بعضهم إن هذا هو السبب في أن أولورن لا تقام له معابد يصنعها البشر . وبما أنه في كل مكان فمن الغباء محاولة حصره في معبد .

واكتشافات باريندر تشابه إلى درجة كبيرة اكتشافات آخرين قاموا بملاحظة جماعات قبلية إفريقية أخرى . فهناك دائماً إله أعلى ، وكثيرون يذكرون اسمه حينما يستعدون للنوم : « نرجو الله أن يوقفنا في صحة » ، وحينما يستيقظون : « نرجو الله أن يرزقنا غذاءنا » . إنهم يعتقدون فيه ، وفي أن وجوده وحضوره حقيقي وعظيم . لماذا إذاً لا يعبد الإفرقيون وحده ؟ إن الإجابة الصحيحة عن هذا تلوح من وجهة نظر الإفرقيين أنه من الغباء إهمال القوى الأقل شأنًا لأنها أكثر قرباً ، وأكثر ملاحظة ، وبالتالي يمكنها أن تسبب متاعب أكثر من الله العظيم ، كما يمكنها أن تكون أكثر خدمة في حالة الأزمات . ويوافق الإفرقيون بسهولة على أن جميع الناس يمكن أن يدعوا الله . ولكن لماذا نستنفد ما قد يمكن أن يكون كمية محدودة من الدعوات النهائية ؟

« شينوا أشيبي » مواطن من إيبو بشرق نيجيريا يتحدث في أول قصصه « الأشياء تنهاوى » عن الأوضاع في إحدى القرى .

في أوائل هذا القرن ، بعد أن حضر إليها المبشرون الأولون — كان المستر براون وهو رئيس الإرسالية في المنطقة يزور القرية ويمضي ساعات طويلاً مع الرئيس أكوانا في مضربه يناقشان الدين عن طريق مترجم . ولم يذهب أحدهما بعيداً في تغيير معتقدات الآخر ، ولكنهما تعلما كثيراً عن ديانتيهما المختلفتين .

وقال إكوانا لمستر براون في أثناء إحدى زيارته : إنك تقول إن هنالك إلهاً أعظم . وهو صانع السموات والأرض . ونحن أيضاً نعتقد فيه ونسميه شاكوا ، إنه صنع كل العالم والآلهة الآخرين .

وقال مستر براون : « لا يوجد آلهة آخرون . إن شاكوا هو الإله الوحيد ، أما الآخرون فمزيفون . إنك تنحت جزءاً من خشب مثل هذه . (وأشار إلى قطعة خشب علق بها إكوانا معبوده المنحوت « أكنجا ») . وتسميه إلهاً ، ولكنه لا يزال قطعة من الخشب » .

وقال إكوانا : « أجل ، والشجرة التي أخذناها منها صنعها شاكوا . تماماً كما خلق كل الآلهة الصغار . ولكنه خلقهم كرساه حتى يمكننا أن نتصل به عن طريقهم وهذا مثلك تماماً ، هل أنت رئيس كنيسة » .

واحتج مستر براون قائلاً : « كلا إن رئيس كنيسة هو الله ، وقد إكوانا : « أعلم ذلك ، ولكن يجب وجود رئيس مثلك على الرجل ومثول عنهم في هذا العالم » .

— « إن رئيس كنيسة — بهذا المعنى — موجود في إنجلترا » .

وصاح إكوانا قائلاً : « هذا ما أعنيه تماماً . إن رئيس الكنيسة في إنجلترا . وقد أرسلك هنا كرسوله ، وأنت بدورك قد عينت رسولا وخداماً خاصين بك . أو دعني أعط مثالا آخر . محافظ المنطقة مثلاً . لقد أرسله ملككم » .

وقرر المترجم من نفسه : « إن لهم ملكة » .

— « إن ملكتكم ترسل رسولها ، وهو محافظ المنطقة . ولكنه يجد أنه لا يستطيع أن يقوم بالعمل بمفرده . فيعين نائباً وآخرين لمساعدته . وهو الوضع نفسه بالنسبة لله أرشاكوا . إنه يعين الآلهة الصغار لمساعدته . لأن عمله أكبر كثيراً من أن يقوم به شخص بمفرده » .

وقال مستر براون : « لا يجوز أن تفكر في الله كشخص . ولأنك تفعل ذلك تخيل إليك أنه بحاجة إلى مساعدين ، وإن أسوأ ما في هذا الاعتقاد أن كل عبادتك إنما تمنح الآلهة الآخرين الذين خالقهم من دون الله » .

— « ليس هذا بحق . إننا نقدم القرابين للآلهة الصغار . ولكن حينما لا يفلحون نلجئ إلى الله شاكوا . وهذا هو الحق . إننا نقرب من رجل عظيم

عن طريق خدمه ، ولكن حينما لا يفلح الخدم في أداء مأموريتهم نلجأ إلى آخر معقل للأمل . قد يلوح أننا نولى الآلهة الصغار اهتماماً أكبر ، ولكن هذا ليس صحيحاً . إننا نضايقهم أكثر ، لأننا نخشى أن نضايق سيدهم . إن آباءنا كانوا يعلمون أن شاكو هو السيد الأعظم ، وهذا هو السبب في أن كثيراً منهم سمي أولاده باسم شاكو . إن شاكو هو الأعلى .

وقال مستر براون : « لقد قلت شيئاً واحداً يثير الاهتمام ، وهو أنكم تخشون شاكو . وفي ديني شاكو والد محب لا داعي للخوف منه ، إذا ما سرنا تبعاً لناموسه وإرادته . »

ورد إكوانا : « ولكننا يجب أن نخشاه إذا لم نسر طبقاً لإرادته . ومن منا يعلم إرادة الله ؟ إنها أكبر كثيراً من أن تعلم ؟ »

وبمناسبة النقطة الأخيرة التي قررها إكوانا من وجوب خشية شاكو أكرر أقوال غاني نابه ، وأحد زعماء الميثودست الوطنيين الغانيين ، ومن أكثرهم نشاطاً والمعهم مستقبلاً ، وكنا نناقش النقاط التي لم تفلح فيها تعاليم الإرسالية في التعرف على وجهة نظر الأفريقيين . وما قرره كان تقريباً ما يلي :

« حينما كنت صغيراً ، اعتاد من هم أكبر مني سنّاً أن يقرروا إلى أن المسيحية قد أحلت معها هبوطاً بالمستوى الأخلاقي في إفريقيا ، لأن الرب المسيحي كان طيباً جداً . وقد يبدو لأول وهلة أن هذه تهمة سخيفة ، ولكن كلما ازددت فيها تفكيراً ازددت اقتناعاً بأن الخطأ إنما نشأ عن تضخم لتصوير حب الله . فالمبشرون الميثودستيون كانوا يبالغون جداً في إظهار جانب النار ، ثم يتحول " البندول " إلى النهاية العكسية تماماً ، وتكثر المبالغة في حب الله على حساب سخطه . والكائن الأعلى بالنسبة لمعظم سكان إفريقيا خير ، ولكنه لا يصبر على الشر والخبائث . »

ويمكن هنا إلقاء بعض الضوء على نبوة فيليب كجوزانا المنذرة بأن

آلهة إفريقيا العظام سوف تفرض حكمها على كل من خالف الوسائل السلمية في مقاومة قوانين المرور .

وبالاختصار فإنه لا مجال للشك في أن الإيمان بإله أعلى أو قدر . منتشر باتساع في إفريقيا . وكان من المعتاد أن يقال إن وجود مثل هذه الآراء لا بد أنها وليدة نفوذ المبشرين المسيحيين أو المجاهدين المسلمين . ولكنه من المعروف جداً الآن أن فكرة وجود كائن أعلى لم ترد من الخارج . إنها جزء من الحياة الإفريقية القديمة . حتى إن المبشرين قد وجدوا أن الرب اليهودي المسيحي شيء مألوف لدى الإفريقيين العاديين . وكلما أكثر الشخص التخاطب مع الإفريقيين ، شباباً وكهولاً ، ازداد اقتناعاً بوجود علاقة منذ القدم بين الناس والله ، الرب الخالق ، صانع الآلهة والآدميين .

• • •

وفي لحب من أعواد الخيزران ، وفي منازل من أغصان الشجر ، تعيش قبيلة « كالابارى » ، وهم شعب يتكلم لغة « إيجو » ، ويصيد الأسماك ، ويقوم في شرق دلتا النيجر .

وأقصى حماسهم موجه إلى النشاط الديني ، وتقديرهم السامي موقوف على من يبرز في الرقص ، أو الضرب على الطبول ، أو المهارات الأخرى المتصلة بالحياة الروحية . ومن هذه الناحية ، كما من نواح أخرى كثيرة ، فالكالابارى تمثيل صحيح لأغلبية سكان إفريقيا ، فإن وجهة نظرهم إلى الآلهة هي في الواقع مفتاح حياتهم .

ويقسم اللاهوت الكالابارى العالم قسمين من الكائنات : — « أوجو » (المادى أو الجسماني) ثم « تيم » (الروحاني أو اللا مادى) . فأما كائن له « أوجو » يمكن أن يراه الإنسان العادى ، إذا كان في مركز يسمع له بذلك . لأن أوجو سواء أكان رجلاً ، أم سسكة ، أم ثعباناً ، أم شجرة ، أم حشائش ، أم أحجاراً ، دائماً يشغل حيزاً محدداً في الفضاء .

أما « تيم » ، من الناحية الأخرى ، فيمكن أن يراه الناس العاديون حينما يكونون صغاراً جداً فقط ، قبل أن يطنى فساد العالم المادى نور قلوبهم . ويمكن استرداد هذه القدرة المفقودة ، ولكن لا يستردها إلا المستعدون للخضوع لعلاج عشبي شديد يطلق عليه « تجلية العينين والأذنين » . وهكذا يجند المقدسون الذين لهم القدرة على التخاطب مع « تيم » ومعرفة إرادته . وبالرغم من أنهم يتكلمون عن « تيم » كأنما قد حضر إلى مكان معين . واستقر فيه ، فهم أيضاً يصفونه بأنه فى كل مكان « كالنسيم » . ويمكن لتيم أن يكون بغير أى مقابل جسدى فى عالم « أوجو » . كما يحدث بالنسبة لآلهة القرية الأبطال ، أو أمواتها مثلاً .

هؤلاء هم الذين لا تراهم . ولكل شىء فى « أوجو » ما يقابله فى « تيم » . وحينما يفقد إنسان أو حيوان « تيم » فإنه يموت ، وهذا يطبق على كل الأشياء فى العالم العادى ، حيوانية أو غير حيوانية ، بل حتى بالنسبة لفئة معينة من الآلهة المعروفة باسم « شعب المياه » — إن « تيم » يسيطر على « أوجو » كما يسيطر الربان على قارب الصيد .

ويمكن نظرياً عبادة كل « تيم » ، ويمكن الدعاء لهم وإرضائهم بالصلاة أو تقديم قربان إليهم . ويقول الكالابارى : إذا كسر أحدهم عصاً ، وسكب أمامها خمرأ ، فإن العصا تصبح إلهاً فالعصا بها « تيم » . ولكن فى مزاوالات الحياة العادية توجد نخبة محددة من « تيم » هى التى تعد أن لها قوة كافية تسوغ مجهوداً كبيراً . وكما يمكن توقعه ، لا يتفق كل الكالابارى على أى « تيم » يجب احترامه وأبها يمكن إهماله .

وهناك وجهة نظر غريبة تماماً على العقلية الغربية ، فى حين أنها شائعة فى التقاليد الدينية الإفريقية ، وهى ممثلة فى المثل الكالابارى الذى يقول : « إن الرجال هم الذين يجعلون الآلهة عظاماً ، وإن قوة إله إنما تزداد بالتعبد البشرى . فكلما زاد التعبدهمى ازدادت قدرة الإله على مد يده المعونة إلى عبده » .

واللفظ الذى تطلقه قبائل يوروباء على الصلاة هو « شى أوريشا » . ومعناه أن « يصنع » الإله . وحينما يتعبد الكالا بارى لإله فإنهم يشاطرونه قواه الخبويه . وهذا بدوره يساعدهم على حياة أفضل . ولكن . على نفس الأساس . تتجدد قوى الإله بالتعبد له . وبذلك تساعد الجماعة على بقاء وتجديد قوة الإله .

وأحياناً يبدأ إله التصرف بنخب وحقد ، وهنا يجب وضعه فى مكانه - يجب الإقلال من شأنه . ومثل لذلك يحكى صياد كالا بارى عن قرية اسمها « أووم » حيث كان الناس يعبدون رجل مباد اسمه إكبانا . وكان المعروف أن إكبانا كثيراً ما يتجسد « أوجو » سمك القرش . وبعد أن ألهمت الخيتان عدة صيادين من أوو ، توجهت الجماعة إلى قديسها تطلب المعونة . وبعد دراسة مستفيضة قرروا أن إكبانا هو المذنب .

واتخذ مجلس الزعماء خطوات سريعة لوضع حد لتدخل رجل المياه الشاذ . وغير المرغوب فيه . وأصدروا قراراً باصطياد حوت . وسكب دمائه فى بئر القرية . وفى احتفال مهيب شرب كل رجل رشفة من ماء البئر الملوث ، وكانت النتيجة الموثوق فيها من هذا العمل الرمزي لنبد المجتمع هو غلّ قوة إكبانا من عمل الخير والشر معاً .

وإذا ما سئل الكالا بارى كيف يمكن أن تؤثر طقوس الرجال فى قوة إله ؟ يقررون أن ذلك يحدث أيضاً بالنسبة للبشر الذين يقوى لديهم « تيم » وينشط . أو يضعف ، ويتكاسل ، بالتناسب مع ما يضيفه عليهم أهلهم من شرف . إن عدم قدرة الغرب على تفهم مثل هذه الأشياء كان مدعاة للحزن فى إفريقيا .

« إن الرجل الأبيض ساذج . حقيقة أنهم تعلموا أن يخترعوا أنواعاً شتى من المعائب ، ومع هذا ليس لديهم الذكاء الكافى . إنهم لا يفهمون شيئاً عن الآلهة » .

وإن المثل القائل : « بأن الرجل يقترح والله يفعل » ليس له أى معنى لدى قسيس كالابارى . إن الآلهة موجودة لتشاطر الإنسان قواها . أما إذا كانت الصلوات والقرايين لا تغلح فى إيجاد الفوائد المرجوة فإنه لا يمكن أن يكون هنالك إلا تفسيران فقط — فإما أن يكون القديس قد وجه صلاته إلى الإله الخطأ ، أو أن العبادة نفسها لم تمارس بطريقة صحيحة .

ويختلف الكالابارى فى تقدير القوة النسبية لبعض « تيم » ، ولكن هنالك عائلتين من الآلهة تحتم قراها ونفوذها على الكل مراعاة احترامها .

وأول طائفة هم الذين يطلق عليهم حكام الكيان والتقدم . فى المبدأ أسس الإله الأعظم قوتين لتعملا معه ، الأولى الأنثى الأصلية وسمّاها « تامونو » ، والأخرى الذكر الأصلية « سو » . ومن تامونو جاءت الأرض ، وأعطى « سو » سلطة ترجيه الأرض . وكل شىء فى العالم به جزء من تامونو . وسو . كما أن مجرى الحياة لكل قرية ، وكل كوخ ، كل فرد ، قد خلق ، وسير ، بواسطة « تامونو » ، و « سو » .

إن مصير الإنسان ، كما يقول الكالابارى ، هو « ما قاله قبل أن يأتى » . ومرة ثانية يختلط الأمر على الغربى . ولكن مغزى هذا المثل يمكن تفهمه بعد الشرح . فقبل مولده يذهب « تيم » الشخص إلى تامونو ليقول لها أى طرق الحياة يختار . وتستمع تامونو إلى هذه « الكلمات » وتعتر بها . وتتجسد الكلمات « سو » أو مصير الإنسان الذى حضر تيم قبله إليها ليتكلم . وترسل تامونو بعد ذلك « تيم » الإنسان ليدلف إلى الجسد الذى خلقته فى رحم الوالدة . وبذلك يكون منطقياً جداً القول بأن الشخص هو ما قاله قبل أن يأتى .

وهنالك « تامونو » متعددة « سو » متعددون بتعدد الناس والأشياء الموجودة فى العالم . لكن تامونو المخالقات هى تامونو كبيرة واحدة ، وسو المتعددون هم سو واحد كبير . ومن ثم فإن وحدة الحياة وتعددتها تتضمن كل منهما

الأخرى ، وكل شيء في العالم يمكن تفسيره بـتامونو وسو ، وهما يقومان بأدوارهما المختلفة .

وسوف نرى بعد لحظة أن طريقة التفكير ، التي تشتمل على نظريات تامونو وسو تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي تهتم بتفسير الطائفة الثانية من الآلهة . فتامونو وسو هما الأساس الذي تقوم عليه طبيعة معنوية متسعة سراء في الخلق أو التطور . فيما عدا هذه الوظائف ليس لشخصيتها وجود حيوي فلا بكاء ، ولا ضحك ، لا حب ، ولا كراهية . وكما شرح أحد كبار المعلمين الكالاباريين « إن تامونو وسو يمكن أن يحترما أكثر من عالم ذرة » .

والطائفة الثانية من الآلهة مسألة أخرى ، لأننا هنا نلتقي بأبطال القرية وشعب الماء ، والأسلاف ، وتدخل مع كل من هؤلاء إلى التجارب اليومية في حياة الإنسان كما نجد التعليقات لكل ما يحدث في عالم الكالاباري .

فأولا أبطال القرية الذين يوجدون الآن في تيم فقط ، جاء وقت عاشوا فيه بين ظهرائي مؤسسى قرى الكالاباري في شكل « أوجو متكامل » . وتشرح أسطورة شائعة بتفصيل واسع أعمالهم ، وشخصياتهم ، في أثناء كينونتهم الجسدية . ويقال إن أبطال القرية قد أتوا من أماكن سحيقة ليساعدوا في تأسيس قرى الكالاباري . وكان غرضهم من الحجى هو تعليم رواد الكالاباري الأوائل شتى أنواع المهارات الضرورية . فالقرويون في « أووم » مثلاً تم تعليمهم حرفة التجارة بواسطة أواميكاسو ، والرقص والإيقاع على الطبول للحفلات التنكرية كانت المواهب الخاصة « لأكين با » ، والقوى الخاصة بمختلف أنواع القتال وصيد الرعوس كانت من اختصاص كل من أوكبولادو وسيريودو ، وفن العلاج والنظافة استورده أماكارسا وكرجباسا .

ماذا يمكن أن يطلب أى مجتمع بادئ أكثر من هذا ؟ ومع ذلك يقال إن أبطال قرية « أووم » سرعان ما تضرروا من الشعب المتأخر الذى تبنيه . ويلوح أن القرويين أصرروا دائماً على مخالفة الأقاليم التى وضعها الرب والله

الأبطال مع كونها أساسية للمهارات التي تخصصوا فيها . وقد تكررت التحذيرات ، ولكنها أهملت ، وعندئذ اختفى الأبطال واحداً فواحداً - تلاشوا .

وعلى أي فإنهم لم يصعدوا إلى السماء إلا بعد أن تركوا تعاليم مفصلة عن الصلوات والترايين التي تقدم لهم ، والتي سرف يستمرون في مقابليها في مراعاة مصالح أووم . ولكنهم سوف يفعلون هذا في المستقبل « كتم » ، فقد خلع الأبطال عنهم رداء أوجو إلى الأبد . وألقيت مسئلية تقديس التعاليم . ونظمتها . على ذرية رجال القرية الذين صادقهم الأبطال في أثناء كينونتهم الجسدية . وإن كانت الأقاليم يجب أن تتم لمصلحة المجتمع .

وثانياً يرجد شعب الماء الذي يلعب دوراً مغايراً متسماً لدور أبطال القرية . واهتمامهم ليس مرجهاً إلى اختراع المهارات الإنسانية وصيانتها ، ولكن في السيطرة على الطبيعة التي تنحدي أهواؤها كل قدرات البشر . ومهمتهم الخاصة هي السيطرة على منسوب المياه . والتيارات في الجداول ، وحركات وعمق أسراب الأسماك . وكل رجل مياه يقوم بحراسة الجزء المخصص به من الجدول . أو الشاطئ . وتحدد منطقته تحديداً جغرافياً واضحاً ، وتعماً لصيادين الذين لا يعلمون في مملكة أي من رجال الماء تقع المنطقة التي رموا فيها شبابكهم .

وشعب المياه لم يكن أقل تكريماً من أبطال القرية بما حيكت حولهم من أساطير مناسبة تشرح حياتهم الفنية والمتغيرة في مدن تحت مجاري الجداول ، ونشرح مبدأ تعرف الكالاباري عليهم .

ولكن لا يوجد ود كالذي يحكى عن أبطال القرية . فام يتمجد سكان المياه قط في « أوجو » بين القرويين .

وانصالاتهم بالرجال لا تنصن مودة متباداة . وهكذا استطعنا أن نرى أن إكباننا يمكن أن يعتقد رؤساء أوومو أنه المشول عن الضرر الشرير

ضد القرية . وفي الزاوية - نظراً لأن شعب المياه ينحصر اهتمامه أساساً فيما هو تحت سلطانه - يمكن أن يتصل بهم أى شخص أو أى قرية ، ولا يستبعد أن يبيعوا خدماتهم لمن يدفع أكثر . وشعب المياه - وليس أبطال القرية أو الأسلاف - هم الذين يعتقد أنهم ذوو منفعة للقرى بمستقبل الفرد .

وأخيراً الأسلاف الموتى - وهو تيم الأشخاص المتوفين الذى انسأخ عن أجسادهم بالموت ليستبدروا فى كينونتهم فى العالم غير المادى .

والاعتقاد أن شخصياتهم وقيمهم تماثل تلك التى كانت لهم وهم أحياء . كما أن علاقاتهم بعضهم ببعض هى تماماً كعلاقة الأحياء فى الكالابارى . وهم ؛ كأبطال القرية . وشعب المياه . نسجت حولهم أسطورة حية . ولكنهم لا يشغلون أنفسهم بالقرى أو بالأفراد . إن اهتمامهم موجه إلى المصلحة الجماعية للعائلات التى أنشئوها . وأى خير . أو شر . قد يقع على العائلة يفسر عادة بنشاط وتصرفات الموتى .

ومع هذا ليس الموتى أحياء . بمعنى أنهم ليسوا أحياء بمفهومنا نحن الغربيين عن الحياة . إن المرنى كائنون ، وبالتالي فهم ليسوا أمواتاً . هم كائنون ووجودهم يظهر نفسه للأحياء من نساءهم عن طريق قوى متذبذبة . ويتأو جاحينز جاحن قصيدة للساعر السنغالى الجاهلي بيراجوديبوب تصف وصفاً رائعاً وجهة نظر الإفريقيين فى استمرار كينونة الموتى :

استمع إلى الأشياء أكثر من الكائنات

صوت النار وهى تنصت

استمع إلى خرير المياه

استمع فى الرياح

استمع إلى الأحرار تنحب

إنه تنهد أسلافنا

هؤلاء الذين ماتوا لم يذهبوا أبداً
 هم هنالك في الظلال المتكاثفة
 فالموقي ليسوا تحت الأرض
 هم في حفيف الشجرة
 هم في الخشب الذي يتن
 هم في المياه التي تجري
 هم في المياه المستقرة
 هم في الكوخ ، وهم في الجمهرة
 إن الموقي غير ميتين

هم في صدر المرأة
 هم في الطفل الذي ينوح
 وفي النار المتوهجة
 إن الموقي ليسوا تحت التراب
 هم في النار التي تموت
 في الحشائش التي تبكي
 هم في الصخور الناشئة
 هم في الغابة ، وهم في المنزل
 إن الموقي غير ميتين .

إننا قد تحدثنا كثيراً عن الكالاباري ، وأرجو ألا يغضبهم حديثنا عنهم ،
 لكي نصور بالجملة كيفية تصوّر شعب إفريقي مثالي علاقاته مع الكيان .
 فأبطال القرية وسكان المياه يتناسبان في رداء واحد لنظام متناسق للسيطرة
 على المهارات الإنسانية ، وقوى الطبيعة ، في حين أن العائلات تحرسها وتقودها
 دائماً أرواح الموقي الحاضرة دائماً أبداً .

ومعاهدة الطوائف الثلاثة من الآلهة ، تعطى تفسيراً تحكيمياً في كل

موقف في العالم المادى . وهذا الثالث يشابه في تكامله الذاتى ، بطريقته الخاصة ، نظام الكيان والتقدم .

والواقع أن أبطال القرية ، وسكان المياه ، والموتى : يكونون بديلاً كاملاً عن « تامونو وسو » وأكثر من هذا ترقد خلفهم طريقة عكسية تماماً للفكر ، فالطريقتان مختلفتان من ناحية الفلاسفة الدينية اخلاف مارتن لوثر مع بنيد كمت سبينوزا . وأمام الأساس العابس المجرد لتامونو ، تظهر أشخاص آلهة الأسلاف بشخصيات حقيقية مملوءة بالحياة .

ولعلنا نتساءل كيف نفسر أن شعباً يعتقد أغلبنا أنه ما كاد ينحطى طور الحمجية تكون له مثل هذه الأفكار المحكمة وغير العادية ؟ والإجابة الأساسية عن هذا السؤال طبعاً هي أن الإفريقيين ليسوا أقل ، أو أكثر ، من ناس لا يختلفون عنا في أى شئ جوهرى للإنسانية . إن استجاباتهم الدينية للحياة هي محاولة الروح البشرية أن تفهم ، وأن تسيطر . فالكالابارى ، كأي شعب آخر ، في أى مكان في العالم ، اعتقدوا منذ زمن بعيد جداً بوجود الآلهة ، وأنهم يستجيبون لمن يقترب منهم عن الطريق السليم . ومثل هذه الضمانات هي منبع سلام لا نهائى ، منذ الأزل ، لراحة عقل الإنسان في عالم مهدد مملوء بالمعاجات . والكالابارى ، كمعظم الناس قد واجهوا إخفاقاً لا يمكن تفاديه في تقريبهم إلى الآلهة . وهو بدوره تهديد ثقيل جداً يستصرخ طالباً حلاً ، مهما كان خيالياً .

وقد سلك الكالابارى سبلاً إنسانية مألوفة حينما ألقوا عبء إخفاقهم على أخطاء في القيام بالطقوس الدينية الحديدية على الوجه الصحيح . ويقص سفر اللاويين في العهد القديم من التوراة خبر العقاب القاسى الذى طبقه يهوه^(١) حينما وقع ناداب وأبيهو ، ولدا الكاهن الأكبر هارون ، في الخطأ المؤسف من تقديم نار غريبة في أحد طقوسهم . لقد التهمتهم النار فوراً .

(١) هو الاسم العبرى لله ، وكذلك ياهو ، والوهم .

ولكن هنالك دائماً الأمل في إجراء مصحح . ودارسو الهنود الأمريكيين
الحمر سوف يذكرون أن قبيلة « النافاهر » تخصصت في إجراء طقوس بالغة
التعقيد، حيث لا حدود لاحتمال حدوث الخطأ. أما الكالابارى . والإفريقيون
عامة، فمحافظون أكثر كثيراً من ذلك ، فقطوسهم تعطى بعض المجال -
ولكن ليس كثيراً جداً - لأخطاء غير بشرية . وهم بدلاً من ذلك يعترفون
أنه يمكن لأكثر من فئة من الآلهة أن تشترك في موقف معين . وهكذا
يمكن للكالابارى شرح أى خطأ في العبادة بأن الطقوس قد وجهت إلى « تيم »
غير صحيح .

وعلى الكهنة يتبع شرف ، وخطر ، التعرف على « التيم » المقصود . والكل
يعلم أن الكهنة قد يخطئون في بعض الحالات ، بل إنهم قد يعددون إلى الغش ،
وبهذا لا يكون الإخفاق نهائياً . فهنالك دائماً الأمل في أن « طبيياً » آخر
سوف يرى بوضوح أكثر ماذا يجب عمله ليتصل الطالب بالإله المختص حقيقة .

ولأن يكون لديك طريقتان لشرح عالم من الألم والفرح أحسن قطعاً من
واحدة . ولكننا قد نستدر في التعجب من سبب هذا الاختلاف الجذري بينهما
في الأسلوب والنمط . ومع . هذا هل هو عجيب ؟ إن أوربا نفسها هي التي
أخرجت لوثر وسبينوزا . وأمريكا نفسها احتضنت أورال بروبرتس وبول تليش .
إن آلهة أى مجتمعات يلزم أن تعكس العبقريّة الإنسانية للتغيير . وإن رغبات
الناس ومصالحهم متشعبة الدرجة أن الأرجح أن آلهتهم تتغير تبعاً لذلك في
أنماط متضاربة .

وقد يلوح أن ثمة تضارباً في كالابارى بين نظامي الآلهة المتعارضين في الواقع مع
رغبات « الكالابارى » ومصالحهم . وكما في أى مكان آخر هنالك من الكالابارى
من يرغب في تفسير للحياة ، بغض النظر عن رغبته في السيطرة عايمها . وكل الغربيين
الذين عاشوا مدة في القرى الإفريقية أدهشهم اكتشاف أن لكل قرية رجالها
المفكرين المتزنيين . ومن المهم لمثل هؤلاء الناس في العالم أجمع وحرد التفسيرات

المنظمة المعقولة الواضحة مع بعض مبادئ شاملة حتى يستطيعوا تطبيقها على كل ما يحدث في العالم . وحكام الكيان والتقدم - تاموزوسو - آلهة الدين الكالابارى الصارمة غير الشخصية - تناسب تماماً رغبات مثل هؤلاء الناس .

إن كتابات كبار فلاسفة الكاثوليك الرومان تسدو بالتقارن إلى مجالات رقيقة من البراهين على أن الله هو السبب المعقول الذى لا يتغير ولا يمكن تغييره ، وهو السبب الأول ، والكامل ، لكل ما يحدث في عالم التجارب ، والواقع ، والحوادث . ولكن الملاحظ للأعمال اليومية للكاثوليك العاديين يرى لجباً من طقوس تهتم بالسيدة مريم والقديسين أكثر من الله .

إن الرغبة في المشاركة الفعلية مع مجتمع أشخاص فرق العاديين ينتج ظمناً مخائلاً تماماً لما تنتجه العملية الفلسفية . وهذا الظمناً في بعض الثقافات أقوى منه في الأخرى ، وأقوى بين بعض أعضاء ثقافة معينة منه بين الأعضاء الآخرين .

وهناك قبائل إفريقية - النيوب مثلاً - تعامل الآلهة كقرى بدون شخصية يربدون وجه ، تتلاعب بالإنسان والطبيعة ، ولا تكاد أبداً تكون شخصيات : وتنعكس الآية بين الكالابارى ، فالآلهة أشخاص ملبدوسون مملوءون بالشعور والأحاسيس العميقة ، وقد اجتذبوا ميل أكثر الكالابارى وإخلاصهم ، ولكن هذه الرغبة في إظهار الآلهة كشخصيات ممتلئة دماء لا بد أن تتعارض مع رغبة باقى الكالابارى في دقة التفسير وسعته : وإذاً لا سبيل إلى التوحيد غير الطريقة التى اتبعها الكالابارى بحكمة ، أى مجرد طرازين من الآلهة صيغا على نسقين متباينين تماماً . وبهذه الوسيلة أمكن أن يشبع الكالابارى أهواءهم الروحية المتضاربة .

تاموزو وسو آلهة بلا أوجه ، تمنح ولاء هادئاً رصيناً ، وتقدم إليها القرابين ، وتتلّى الصاوات ، ثم يستوى الوضع حتى تظهر النتائج . ولكن يختلف الأمر بالنسبة لأبطال القرية وسكان المياه والأموات ، فتأخذ العبادة أسلوباً حاراً دافئاً ، وتظهر أشد عواطف الكالابارى حمية . فأيام القداس هى أوقات

آمال حارة تتردد فيها أغنيات النساء المنشدات في أرجاء القرية مادحة قوى
الآلهة وأعمالها .

وحاول الشاعر الغاني ، فرنسيس إرنست باركس ، أن يلتقط روح الأمل
في القرية فقال شعراً خصص ليناسب الأذن الغربية :

أعطني بعض طبول

فليكونوا ثلاثة

أوربما أربعة

واصنعها سوداء

قدرة وسوداء

من الخشب

وجلد شاة متجلد (ناشف)

ولكن ، إذا شئت

دعها تطن فقط

تطن

تطن عالياً

تزمجر

عالياً

وأعلى أيضاً ،

ثم خافتاً

وأخفت قليلاً ،

دع الطبول تطن

ولتكن القرعة

ملفوفة بالخرز

بخرز « آجری » أزرق

دق بعنف

نغمات متنافرة
 بهدوء
 بأوزان ،
 دع التمرعة تدق
 مع نغم الطبول
 امزج هذه الأصوات
 مع طنين
 الخشب على الصفيح
 كنسكين
 كن تسي كن كن كن
 أرجوك أن تعطيني أصواتاً
 عادية
 أصوات أشباح
 أصوات نساء
 وجهير الرجال
 وصراخ الأطفال
 فليكن هنالك راقصون
 زنوج عراض المناكب
 يدقون الأرض
 بأقدام عارية
 ونساء
 نصف عاريات
 يتأرجحن أماماً وخلفاً
 بإيقاع
 متوافق تماماً

لتوم شيكى شيكى
 وكين
 وأصوات الأشباح
 تغنى
 تغنى
 فلنكن هناك
 شمس غاربة
 النخيل الأخضر
 حولنا
 ودجاجة مذبوحة
 والكثير من
 الياقوت

* * *

ويا إلهى العزيز
 إذا كان المكان
 ليس مزدحماً جداً
 فأرجو أن تسمح ،
 أن تسمح بنظارة
 وليكونوا
 بيضاً أو
 سوداً

* * *

اسمح بنظارة
 ليستطيعوا
 أن يروا :

الفرخة الدامية

واليام ،

النخيل

والأشباح الراقصة

* * *

أدومانكوما

أرجوك أن تسمح بنظارة

حتى يمكنهم

أن يسمعوا :

أغانينا الشعبية

وطنين الحشب على الصفيح

ونغم الخرز

والطبول الصارخة

* * *

تورامبون ، أرجوك أرجوك

اسمح

بنظارة

حتى يستطيعوا

التدفئة

في بلسم أشعة

الشمس الغاربة

في جنتنا الإفريقية

البديعة

* * *

هـ. أننا ذهبنا كنظارة إلى قرية من قرى كالاباري في موعد الاحتفالات
أداء الطقوس لسمعنا الابتهالات ورأينا القرايين ، ثم لشاهدنا أكثر تصرفات

كالابارى الدينية إثارة ، وهو مشهد تمثيل حضور الآلهة .
يرقص الممشاؤون محاكين تصرفات متتابعة تمثل بطريقة أو بأخرى الأعمال
والميزات الخاصة بالآلهة . وهى أفضل طريقة . كما يفهم الكالابارى ، لاستحضار
الآلهة فعلا إلى القرية . وفى أثناء هذا التمثيل يتصرف الأهاون وكأن الآلهة
حاضرون فعلا كضيوف مجدين يستحقون أحسن أنواع الترفيه والضيافة .
ويصفنها الكالابارى بأنها « اللعب مع الآلهة » .

ويمكن ببساطة أن نفهم لماذا لا يتصورون تامونو وسو كضيوف أشباح
للقرية . إنه من العسير جداً على الكالابارى تصوير شخصيتيهما الغامضتين
بطرقهم المألوفة . وعلى العكس من ذلك نجد أن شخصيات أبطال القرية ،
وسكان الماء ، والموتى ، موضوعات شائعة للتصوير الفنى .

ويستحضر ممثلو الكالابارى الآلهة إلى القرية بثلاث وسائل مختلفة .
فالطريقة الأولى هى مضاهاة شخصيات الإله ، وفيها يقوم الممثل بمجرد
محاكاة مميزات الإله وأفعاله . والطريقة الثانية هى التخفى ، وفيها تتم محاكاة
ميزات وأعمال الإله ، ولكن الممثل فى هذه الحالة يكون مدثراً بلباس وقناع
يكونان أيضاً رمزاً للإله . وأكثر الطرق الثلاثة تقديراً هى الاستحواذ . وفيها
يعتقد أن الله قد حل فى رأس الشخص فى أثناء تأديته الرقص ، واحتل مؤقتاً
قيادة الجسد بدلاً من تيم .

ورد الفعل الطبيعى للشخص العادى أن يتعجب كيف يمكن للكالابارى
أن يعتقد أن محاكاة شخصية الإله والتخفى لهما نفس أثر الاستحواذ فى
استحضار الآلهة واتصالهم بشعبهم . فالاستحواذ يحيطه جو مقنع لا يتوافر
فى الطريقتين الأخريين . ومع هذا يربط الكالابارى الطرق الثلاثة بعضها
ببعض فى تفكيرهم .

ويوجد مفتاح هذا السر فى المثل الكالابارى القائل : « إن الآلهة تأتى
وتستقر مع أسمائها » . وهنا نجد أن الكالابارى يمثلون تفكيراً إفريقياً يكاد
أن يكون عاماً . وهى سجية كتب عنها جاهينز جاهن بفاعلية فى كتابه

« مونتو » . سحابة يصنفها شعب البانتو بلفظ « نومو » القوي السحرية للكلمة وطبقاً لوجهة النظر الإفريقية هذه . فإن الرجل بمفرده هو الذى يملك العقل الواعى النشط فى العالم المادى .

والعقل من نوعين : الذكاء ، والحكمة . والطفل عاقل بالمعنى الأول . فهو أهل لأن يتعلم ، ولكن الحكمة تأتى بعد الفهم الحقيقى لطبيعة العلم وصالاته ، وهذا يتضمن - كما يبرز جاهن - معرفة للطريقة التى يستفيد بها العقل البشرى من الأشياء ، ويحرك القرى الكامنة فيها .

ويستمر جاهن فى قوله إنه فى سنة ١٦٠٣ تم نشر تقرير تنبأ فيه كته بما سيحدث من سوء فهم شامل من الغربيين لـ «نفسية الإفريقية» . ويذكر التقرير أن تجاراً هولنديين قالوا للإفريقيين بساحل الذهب إن هولاندا تدين بكل ممتلكاتها المادية لله . وتعجب الإفريقيون لهذا وتساءلوا لماذا لم يمنحهم الله أيضاً نعمة الملابس الحريرية، والحداث، والأواني النحاسية. وسائر البضائع التى يتلقاها الهولنديون من آلهتهم .

وكان الهولنديون . بورع علمى . سراعاً فى أن يشيروا إلى أن الله كان كريماً أيضاً مع الإفريقيين ذلك بأن أعطاهم الذهب . وخمر البلح . والفواكه والخملة . والثيران . والماعز . وكذلك الموز والنباتات الأخرى اللازمة لحفظ حياتهم . ولم يقبل الإفريقيون ذلك . والواقع أنهم احتجوا بشدة على الزعم بأن الله كان مسئلاً عن أى من هذه الأشياء . وقالوا إن الله لم يعطهم أى ذهب . ولكن الأرض هى المعطية حينما يحشوا هم عنه . ثم بعد ذلك أخرجوه مجبرين . أما الماعز الصغير والحداث فإنها قد خرجت من بطون أمهاتها ، أما المأكلة فإن الأشجار هى التى أسطهم إياها بعد أن زرعوها بأنفسهم ، أعطاهم البحر الأسماك . ولكن عابهم أن يصطادوها . وعلى ذلك فإن الله لم يعطهم هذه الأشياء . وإنما هى الأرض وهى المياه ، ثم هم كسبرها بعلمهم .

وواقع أن هذه النظرة إلى الأشياء ليست مجهولة فى المحيط العبدى فى

الجزء الخاص بنا من العالم ، وتمثلها أملوحة القسيس الحديد الذي زار أحد الفلاحين التابعين لأبرشيته وأخذ يكرر أن الفلاح والرب فعلا العجائب بالأسوار ، والحقل . والزرائب ، والمواشى . وتحمل الفلاح قدر استطاعته ، ثم انفجر قائلاً : أيها القسيس كان يجب أن ترى هذا المكان حينما كان الرب يديره بمفرده . وبينما قد ينظر الغربي المتدين إلى مثل هذا الفلاح على اعتبار أنه مغرور ، إن لم يكن كافراً . ينظر إليه الإفريقي على أساس أنه بدأت تلوح عليه ملامح الحكمة الحقيقية . ليس الإله . وإنما الرجل هو الذي يحرق ، وهو الذي يزرع ويروى ؛ ليس الإله ، وإنما الرجل هو الذي يصلح الأسوار . ويبني الزرائب ، ويغذى البهائم . ومع هذا تحتاج الأرض إلى أكثر من العمل اليدوى لتغل ثماراً . وكما يقول جاهن في شرحه لوجهة النظر الإفريقية . يجب على الرجل أن يعمل أكثر من مجرد الزرع والحصاد . لأن الحبوب ليس لها في حد ذاتها نشاط ذاتي . إنها لا تفعل شيئاً بدون تأثير الرجل ، لن تنمو . بل سوف تبقى ملقاة على الأرض بدون مساعدة . بدون تأثير «أوبوينجى» (العقل الفاعل) . كيف يفعل الرجل هذا ؟ بواسطة «نومو» قوة الحياة ، التي تنتج كل حياة ، والتي تؤثر في الأشياء في صيغة «الكلمة» . إن قوة الحياة في كل مكان ، وفي كل شيء . والإنسان بقوته على الكلمة يستطيع أن يستدعى قوة الحياة ويرجعها . هذا معنى الحياة : أن يتلقى الإنسان «الكلمة» ، وأن يستحضرها ويشاطرها مع سائر الكائنات . بشرية أو قدسية ، حية أو ميتة ، «أجو» أو «تيم» .

وحينما يقول الكالابارى إن الآلهة تبقى وتذهب مع أسمائها ، فإن كلمة «اسم» تشمل أية أغنية ، أو استحضار ، أو قناع . أو دكورة ، أو رقص مما يمثل الإله . كما تشمل أيضاً معنى الاسم الحرفى للإله . وكل هؤلاء هم قوة الحياة ، وبوجد الكلمة (مع الاسم) يتم حضور الإله المطلوب . وقد يغنى الاسم الحرفى للإله ثلاث مرات ، وقد تدق به الطبول ثلاثاً ، وقد يحفر المثال صورة جديدة ، وربما يضع الممثل قناع الرأس المحفور ويمثل بالرقص

تصرفات إلهه ، إن أحد هذه الأشياء أو كلها مجتمعة إنما تدنى الآلهة بقوة « الكلمة » .

وبهذا تفسر القوى السحرية « للكلمة » — مفتاحاً قاطعاً للنفسية الإفريقية — الغموض الذى يكتنف مساواة الكالابارى للتشخيص والتمثيل مع الاستحواذ الفعلى لإحضار الآلهة فى القرية . وحينما « يلعب » القرويون مع « وثن » يتصلون بإلهه ، تماماً كما يشهدون وسيطاً غارقاً فى بلحة من الاستحواذ . ويضاف إلى هذا أنها — فى طريقة للتفكير — ترى أن كل تغيير إنما يتم بقوة الكلمة ، فإنها مجرد خطوة راقصة قصيرة تفصل بين حضور الإله — عن طريق التشخيص والمحاكاة — والاستحواذ الفعلى من نفس الإله .

ويعتمد الرجال ونشاطهم ، والطبيعة وحركاتها الحيوية ، على قوة « الكلمة » التى هى قوة الحياة نفسها . وهؤلاء القادرون على إضفاء النشاط العقلى على استعمال « الكلمة » يصدون الرجال الأحياء والأموات ، والآلهة جديعاً ، برباط من نشاط قوى ذاتية تعطى ، وتحافظ ، على حركات الحياة . وهذا النظام الضخم بدوره ينبع من المصدر الأعلى لكل الحياة ، وواهب كل القوى الحيوية : الله .

وإذا درسنا النظرية اللاهوتية لقبيلة إفريقية مثالية ، كالكالابارى ، فإننا نجد أننا نستطيع أن نفهم ببعض العمق كلمات فيليب كجوزانا « آلهة إفريقيا العظام » وهى كلمات تسميه بهذه المناسبة ، بأنه إفريقى محض . أو وطنى إفريقى وهب نفسه للبعث الروحى للشخصية الإفريقية التى ليست « أوربيا أسود » ولكن إفريقى بكل معنى الكلمة .

والواضح أن الإفريقيين ، أمثال كجوزانا ، الذين وصلوا إلى المدارس الثانوية وبعدها ، قد اتصلوا بعالم تختلف وجهة نظره تماماً عن النظريات الدينية للكالابارى وغيرها من الأديان القبلية .

والواقع أن الصور التقليدية للعالم تتداعى فى كل مكان ببطء ، ولكن بتأكيد ، أمام هجمات الجيل الجديد . ومع هذا فن الواضح أيضاً أن « آلهة

إفريقيا العظام » يحوთهم الغموض . فالكلمات لها معانٍ حرفيةٌ لآلاف الإفريقيين ، ومعانٍ نفسيةٍ لأمثال كجوزانا ، الرجال المتعلمين ، القادة . إن في الكلمات نفسها ، بالرغم من معانيها المختلفة للمتعلدين وغير المتعلمين ، يلتقى القادة والتابعون لينهلوا معاً من ميراثٍ روحيٍّ مملوكٍ لهم ، لإفريقيا . إن كلمات « آلهة إفريقيا العظام » تعنى أن هنالك تقاليدَ روحيةٍ إفريقيةٍ ، وأن هذه التقاليد تقف الآن موقف الحكم على الذين تفتحت عيونهم الآن على مصير إفريقيا الجديد .

ولا تعنى الكلمات محاولة لإحياء الماضي وبعثه كما كان . فهى لا تعنى عند كجوزانا وأمثاله العودة إلى الوثنية البحتة . إن ما تفسره هذه الكلمات لنا هو أن الإفريقى لن يقبل الادعاء القديم أنه رجل بلا ماضٍ روحي . إنه رجل ذو ماضٍ روحي غنى خصب نشيط حيوى . وهو — كوارث وخلف لهذا الماضي — لديه القوة لمجابهة مستقبله الجديد .

والزعماء الإفريقيون العقلاء يرغبون فى إدماج ما يابح أنه قيم من الماضي فى المستقبل . وبمعنى آخر ، يرغبون فى بعث التقاليد الإفريقية بحذر ، وإدخال التقدّمات الغربية ، أو أى عوامل غيرها تستلزمها العصور الحديثة . وهذه مهمة دقيقة وصعبة للغاية ، ولا يساعد على تحقيقها أغلب الشعب الإفريقى الذى يسيطر عليه السحر والشعوذة ، ولا هؤلاء الإفريقيون الذين تسهويهم الإثارة والرعب اللذان يناوئهما من القراءة عن طقوس سحر الأجداد .

جوجو

نشرت مجلة لايف (٢١ أبريل سنة ١٩٦١) مقالة غنيغة عن الدين الإفريقي حوت الكثير عن الخرافات والسحر . وتضمن العدد نفسه أيضاً مقالة عن مدح لاعب جولف أبيض من جنوب إفريقيا . برجه جاد واحترام وضع نقلت المجلة تفسير لاعب الجولف عن كيفية دخوله المباراة الدولية للجولف (التي فاز فيها) بأن « الرب أرادني أن أفوز » ومرة ثانية أخبر القراء بدون أى أثر لتردد هازئ أن لاعب الجولف المذكور كان واثقاً أنه « قد سمع رسالة من أعلى » . . ويلوح أنه لم يخطر لمحررى مجلة لايف أن خرافة شخص قد تكون شيئاً مقدساً عند آخر . وهكذا . بحواجز أعلى وأضعف مما نعلم . نمنع من الدخول حقيقة في حياة الآخرين .

وليس في إفريقيا ما يشده الغربيين ويثير لاثمتهم أكثر من عالم الجوجو الغامض ، وهو عالم مملوء بالسحر والشعوذة والتنجم والطب . وربما يكون من المستحسن أن أوضح المعنى الذى استعمل فيه كلمة « جوجو » . هى كلمة . بالرغم من تخفيها ، لا تزيد في الأصل على الكلمة الفرنسية « yauizou » أى اللعبة أو الدمية ، وقد استعملت لتفشى التماثل والتماثيل في الديانات الإفريقية . وبمعناها الواسع تتضمن « جوجو » قوى الطبيعة الخفية غير المدركة . ولكن معناها الأضيق يشمل فقط ممارسات ديانات السحر في مناطق عيش الكفاف ، أو ما نطلق عليه عموماً الحياة البدائية : كاللعان ، والطيرة ، والتعاويد ، والسحر الأبيض ، والأسود ، والعراقة بوجه خاص .

وإني أعترف أن كلمة جوجو ليست كلمة مناسبة لبيان ناحية لا شك في أنها أكثر النواحي أهمية وشمولا وجدلا في الديانات الإفريقية . ويعارض كثير من الإفريقيين في استعمال هذه الكلمة لخوفهم من أن تغذى الفكرة السائدة الرب والله

بأنهم متوحشون متأخرون ، ويرون إسقاط التعبير كلية . كلمة الذكورة ويديله عنها ، ولكنها ليست في الواقع خيراً منها . وحينما زار الملاحون والتجار البرتغاليون ساحل إفريقيا الغربية الأول وجدوا أن كل واحد من الأهالي كان يلبس تيممة بشكل أو آخر - قرناً سحرياً : ، صدفة صغيرة ، أو حلقة ، وكلها كانت قد شحنت بقوة الأرواح (مرقية بالكلمة) ، ويشق الأهالي أنها تساعدهم وتحبهم من كل أنواع المضرات . وكان البرتغاليون أنفسهم من اللابسين المتحمسين للمداليات ، أو صليبان ، أو رموز أخرى مقدسة قام القسيسون بمنحها البركة ، كما تعزى إليها مزايا متشابهة . ومن البديهي أن البرتغاليين قد استنتجوا أن الحلى الإفريقية بنات عم لحليهم ، فأطلقوا عليها نفس ما كانوا يطلقونه على ما يلبسونه هم أنفسهم ، أى « ذكورة » .

وأياً كان اللفظ ، جوجو أو ذكورة أو غيرها ، فإن المهم أن تلقى نظرة على واقع واضح في الحياة الإفريقية ، وأن تكون هذه النظرة بغية التعلم وليست مجرد الثروة والتسلية .

وعند الأغلبية الساحقة بين الإفريقيين لا توجد تفرقة واضحة بين السحر والدين . بل إن تداخل التعبيرين يستمر حتى بين بعض المتعالمين .

وقد حدثني صديق أمريكي . متزوج من فتاة من غانا وقضى بضع سنوات في خدمة الحكومة الغانية ، عن مقابله مع شاب غاني متعلم كان متلهفاً لإتمام دراسته في أمريكا . وأكد الشاب بحماس ، كمؤهل إضافي . أنه مسيحي مخلص - ولاحظ صديقي أن بأصبع الشاب خاتماً نحاسياً للجوجو ، فأشار إليه وسأل الشاب هل يحاول خداعه بقوله إنه مسيحي مخلص ؟ وأجاب الشاب : « إني أؤمن بكل قلبى أن الله سوف يعاقب أى شخص يحاول أن يضربنى ، ولكن هذا الخاتم يمنع من عمل الضرر أصالة » .

وإننا إذا سخرنا من هذا . وأوحينا إليه بأن السحر لا وجود له ، وأن قوى الشر لا تستطيع أن تجلب المرض أو الموت لشخص إلا إذا كان لديه سحر أقوى ليمنعه فإن الإفريقى . حتى المسيحي ، سوف يهز كتفيه لجهلنا .

إن السلطة الروحية الضخمة، نمو، تسيطر. وكل أعمال السحر تعرد إليها. وإذا لم تكن التميمة مرقية « بالكلمة ». فليس هنالك أى نفع فى خاتم جوجو. ولا فى تميمة من جذر ملتو ولا طب، بدون « الكلمة ». وليس لهذه الأشياء نشاط إلا بالكلمة: وبدون (الكلمة) لا يمكن لأى سم، أو تعويذة شر، أو لعنة أن تصرف ريسة معينة. فهذه أيضاً عاجزة حتى تطلق « الكلمة » سراح قواها الشيطانية.

إن كل ما يحدث فى العالم، كل خير، وكل شر، إنما يتلقفه التجاذب بين الكلمة وعكسها. فالحياة وحدة تدور دائماً مع القوى التى تطلقها الكلمة، ومعظم لإفريقيين لا يفهمون شيئاً سوى هذا. فى الطفولة، أو الشباب، أو الكهولة. سواء أكانوا يقطعون جوز النخيل، أم يقودون مصائر الحكومات. يبنون أكراخاً من الطين، أو يشترى السيارات الفارهة. يستسقون الأمطار، أو يخطبون فى اجتماع وطنى. كل ما يفعله الإفريقى يتصل طبقاً لما ورثه. بعلم روح القوة الحيوية « نمو»، الكلمة الحاضرة أبداً. وإذا فحقيقى جداً — حينما مات حوت على شاطئ أكرا — أن الرئيس الغانى نكروما وأعضاء مجلس وزارته تركوا أعمالهم وحضروا جنازة أعدت له.

إنه من اليسير علينا نحن الشعوب البيضاء. ونحن نقرر أن طقوسنا الدينية الشعبية معقولة، أن ننظر إلى المثل السابق كخرافة بدائية. ولكن لم يمض أمد طويل منذ أن دعى أحد زملائى فى بوسطون لتعميد وإنزال مركب جديد تملكه أسرة من بوسطون محترمة اجتماعياً.

والحوت له معنى خاص بالنسبة للقرى الساحلية فى غانا. فقوة حيويته تمثل إله البحر ويجب أن يحاط جسده بالتشريف اللازم. وعدم القيام بهذا يعنى مجازفة خطيرة بأن تسعى روحه للانتقام من أساطيل الصيد المحلية. وإذا كنت لا تعتقد — كما هو الحال بالتأكيد مع نكروما — بأن روح حوت معين تستطيع أن تلعب دوراً مقصوداً له تأثيره فى الصيد، فلا تزال توجد تلك العلاقة الغامضة ذات المعنى بين الصياد والبحر. علاقة « نمو ».

وفي التقاليد الساحلية لغانا أن حوتاً ميتاً يعنى شيئاً مهماً جداً . والرجل هو سيد الأشياء خلال قوة الكلمة المنتجة أو الهادمة . وأن يدفن حوت بما يناسبه من التكريم وبطريقة مناسبة هي بالنسبة للإفريقي طريقة مثلى معقولة ، لإعطاء الخير فرصة طيبة ضد الشر . كانت لفظة خاصة لشعب غانا تلك التي أحضرت نكروما ومجلس وزرائه حفل جناز الحوت .

ويلعب السحر بالنسبة لمعظم الإفريقيين دوراً مستمراً وهاماً . وإن أهم القادة السياسيين الإفريقيين — من أمثال نكروما ومبويما من كينيا ونيريري من تنجانيقا ولوثولي من جنوب أفريقيا وبالابوا من نيجيريا وسنجور من السنغال — ليستطيعون أكثر من أن يملأوا مراكزهم في رفقة عالية في أى مكان في العالم ، ولكن هذا لا يعنى أنهم فقدوا الاتصال مع ما يجرى في العقل الإفريقي العادى ، ويجب ألا نفقده نحن ، فالسحر أبعد ما يكون عن الانقراض بل إنه بدأ يبعث بخدية . إن الضغط المزدوج الواقع على الإفريقيين أن يبقوا على تقاليدهم ، وأن يتطوروا مع التقدم ، فيه تضارب شديد ، كما أنه عسير الحل . فقد أضاف عددًا جديدًا للمخاوف التقليدية ، التي لا ينتظر لها حل في المستقبل القريب . وهذه حالة تبعث على القنوط . وإحدى نتائجها هو الاعتماد المطلق على دروب السحر المعتادة . وبإخفاء المستعمرات البيضاء تضعف القيود القانونية على السحر ، أحياناً كسياسة متعمدة من الحكومات السوداء الجديدة ، وأحياناً أخرى لمجرد عدم الاهتمام . وإحدى النتائج الجانبية للاتجاه للإفريقية هو زيادة الاهتمام في كل الممارسات الإفريقية التقليدية بما في ذلك السحر . وإن المطلعين الإفريقيين الملاحظين لهضة السحر ما زالوا يضعون في المقام الأول الخوف المتفشى بين الأشخاص العاديين من أن الطريقة الأكيدة للوقوع في براثن السحر الأسود هو التفكير والتدخل في الممارسات السحرية بهذه الصفة .

وكثيراً ما لاحظت هذا الخوف ، وإن كان ضعيفاً ، بين الإفريقيين المتعلمين ، وفئة ضئيلة نسبياً من نخبة الأعضاء السياسيين من تجرؤ على

معارضة السحر جهره ، وإن حملة يقوم بها أحد السياسيين الإفريقيين في الحالة الراهنة ضد السحر لتشابه في حكمتها حملة يقوم بها سياسى من ألاباما ضد هذا الدين القديم « المسيحية » .

وقد استعان روبرت كوجلان ، المحرر بمجلة لايف ، المسئول عن المقال المنوه عنه في صدر هذا الفصل ، بشبكة خدمة الأخبار الواسعة التي تحت تصرفه ليكدس أمثلة من استجابة السياسيين الإفريقيين للسحر ، بغض النظر عن مدى إيمانهم هم أنفسهم بها . ويشابه هذا في ثقافتنا . فيما أعتقد ، الطريقة التي يصبح بها الرؤساء الأمريكيون ، قبل وبعد الانتخابات مباشرة ، من النظارة المواطنين في الكنائس بغض النظر عن عدم اهتمامهم المعروف في الماضي .

وهناك ألبرت كالونجى ، الذى توج نفسه « ملكا » على « بالموباس » بالكنجو ، والذى تبحث عيناه في الجماهير عسى أن يرى امرأة برصاء كلما عاد من رحلة رسمية ؛ ولأن بالموباس تعتقد أن كل من أبصر امرأة برصاء سوف يتجنب سوء الحظ ، كان أتباع كالونجى يتأكدون دائماً من استحضار واحدة له ليراها .

ونفى مكتب المستعمرات البريطانى في وقت من الأوقات حاكم بوغاندا .

واحتجاجاً على ذلك ترك أصدقاءه لحاهم تنمو . وحينما سمع له أخيراً بالعودة أزيات اللحى في حفل عام ، وكانت النية متجهة لعمل نخدة منها للعرش الملكى ، وبعد تفكير متروى رثى ، أن الأعداء السياسيين ربما يستدلون على النخدة ويستعملون الشعيرات في تعاويز خطيرة ضد أصحابها ، ومنعاً من المخاطرة قرروا إبادة كل ما خلق .

ويستعمل فيلكس هوفويت بوينى . الرئيس المتألق لساحل الذهب وعضو مجلس الوزراء السابق في وزارة دييجول . الجزء من اسمه « هوفويت » . كرأس مال سياسى . فالكلمة بلغة قبيلته معنى غير نظيف ، وهو

بالرعة . لكن قيمته السياسية هي كما يلي : إن اسم الرئيس بالمولد هو بويجني ، وهو يستعمله تشريفاً وتكريماً لأمه ، وأما اسم هوفويت فإنه اسم سمي به جداه طفلتهما الخامس بعد أن فقدوا أربعة أطفال . وكان صاحب الاقتراح هو الطبيب الساحر . وذلك ليريك الأرواح الشريرة المسببة عن الوفيات الأربع السابقة . وقرر أن طفلاً يحمل مثل هذا الاسم الحقير لن يستأهل اهتمام الأرواح . وأفلحت الحيلة . وشب الطفل ليكون والد الرئيس . وحتى يمنعوا القوى الشريرة من اكتشاف الحيلة وإنزال الانتقام انتقل الاسم مع سلسلة الأحفاد .

« وحزب إفريقيا الوسطى » هو منظمة سياسية متواضعة متعددة الأجناس في رودسيا ونياسالاند . وكان سكرتير المنظمة في فرعها بنياسالاند (برادفورد فيري) الذي يدعى أنه استقال لأن لعنة قد انصبت عليه بواسطة أتباع الدكتور هاستنجز باندا . وطبقاً لأقواله شخصياً : « في يوم ابتداء أننى يأكلنى فجأة . وتحرك شئ ، حارق من أننى إلى رجلى اليسرى حيث استقر مسبباً لى ألماً شديداً نتج عنه عدم استطاعتي السير . وهذا المرض قد افعله بواسطة السحر الأشخاص الذين يكرهونى » .

ويروى كوجلان عن متعلم غاني مرموق ومنافس لنكروما اضطر أن يترك منزله خوفاً من لعنة جوجو صبها ضده أتباع نكروما . وانتقل إلى نعمة أطرف . تعرف إن أحد الوزراء السابقين في غانا يدعى السيد/ك.أ. جبيديما . وهو رجل مؤدب وظريف جداً . وفي أثناء حديثنا عن الديانة قررى أنه يصف نفسه بأنه متدين بمعنى شخصي . لكنه حر التفكير لدرجة أنه لا يستريح في كنيسة أورثوذكسية مسيحية أو جامع إسلامي . وقال : « إننى أبدأ كل يوم من حياتى بالتأمل ، وأحاول أن أقضى يومى كله فى تنمية الساحة الروحية . وأدعو أن يكون لى ثلاثة أشياء : الصحة لأقوم بعملى ، والحب فى قلبى . وشعورى بالله فى حياتى . وأنا لا أكره أحداً . وإذا ما خالفنى أحد . كما فعل الكثيرون . فإننى أحاول أن أدعهم يتخذون طريقهم ولكن بغير عداوة » .

وفي الوقت الذي كنا نتكلم فيه كان جيديما قد اشترى سيارة « بنتلي » حديثة جداً . وكان مغرمًا بها . وقبل أن يبدأ سفره في رحلة مع سائقه كان مساعده الشخصيون يصحبون قرايين . ويقومون بطقوس أخرى لتأكيد سلامة الرحلة . وعند عودته أقاموا احتفالا أكثر صخباً يتضمن التضحية بذبح ماعز صغير شكراً لعودة الوزير سالماً . ونظراً لحالة المرور في غانا فإن في ذلك منطقاً أقوى مما قد يظن .

وقد سألت جيديما عن شعوره إزاء هذه الأعمال . فقال إنه قد سره أن يسكب القربان شخصياً ، كما كان شاكراً جداً لأي مجهودات تؤكد سلامته . وهو قطعاً لم يتضرر من أمثال هذه الطقوس . كما لم يكن مستعداً لمناقشة ضد معتقدات الآخرين وإمكان تأثيرها . والتضحية بالماعر وحدها ، شخصياً . غير مستساغة . ولكن هنا أيضاً كان من اليسير احترام الدافع لها .

وكان من العسير تحديد ماذا كان تفكير جيديما فعلاً في مثل هذه الطقوس التقليدية ، ولكنه كان من الواضح أن تفكيره الحر لم يكن يتضمن حمله تحطيم أصنام ضد السحر الديني الذي يمارسه شعبه . ولا أريد أن أشير إلى أنه كان يجب أن يفعل ذلك .

قبل عدة أيام من هذه الحادثة كنت قد تقابلت مع المرحوم المطران داجادو من كنيسة غانا الميثودية ، وقد روى لي هذا الرجل الراهب ، وقد مات الآن ، أنه لم يطق أي مهادنة في موقف كنيسة ضد تدفق القرايين طالما أن هذا العمل له مغزى ديني ، ويمثل الإيمان بأن السلف وأرواح الجوجو يمكن أن تتدخل فعلاً . وكنت أزور مع المطران داجادو المنزل المبنى بالمصيص والذي اتخذ مكاناً لاجتماع أتباع كنيسة أكرام الميثودية الذي ينعقد كل ثلاثة أشهر ، وكنت قد سمعت دعاء طويلاً من أحد المندوبين ، يطلب فيه المعونة من الله للحصول على جزء من أرض الحكومة ، يرغب الميثودستانيون في الحصول عليها لبناء كنيسة جديدة .

وكم كنت أود لو أنني ناقشت المطران داجادو في النقطة الخاصة بتدخل

الأسلاف وأرواح الجوجو ، مع مقارنتها في المسيحية بتدخل الرب عن طريق السيد عيسى المسيح . وكانت الأسئلة في ذهني ، ولكنني لما كنت أعلم مخطط المطران لزيارة ماثاشوتس في الأشهر التالية ، رأيت أنه قد يكون أكثر لباقة أن أناقش الموضوع معه في مكتبي عن مناقشته في مكتبه ، ولكن للأسف لم يعش المطران داجادو ليقوم برحلته للبلاد الأمريكية .

ولأنه من السهولة بمكان ، على الأمريكيين والأوروبيين الحديثين أن يتناسوا استعمالات السحر في ماضيهم وحاضرهم ، وأن ينسوا أن السحر ، وقد انعدمت التفسيرات المقنعة عنه كما انعدمت وسائل السيطرة عليه ، له سلطة روحية ومنطق داخلي محبب إلى النفس . وأساساً هو رد الفعل الغريزي للإنسان على التصرفات الغامضة ، والشريرة غالباً ، للطبيعة التي هو جزء منها . هو يرى نتائج نشاط كائنات مرئية مثله ، ويفترض أن النشاط الذي لا يمكنه فهمه نابع من كائنات غير مرئية ، ومن هنا ينشئ عالماً روحياً كاملاً .

وبدأ إنشاء مثل هذا العالم الروحي منذ أمد طويل في إفريقيا . وبالتالي جذوره عميقة . ويعتقد الإفريقيون . كما ذكرنا ، في كائن أعلى خلق الكون . وكما شرح سيكوتوري . رئيس دولة غينيا ، حينما تهكموا عن إمكان انجاء دولته إلى الجدل الوجودي - وجود الله منكور في الجدل الوجودي - أنه من العسير جداً أن يوجد أى شخص في إفريقيا وخاصة في غينيا لا يؤمن بالله .

على أن هذا الكائن الأعلى ، بالرغم من الإيمان به قلبياً ، لا يعبد بالضرورة في الحياة التقليدية للعائلة أو القرية الإفريقية . الرب غير شخصي ، وبعيد . وفي أحسن الأحوال هو محكمة الالتجاء الأخير . على أن من الله تنبع القوة الحيوية لتنصب في العالم الروحي الواسع الذي خلقه . وقد تم هذا كله في الأصل بتوافق ؛ ولكن هذا التوافق قد دخله الاختلال من أعداد لا حصر لها من أنواع المخارقات التي تتلقى القوة من نمو ، وكثيراً ما تشع هذه المخارقات بدورها قواها في طرق متضاربة فتخل بنظام الكون المقدس . هذه الفكرة الأساسية من أن العالم تخترقه قوى يمتلكها الإنسان والحيوان والسلف

والآلهة ، والأرواح ، بل الأشياء ، تجعل الحياة مجالا لعلاقات متفجرة بين القوى حيث يمكن في الواقع لأي شيء أن يحدث . فالدين يكون بهذا مجرد طقوس نشاط الإنسان خلال الكلمة لحفظ توازن القوى . وليحافظ على توافق هذا الكون الحيوى .

تأخذ أعمال الطقوس الأشكال التى سبق أن فحصناها فيما يختص بالكالابارى ، أرواح السلف ، وقوى القدر الروحية . والطبيعة . والقرية . و القبيلة . كلها تتشابك ، وواضح أن الشخص الذى يمكنه أن يكتسب كل هذه القوى الروحية ويقودها لمصلحة قبيلته . أو الذى يستطيع أن يحمى عشيرته من الأرواح الشريرة . صديق قوى . وحينما يسير شاب من باننو فى طريق بأرضه التى سبق رقيها بإفريقيا الجنوبية . فهو بطأ فى وسط زحام روحى من خليط من الأمل والرعب . وكلمات الاحتقار تكون عاجزة عن أن تصف استهزائه وخوفه على الشخص . رجلا كان أو امرأة ، الذى يزعم أن يسلط عليه أو على عائلته أو قبيلته الأرواح الشريرة . ومثل هذا الشخص عرافاً أو ساحراً له أهمية كبرى فهو ، « كقدم أشيل » فى الحياة الإفريقية . هادم للتوافق . مسبب لعنات الخبيثة والأمراض المرعبة والموت . وأن تقول لإفريقى مؤمن إن دنياء الروحية لا وجود لها ، وإن لعنات السحر ما هى إلا خزعبلات ، وإن الشعوذة لا يمكن أن تأتى بأمراض لا شفاء منها ، كأن تقول له إن النار لا تحرق . ويهتدى الإفريقيون إلى المسيحية ويقتنعون بأن الرب المسيحى أقوى من كل العرافين والسحرة ولكن كما يعلم كل مبشر . قليل جداً من الإفريقيين المهتمين من يتوقف عن الاعتقاد فى العرافين والسحرة . أو كما يقول مثل من الكونغو . إن العادة جبل ضخيم من العسير جداً اجتيازه أو هدمه .

ولما كان احتقار القوى الخفية يتم عن طريق السحر ، فلا بد من الاستعانة ببعض المتخصصين مثل القسيسين أو القديسين الذين يقومون بخدمة آلهة معينة . والوسطاء الذين تتكلم بواسطتهم الآلهة أو الأرواح . والعرافين الذين يستطيعون الإجابة عن الأسئلة الدقيقة أو التنبؤ بالمستقبل ، وأطباء السحر أو رجال الجوجو

الذين يعتبرون ملاذ القبيلة أو الفرد ضد العرافين والسحرة . وللعراف أو رجل الجوجو الذى يتخصص فى السحر الأسود عادة طرق لا بتداع الشر . هو خبير فى السموم الحبيثة التى إما أن تقتل أو ، ما هو أسوأ ، أن تدفع إلى الجنون . وهو يصنع التماثيل ويغرز فيها الدبابيس ، وتسمى هذه الطريقة قوة الدمية ، وهو أستاذ فى التنويم المغنطيسى ويستطيع أن يسبب الموت بقوة الإيحاء . يستطيع أن يلعن الطعام الذى تبقى ، أو الشعر أو بقايا الأظافر ، وعمله يقتل مالك الشيء الذى لعنه ، ويستطيع أن يشير إلى رجل بعظمة مرقاه ويقتله . ولا نهاية لما يعتقد الإفریقیون فى قوة العراف ، ولكن قليلا من الرجال البيض الذين عاشوا فى إفريقيا مدة كافية من يفكر فى أن ما يسميه الإفریقیون السحر ، أو ما يعتقدون أنه سحر يعدل حقيقة . والسحر لمثل هؤلاء الإفریقیين حقيقى ومنطقى ، وليس من الخيال ، فالسحر هو القدرة على تحويل قوى الحياة الجوهرية إلى أغراض شريرة . والشك فى إمكان هذا ، هو الشك فى كل وجهة النظر التقليدية الإفريقية عن العالم الروحى . وكل من عاش فى إفريقيا يستطيع أن يدلى بنصيبه من قصص الرعب والمآسى والموت الذى لا يمكن تفسيره بالوسائل الطبية العادية أو التحاليل النفسية . على أنه إذا كان هنالك سحر سىء فيوجد أيضاً السحر الخير . وإذا كان المشعوذ عدو الشعب ، فالطبيب الساحر . كما سوف نرى ، هو وسيلة الدفاع ضده وضد قواه ، كما هو أيضاً الدفاع ضد السحر والسحرة .

وفى مقالة روبرت كوجلان بمجلة لايف تشويه يظهر عادة فى الكتابات عن السحر الإفريقى ، التى تخاطب بين العرافة والسحر ، فى حين أنهما متميزان تماماً فى إفريقيا . العراف هو الذى يزاول السحر عامداً فيستنزل اللعنات ويعطى السم وهو عالم به وبإصرار سابق وهو عادة رجل .

إن من قرءوا قصة جويس كارى الظريفة ، « الساحرة الإفريقية » سوف يذكرون المهارة التى صورت بها كارى امرأة تصب اللعنات على أعدائها ، وكيف شلت حركة الحكومة . وفيما عدا أنها امرأة ، فهذه الساحرة لا تتشابه

إطلاقاً مع أية ساحرة في إفريقيا . الساحرات في إفريقيا نساء تماماً كما كن في أوروبا وسالم . ولكنهن . على خلاف بشالة كاري . لسن شخصيات شعبية يزاولن السحر عامدات لأغراضهن الخاصة .

إن السحر ما زال معروفاً في أجزاء من أوروبا وأمريكا . وإن تكن قد هبطت حدته منذ أيام الجهل . أما في إفريقيا فإنه لا يزال يمارس بعشق ونشاط في الأعمال العادية . بل لعله أيضاً في إدياد . وفي تصرف الإفريقيين العقلية والاجتماعية عموماً لا يوجد اعتقاد مغروس أكثر عمقاً من وجود السحرة . وتتخذ احتياطات جدية للبعد عن نشاطهم . وكثيراً حينما كنت أضع السؤال . ما أخبرني متعلمون إفريقيون أنهم فعلاً يعتقدون في السحر . ومع هذا كانت لإجابة تعطى بحد من الضرر ، وربما من الحجل أيضاً . والواقع أن الموضوع ينهى المناقشة عادة بين الإفريقيين والأجانب .

ومن البديهي أن هنالك حالات شاذة مثل ذلك الكاتب في وزارة الصحة الغانية الذي قال : « ساحرات ! أيها الرجل إن هذا للعجائز والمسنين . إن فتننا نستقي من توم باين وأينشتين وماركس نشاط الكتلة والمهارات الفنية والنظريات الاجتماعية » .

ولكن للسحر أيضاً مغزاه الاجتماعي . أولعل الأصح أن يقال أننا اجتماعي في إفريقيا . كما أن فيه تبايناً كثيراً . ومن العسير جداً الآن أن نعرف كيفية قياس الاعتقادات في السحر أمام قوى هامة عامة أخرى كالتعليم والطب الحديث والطرق العامة والكنائس . فإن شبكة التغيير المعتمدة تدفع بعض التقاليد القديمة إلى زيادة التماسك أكثر من أن تضعفها . ويلوح أن هذا صحيح في المدن المكتظة بالسكان كما في القرى . فالسحر يسيطر على المخاوف الإفريقية في الدوائر العامة ، وفي كل المسالك الخادعة للأمراض الغريبة ، وفي الحوادث ، وفي عدم استطاعة الترقى في الوظيفة ، في المنجم ، أو المتجر ، في الرسوب في المدرسة . في الإخفاق في الحب ، في كل اعتقاد للنجاح عامة . وعلى قدر ما يخشى الإفريقيون الساحرات فإن قدرتهم على احتمال وجودهن وعلى مقاومة عدم مطاردتهم المستمرة مدهشة حقاً ؛ ويشرح باريندر هذه الظاهرة كما يلي :

إن الكثير من الأشخاص يعتقد فيهم أنهم سحرة ، ولكن لما كان الظن عامة أن قواهم غير نشيطة فلا يوجد الداعى لإقلاقهم . وفقط حينما تظهر أدلة على أن الساحر بدأ يزاول ، يجب العمل للحد من نشاطه .

ويشرح الدكتور ولف ساتشيس في كتابه « الغضب الأسود » الذى قام فيه بتحليل نفسية رجل الطب أو الطبيب . الساحر الإفريقى ، أن جون شافافانا مييرا طوب أول مرة لمزاولة فنونه . وبالرغم من الإنذار الذى تلقاه من روح والده المتوفى بأنه مازال صغيراً جداً على المزاولة (فعلى الصغير أن يتعلم والكبير أن يزاول) ، فإن جون قد سمح لنفسه بأن يوضع فى موقف كان ينتظر منه فيه أن يظهر قرية مسحورة لم تهطل فيها أمطار لثلاث سنوات . وكان الناس يتضورون جوعاً والماشية تنفق .

وأوضح جون للدكتور ساتشيس كيف كان وقع المكان عليه بأن قال : « كانت الأكواخ قذرة وغير مرتبة ، وكان منظرها غريباً سبب لى ألماً فى قلبى ، وكان الأطفال الصغار قلائل وقدرين جداً وبدون حيوية ، وهذا غير عادى بالنسبة للقرى ، إذ أنها تطن عادة بالأطفال . ووقفت أنظر إلى هؤلاء الرجال والنساء الفقراء البؤساء المرضى ، وتساءلت عما إذا كانت متاعبهم مرجعها كلية إلى الجفاف والجوع . ربما تضرعوا إلى الله خطأ ، أو ربما كانوا مسيحيين ونسوا أمواتهم » .

ولكن زعيم القرية أخبرنى بحالة تدعو إلى الرثاء على أن السحر كان هو السبب ، وأن جون الطبيب الشاب المانيكى الطبيب القوى كان آخر أملهم فى إخراج الشرير الذى سحرهم .

ووجد جون نفسه هدفاً لعوامل متضاربة : « كنت واثقاً من أن سوء الحظ هو الذى قادنى إلى هذه القرية المسحورة ، فهل كنت أنا أيضاً فى خطر من التعرض لهذا السحر ؟ كان لدى دواء فى جيبي لحمايتى ، وكنت أفكر : هل أخالف والدى لأمد يد المعونة لهؤلاء الناس البؤساء ،

وأوافق على إظهار الشرير ؟ » ولكن كان من الواضح أنه لم يكن قراراً سيراً ، كما لم يوافق أهل القرية بسهولة على التعرف على الساحر ، وإنما دفعهم إلى هذه الخطوة موقفهم البائس .

وتقوم موجات من مطاردة السحرة من وقت إلى آخر في طول إفريقيا وعرضها ، ولكنها حالات استثنائية . تقول مارجريت ج . فيلد . وهي دراسة غير عادية للحياة الإفريقية ، إنه بالرغم من الصبر المتناهي في تعليمها على يد أكبر ساحر طبيب ورجل دواء في غانا ، فقد مضت أربع سنوات ونصف حتى تبلور موضوع السحر في رأسها - كما في الشكل الذى تراه الآن . وهذا نوع من التفكير نحتاج إليه نحن الغربيين لكي نفهم مدى تعقيد بعض الأمور التى نطالب بفهمها في أجزاء أخرى من العالم . ولكن للأسف . فهذا النوع من التواضع قلما نصادفه في المبشرين والمدرسين والدبلوماسيين والفنيين الذين يرسلون للعمل مع المواطنين . وإننى فيما سوف أكتب عن السحر الإفريقى أعتمد كثيراً على عمق معرفة أمثال هؤلاء الناس مثل دكتورة فيلد . وايفانز بريتشارد . وباريندر . ومايرفورتس . وللأسف ، لم يبدأ الإفريقيون بعد في الكتابة الجدية عن السحر ، وهم كما قلت يتخرجون جداً حتى في الحديث عنه . لكن أخضع غربيين قلائل أنفسهم للأنظمة . وقضوا سنوات طويلة في اشتراك شخصى بما يكفى لإعطاء تفسيرات وملاحظات يعتمد عليها .

ومن التقاليد العادية في علم السحر في معظم القبائل الإفريقية أن السحر تزاوله عادة امرأة . في حين يزاول الرجال عادة العرافة . وفن الساحرات الأسود ، هو دواء شر وأهل للقيام بأعمال هدامة في حياة الأشخاص الآخرين . ويتميز الساحر عن العرافة بأنه لا توجد طقوس معينة أو احتفالات أو مظاهر خاصة تلتزم الساحرة باتباعها ، فالساحرة بشع عملها الشرير رأساً من عقلها ، خفية وبدون لعنات عادية أو غيرها ، وتنصرف الساحرات كما يفعلن بدون أسباب عادية كالبعض أو الغيرة أو

الحسد ، فهذه الأحاسيس مفهومة وطبيعية لدى الأشخاص العاديين . ولكن الساحرات لسن أشخاصاً عاديين ، وليس شرهن مجرد استعمال بسيط لقوى فوق الطبيعة ، فهن يؤذين ويقتلن أشخاصاً من غير الطبيعي لهن أن يكرهنهن . ومن كلمات الدكتور فيلد أن « دواء الشر » العادى يوجد حيث يتوقع الشخص أن يجده ، عند الأشرار ؛ أما السحر فيوجد حيث لا نتوقع . أى عند الأشخاص الطبيعيين ، ولا أعنى أن السحر لا يعمل فى التيارات التحتية من الغيرة والحسد التى تجرى تحت سطح علاقات كل عائلة أو مجتمع ونادراً ما تلمس السطح ، فهناك يكون من الطبيعي أن نبحت عنه ، وإنما دوافع الساحرات تنتمى إلى أوضاع وحشية وشريرة للأشياء يتخطى مفهوم الشر والخير . إن ثورتنا الفرويدية تسهل لنا فهم افتراض أصبح معروفاً الآن عن السحر . وهو أنه ظاهرة طبية . إن الساحرات مريضات إما عقلياً ، أو من ناحية الشعور بأنهن يسيطر عليهن شعور ، برغم أنفسهن ، بأن لديهن قوة استعمال أفكارهن فى شن غارات ضارة بالآخرين . وأقول مع الدكتور فيلد إن هذه النظرية الطبية ليست من عملى إلا فى حدود أنها تساعد فى إقناع الأوربيين بأن وجهة نظر الإفريقيين تدل على حقيقة واقعة ، وليست مبنية على خرافات . أو خزعبلات سخيفة قاسية .

إن الكثير مما يمكن أن يقال عن السحر . قد تحول إلى ألفاظ غريبة فى علم النفس ، وقد قال إفريقى للدكتور فيلد : « إن الساحرات كثيراً ما يخفين سحرهن خلف طيبة واضحة ورقة . يلوح أنهم أشخاص خيرون وطيون كل حياتهن ، وحينما يكتشف أمرهن أخيراً ، يعترفن بأنهن كن طيلة الوقت يقتان الناس خفية » . وقد وجدت الدكتورة فيلد فى كتاب فرويد « قدرات الفكرة » هذا المقابل الشائق وإن يكن ثقيلاً . إن المصاب بجنون التعقيد قد يسيطر عليه شعور بالحرم خلاق بالقتال بالحملة . فى حين أنه فى الوقت نفسه يتصرف حيال زملائه الآدميين بطرق كلها تقدير ومحبة ،

وهو تصرف يكون قد نشأ عليه منذ الطفولة .

ولعل لا أعدو الحق إذا ما قررت أن أكثر من قسيس عاقل قد يتعرف في هذه الكلمات على حد الموسيقى الذي يفرق بين من يطلق عليهم الإفريقيون السحرة ، ومن يطلق عليهم فرويد المصابين بحزن التعقيد .

وإن ما بين أيدينا الآن تعريف للسحر يمكن أن تتفق عليه عقول الإفريقيين والغربيين . إن الساحرات مخلوقات غير عادات تخطي بهن شذوذهن، الحد وراء السيطرة العقلية الطبيعية والاتزان . ولعظم الإفريقيين ، تعد المملكة « وراء الحد » مرعبة وشريرة . ويجب أن نذكر أنفسنا : نحن الغربيين ، بأنه لم يمض زمن طويل منذ نظرنا إليها نظرة مغايرة ، بل إن الكثير منا لم يغير وجهة نظره حتى الآن .

وتقول الدكتورة فيلد : « يدخل ضمن النظام الإفريقي طبقتان إضافيتان من الأشخاص الشواذ . قد يعتبرهم الأوروبيون أيضاً من الحالات الطبية . فأولا ، هناك الذين يسيطر عليهم الخوف من أنهم مسحورون . وثانياً ، الفئة الأكثر رعباً من المختلين الذين يعتقدون أنهم سوف يصبحون سحرة برغم إرادتهم » .

وحيثما نتذكر مدى التغيير الذي يعترى الحياة الإفريقية : سرعة الانتقال الثورية . والتصنيع . وعدم الاستقرار . وغيرها من العوامل . فلا غرابة في أن هنالك ارتفاعاً في صفوف الذين يعتقدون أنفسهم سحرة . والذين يرتعدون من احتمال أنهم قد مسهم سحر ، والذين يتضاءلون أمام الرعب من أن يصبحوا سحرة . وإن لعصر القلقلة في إفريقيا من العفن المعدي على الأقل كما عندنا .

ومن المظاهر المدهشة في السحر الإفريقي الاستعداد والسهولة اللتان نعرف بهما الساحرات إذا ما اكتشف أمرهن ، ووجهن بأعمالهن الشريرة . وإن الإنسان ليتذكر مثيل هذه الظاهرة تماماً حينما كان السحر يسيطر على

أوروبا ، وكذلك الشيء نفسه الذي رأيناه حديثاً في المحاكمات السياسية في روسيا السوفيتية وغيرها !

وإن اللائى وصمن بأنهن ساحرات عن طريق الكهانة ومحاكمات صيادو الساحرات سرعان ما يطلقن سيلا من تفاصيل ودقائق وحشية عن أعمالهن الشريرة . وطريقة هذه الرحلات القاتلة عموماً واحدة : لأن هنالك تماثلاً كبيراً في علم السحر في إفريقيا . تترك الساحرات أجسادهن نائمة في أكواخهن بالقرية أو منازلهن بالمدينة ، في حين تطير أرواحهن عارية إلى الاجتماعات الليلية الفلكية . ويندر أن يكون في الاجتماع أكثر من عشر ساحرات . وهن أحياناً يطرن في شكل بومة أو أنواع أخرى من الطيور ، وأحياناً يركبن ظهور حيوانات مدربة يعملن معها في اتصال شديد عادة كالتمور والتعابين والقطط السوداء وما يشبههما .

ويسود الاعتقاد أن ممارسة السحر وراثية تنتقل من الأم إلى الابنة ، ولكن الطفلة لا تظهر عليها أية علامة لآفتها حتى سن البلوغ . كما أن أولاد الساحرات قليلون . وبينما تولد بعض النساء ساحرات فإن بعضهن يكتسبن هذه الموهبة الشريرة . وهنالك بعض الاعتقاد في أنه يمكن شراء السحر بدفع مبلغ مناسب . ويمكن اكتسابه من الشياطين أو الساحرات الميتات . وأنه يمكن بذره مع طعام مسحور . وأن الساحرة تستطيع أن تنقل بحقد « مادة » سحرها لشخص عاقل بطرق متعددة .

والسحر دائماً نشاط للروح أو النفس ، وليس نشاطاً مادياً للبدن أبداً . وحينما تذهب « تيم » الساحرة إلى أى اجتماع فإن جسدها النائم في المنزل يهلك إلا إذا عاد « التيم » .

وفي تجوالها الليلي تفترس الساحرات الأشخاص الآخرين . هن يرتشفن من جوهر نفوس ضحاياهن بامتصاص دمائهم ، وأكل بضعة أجزاء من أجسادهم ، روحياً دائماً وليس مادياً أبداً .

ولا يمكن تحديد علاقة هذا . إن كانت هناك علاقة . بالذكريات الأولى لمبدأ أكل لحوم البشر . وفي الظاهر لا علاقة للسحر إطلاقاً بممارسة أضحت غير قانونية منذ زمن بعيد ، أى القتل وفقاً للطقوس الدينية بين بعض القبائل الإفريقية . ولكن إذا كان نشاط الساحرات فى مص دماء ضحاياهن . وأكل لحوم أجسادهم غير مادمى إطلاقاً فإن النتائج المادية مسألة أخرى . فأمرض الذبول يعتقد أنها تنهب أجساد الضحايا مسببة الموت إذا التهم روحانيًا عضو حيوى كالقلب مثلاً .

على أن الالتهام ليس هو نشاط الساحرات الوحيد . فتجوال الساحرات فى أحلام ضحاياهن لا يقل خطورة إذا تنبأن لهم بكوارث مزعجة . أو مصائب للأفراد أو العائلات أو القبائل . وهنالك صب اللعنات بمجرد التفكير الذى تكفى نتائجه لتلقى الرعب فى أشجع القلوب .

وفى هذه الأيام . لما كان لا يمكن عقاب الساحرات بدنياً إلا قليلاً . فإن اعترافاتهن أضحت لها قيمة طبية إضافية . وقد كانت ظروف الدكتوراة فيلد فريدة لتسمع وتسجل مثل هذه الاعترافات بين شعب « جا » . وبعض هذه الاعترافات يستحق التردد :

سئلت ساحرة . بواسطة الطبيب الساحر عما إذا كان أولادنا جميعاً أحياء ، فأجابت بأن سبعة ماتوا وبقي واحد .

— وما سبب موتهم ؟

— إن أعضاء جمعيتنا (جمعية الساحرات) عليهن أن يساهمن بالدور . وحينما حل دورى من وقت لآخر أحضرتهم لكى يقتلوا بواسطة جمعيتى .

وأجابت أخرى :

— لقد قتلت أدوينا أدبروينى وقتلت أطفالى الخمسة .

وقال رجل ساحر (هنالك قليل من الرجال سحرة . فذكرات الرب والله

الدكتورة فيلد تعدد ثلاثة وسبعين ساحراً مقابل ثلثمائة وستين ساحرة .
 - قتلت خمسين شخصاً من ضمنهم أخى وابنه ، وكانت منهم اثنتا عشرة امرأة .

وقال ساحر آخر :

- أنجبت عشرة أطفال منهم خمسة ما زالوا أحياء وقد قتلت الباقين بنفسى .

ويجب أن نذكر أنفسنا مرة ثانية أن هذا ليس فعلاً مادياً ، وإنما هو قتل للجوهر كما يسميه شعب جا : « كلا » الضحية . على أن نية الاعتراف ليس حيلة لخيالات ، فالموت المادى قد حدث وتم تفسيره . وبالمثل فإن الاعترافات بأكل لحوم البشر ليس مادياً ، كما أن اجتماع الساحرات ليس بأجسادهن ، فجسد الساحرة يبقى على فراشه . إن شخصيتها هى التى تطير لتلحق بالساحرات الأخريات لتلتهم زبد الأرداف والرءوس أو أى جزء من الضحايا ، وبرغم هذا ، فإن الاعتراف له حقيقة واقعة مرعبة كما فى هذا المثل :

اعترفت إحدى النساء بندم قائلة : أنا والدة الطفل المريض الآن ، وقد اقتسمت جماعتنا فعلاً جسده ، لقد أعطوني قلب ابنتى لآكله ، ولكنى لم آكله وأعدته إلى ابنتى .

ولعل من أكثر الجرائم التى وجدت فى الاعترافات ندالة ، ذلك الذى يسبب العقم ، فإنه يعد عادة أسوأ من القتل . إن الطفل المقتول يمكن أن يعود للظهور فى ميلاد مستقبل ، أما العقم فهو حرمان الأسلاف الموجودين من حقهم فى التجسد ثانية .

واعترفت امرأة بأنها أخذت رحم أخرى . وقد سألت الطبيبة الساحرة :
 - منذ متى تحتفظين به ؟

- حوالى عام .

- وأين وضعته .
- إنه فى إناء فخارى فى منزلى .
- هلا أعدته إليها ؟
- سأعيده إليها ثانية بكل سرور .
- هلا باركتها أيضاً ؟
- سأفعل ذلك .

وفى مثل هذه الحالة فإن من المقطوع بأمنيته أن يكون الرحم المسروق (أو عضو التناسل إذا كان الضحية رجلاً) هو العضو الصحيح . وألا يكون قد مسه أذى . إذا كان يرجى من إعادته النتائج الشافية المرجوة . وهذه التفاصيل تلاحظ بدقة فى تطهير الساحرات . ولا يلزمنا أن ندخل فى غارات متعددة أخرى للساحرات تسبب العمى والجروح . والعجز عن إيجاد زوج ، وباختصار جميع أنواع المصائب . على أن السحر يعد عملاً مسئولاً عادة عن عوارض مادية ، كحدة الطبع ، وسرعة الغضب . وعدم القدرة على الإنتاج . وهذه هى علاقته الوطيدة بالحياة العادية .

وحيثما نأتى إلى عملية الالتحام الهامة مع الساحرات ، نبدأ فى تقدير مركز وأهمية الشخص المحبى عليه . الطبيب الساحر الإفريقى ، رجل الدواء ، أو رجل الجوجو الطبيب . فإذا اعتبرنا العراف أو الساحرة هما الرجل الوغد والمرأة الدنيئة . فإن الطبيب الساحر هو البطل ، وينظر إليه كذلك فعلاً فى الحياة الإفريقية . وقد تم تصحيح أحد الأخطاء للإدارة الأوروبية فى إفريقيا فى هذا المضمار . كان القصد مفهوماً . فالسحر مصدر رعب وخوف كبيرين . كما أن له اتصالاً بطريق ما بالأطباء السحرة . « امح الأطباء السحرة فربما يمكن محو هذه الخزعبلات الملعونة مع رموس الأهالى » .

ومن العسير التفكير فى سخافة مشابهة فى مدنيّتنا . ولكن ربما يمكن

مقارنتها بإلغاء قوات الأمن في حربنا للجريمة أو بعقاب الأطباء النفسيين في محاولتنا مقاومة الأمراض العقلية . إن لوم الأطباء السحرة على السحر بمائل لوم جوناس سولك على شلل الأطفال .

وبالرغم من هذا فإن قوانين العقوبات التي أصدرتها إدارة الاحتلال مملوءة بالمواد التي تعاقب بالحبس كل من يتهم أو يهدد باتهام أشخاص بأنهم سحرة أو بأن لهم قوة سحرية . وواضح أن الغرض هو حماية الأشخاص الأبرياء من نسخة (مكارثية) إفريقية . ولكن من وجهة نظر الإفريقيين الذين يؤمنون بشروق السحر ، والذين يعانون فعلاً منه سواء أكان وهمياً أم لا ، لا يوجد أى شيء أكثر تغفيلاً من عقاب الأبطال الشعبيين الذين يقضون عليه .

والتفكير في هذا قد يساعد بعضنا ممن يجد صعوبة في تفهم سير عقلية بعض الأمريكيين ، أعني هؤلاء المعارضين جداً للشيوعية ، الذين يستشيطون غضباً من القوانين والمبادئ الدستورية التي يلوح أنها تحمي أولئك الذين يرغبون في « فضحهم » . إنني لا أعني بهذا مقارنة بغيضة ، ولكن وسيلة التفكير هي التي تهمني . إذا كنت تؤمن بقوة كافية في ضرورة معارضة شيء (كما يفعل معظم الإفريقيين إزاء السحر وبعض الأمريكيين إزاء الشيوعية الوطنية) ، وإذا كنت تعتقد أن هذا الشيء خطر حقيقي حالّ وكبير (كما يفعل معظم الإفريقيين إزاء السحر وبعض الأمريكيين إزاء الشيوعية الوطنية) فعندئذ يكون معقولاً أنك لا ترى سوى سخافة في تقييد الطبيب الساحر من جهة وأعمال المحققين غير الأمريكية من جهة أخرى . يجب أن نفهم أن السحر ينظر إليه من كل شخص تقريباً في إفريقيا على أنه قوة شريرة هدامة . وعمل الطبيب الساحر إذاً ، سواء أكان عالم نبات أم كاهناً أم قسيساً ، هو عمل يستحق التمجيد . وقد وجدت أن هذا لا يقل صدقاً في البلدان أو المدن التي ليست بها قبائل عنه في قلب أرض الثقافة الإفريقية القبلية القديمة ، وهي القرى . إن إحدى

الظواهر الغريبة جداً في الساحرات أن قواهن يعتقد أنها تزول بمجرد أن يكتشف أمرهن ، على أنه يلزم شخص أكثر قدرة من الساحرة ليتمكن من كشف القناع عنها . ويسود الاعتقاد أن الشخص الأقل قوة الذي يحاول كشف ساحرة يصاب بكارثة محققة . وقد كتبت الدكتوراة فيلد « أن مواطني الساحرة يأخذونها إلى كاشف الساحرات كمشتبه فيها فقط ، أما الاتهام الفعلي والفضح فتروك له ، وحتى لا يعرض هو نفسه للمجازفة ، ولكنه يتبع فضحها بإجبارها على أداء حفل إنكار وتطهير » .

وقد أصبح قتل الساحرات عملاً غير قانوني منذ مدة طويلة ، كما أعلن وزير داخلية تنجانيقا جورج كاهاام : « يجب أن أذكر الجميع أن السحر عمل غير قانوني مهما كان الغرض منه ، ومن التخلص من الساحرات الأخريات » . وعليه فإن الساحرات لا يتخلصن منهن . ولكن ليس من غير العادي أن تفرض عليهن غرامة أو يعاقبن بالضرب ، ولكن الضاربين هم أهل قريتين وليس الأطباء السحرة . إن إذلال ساحرة يهدم مركزها الاجتماعي تماماً . وهنا يتدخل الطبيب الساحر كشاف للروح . وتتفاوت وصفات الطبيب الساحر تفاوتاً كبيراً . ولكنها عادة تتضمن اعترافاً كاملاً وطقوساً تطهيرية وتماثماً لشفاء ضحايا الساحرة . وتبدو ذروة الحالة النفسية في إعلان أن المدانة الذليلة لم تعد ساحرة ، وأن الأرواح الشريرة في نفسها قد هزمت .

أبدو عجباً إذاً أن يعدّ الرجل الذي يباشر هذه الطقوس الخاصة بالندم والشفاء ، الرجل الذي تفوق قواه قوى شياطين الساحرة ، مارداً في صمود ؟

ولا تقتصر واجبات هذه الشخصية القديرة على شفاء الساحرات المعترفات ، بل يلتجئ إليه أيضاً الأشخاص الذين ترتعد فرائصهم من الخوف بأنهم قد يتحولون إلى سحرة . إن أعصابهم لتضطرب وأجسادهم تمرض . وهم حذات للطبيب الساحر أشق في معالجتها من هؤلاء المقتنعين بأنهم سحرة فعلاً .

ومثل هؤلاء التعساء يلجأون إلى الأطباء الأوربيين ، أو إلى أطباء إفريقيين تعلموا في أوربا ، وكثيراً ما يتم فحصهم ويقال لهم إنه لا يوجد أى خطأ بأجسامهم ثم يرسلون إلى منازلهم لتزداد حالتهم سوءاً .

وقد لاحظت الدكتورة فيلد حالات كثيرة من هذا النوع ، وسجلت بعض حالات شفاء مثيرة للدهشة تمت على يد الأطباء السحرة . فهي تقص مثلاً حالة فلاح الكاكاو الذى كان صورة مجسدة للبؤس المطارد ، وقد بدأ مرضه بالأرق وتخلل أحلامه كابوس مرعب كانت فيه روحه تنجر إلى اجتماع للساحرات ، وابتدأت قوة إبصاره تضعف وطلت في رأسه أصوات الساحرات ، وكانت معدته قد تحطمت من الألم ، وظهرت بها آثار الجروح حيث حدثت قطوع لإخراج المرض .

وفي يأس سافر أخيراً في عربة نقل الكاكاو كل المسافة إلى « أكرا » ليرى طبيباً قد تعلم في أوربا ، وقد قال الطبيب له إنه لا يرى أى مرض عضوى في جسده .

وحينما رآته الدكتورة فيلد لأول مرة كانت الساحرات اللاتي في عائلته قد تم اكتشافهن . وقد أقسمن على عدم التعرض له . وكان يعيش مع الطبيب الساحر وقد تم استرداده لبصره .

وتقول الدكتورة فيلد : « كان لا يزال بانسا ومتعباً ، يجلس على الأرض ويخشى أن يبتعد عن الطبيب الساحر . ولكن في حضور الطبيب الساحر كان لديه شعور بالأمان ، والاعتقاد بأنه سوف يتم إنقاذه . وقد مكث مع الطبيب قرابة عام ، ورويداً اكتسى لحمًا ، وفقد نظرة الذهول ، كما ابتدأ يجرؤ على الخروج بمفرده . وفي النهاية كان مخلوقاً مختلفاً ، وتكونت لديه روح الدعابة وامتلاً حيوية وثرثرة ، ثم ذهب إلى منزله بعد شفاؤه تماماً وثقته الكاملة في الاستمرار هكذا .

إنه ليس من المستغرب بعد عمق تجربة الدكتورة فيلد أن تشهد باقتناعها الشخصى بأن طبيباً ساحراً خبيراً يستطيع التعرف على ساحرة حينما يراها ،

وأنه يستطيع أن يقرر عما إذا كان المرض عادياً أو من فعل السحر .
 و يترجم هذا إلى تعبيرات أوربية بأنه يستطيع أن يقرر ما إذا كان الشخص
 مصاباً باضطراب عقدي أو أن المرض عصبي أو جسماني . وهو يستطيع
 أن يشفى ، ويشفى فعلاً .

ولا شك أن من الأطباء السحرة مهرجين وأنذالا في بعض الأحيان ، ولكن
 من المؤكد أيضاً وجود المهرجين والأنذال في مهنتنا الطبية . هذا إذا تركنا جاناً
 جيش قارئ الفنجان ، والبخت ، والوسطاء ، واليوجي . والمهن « الشافية » الأخرى
 التي يذهب إليها الآلاف بل الملايين منا ، كالحراف تقاد إلى المذبح . ولكن
 من المؤكد أيضاً أن هنالك أطباء سحرة ليسوا مدعين . ويؤمنون بقواهم
 وبأدويتهم ، ويقومون بأداء مهمتهم بإخلاص في تطهير وشفاء الذين يخشون
 أن يصبحوا سحرة وشفاء أولئك الذين يعتقدون أنهم قد سحروا .

إن تدريب الطبيب الساحر بعيد كل البعد عن أن يكون أمراً يسيراً
 كما يقرر الدكتور إيفانز بريتشارد في دراسته عن قبيلة الأزاند . إنه يبدأ
 بفترة شاقة تحت التمرين ، تتبعها فترة ممارسة لا تقل عنها مشقة ، وإن
 إدراجه في مصاف مهنته كممارس تام التمرين لا يقل مهابة ، وإن كان أكثر
 تلاوياً . من الطقوس والإجراءات الرسمية الحمراء المتبعة في الاعتراف بالطبيب
 الغربي كممارس مرخص له .

وليس السحر هو اهتمامه الوحيد . إن من عادة الإفريقيين أن يرجعوا
 كل الأمراض إلى أسباب روحية ، وأن يبحثوا عن سبب وعلاج روحيين
 لها . وينتقد الجميع المستشفيات التي على نمط أوربي وكذلك مهنة الطب
 في إفريقيا . على أساس أنها جافة ، وغير إنسانية ، وتحمل هذه الناحية من
 الأمراض . ومن المؤكد أن هذه الاتجاهات لا تعدل غير معروفة في الغرب ،
 ولكن في إفريقيا تعدل مجرد فكرة شفاء الإنسانية المعذبة فكرة روحية ، ويعد
 الطبيب الساحر أولاً وأخيراً رجلاً روحياً .

ويتكلم الطبيب النفساني « ولف ساتش » في دراسته للطبيب الساحر جون

شافا فامبيرا ، عن مقدرته الفائقة في التقرب والاتصال بالإفريقيين الموجودين في مستشفى الأمراض العقلية بجوهانسبرج . ويقول الدكتور : « يجب أن أعترف أنه بوسيلته في التقرب يستخرج من المجانين ثروة من المعلومات أكثر مما فعلت .

إن معظم المرضى لم يسلموا أنفسهم لأسئلته فحسب ، ولكنهم نظروا إلى مجهوداته باطمئنان وثقة . فجون ، بعظامه وقرونيه ووصفاته السحرية وتماثمه كان يعنى لهم رجل الطب الحقيقي . وإنى لأعجب عما إذا لم يكن من المستحسن ، من الناحية النفسية ، أن تستعمل نجانباس « الطبيب الساحر » في معالجتنا للأهالي المجانين . إننا لن نفقد شيئاً على أى حال إذ أن وسائلنا قد أخفقت تماماً .

وكما سبق أن قررت ، أصدرت حكومات الاستعمار الأوروبية بحماس تشريعات كثيرة ضد السحر والأطباء السحرة ، وهم بفعلهم هذا قد أعاقوا وطاردوا الطبيب الساحر ، واكتسبوا احتقار وسخرية الإفريقيين الذين أصبحوا الآن — مع الاستقلال — في مركز يسمح لهم بوضع نظمهم الخاصة . ما هو مستقبل السحر والأطباء السحرة في إفريقيا الجديدة ؟

يمكن التوصل إلى معرفة الاتجاه من مقالة ظهرت حديثاً في مجلة « قائد غرب إفريقيا » تطالب بتأميم السحر .

« أمموا السحر » .

لقد آن الأوان الآن لتأميم السحر في نيجيريا . إننا يجب أن نفعل ذلك حتى نضع حداً للدمار المقيم الذي يتلاعب بالإنسان منذ قرون .

دعوني أقرر فوراً أن السحر في أيدي أشخاص متمدينين منحة إلهية ، ولكنه أداة شيطانية في أيدي الجهلة . إنه يشابه المبضع في يد جراح أو الخنجر في يد سفاح مجنون .

ويجب أن يلاحظ أنه في البلاد المتمدينة قد أمموا السحر كعامل من عوامل التقدم العلمي . وأقيمت معامل وطنية للنهوض بالبحوث عنه ولهذا

اعتبرت الدول المتمدينة ، كبيرة أو صغيرة ، من القوى العالمية . ولن نستطيع أن نكون قوة عالمية إذا تجاهلنا هذه الحقيقة .

ولنجعل استقلالنا يستأهل الاسم . أقترح أن تكون لجنة تحددتها الحكومة الاتحادية أو أى من مصالحها ، لأخذ الأدلة التصويرية من المناطق المناسبة . لأنه بهذا العمل يتعلق أملنا في دفاع وطني » .

وقيمة المقالة من الناحية الأدبية تكاد تنعدم ، ولكن ما يقترحه المحرر يستحق التحقيق . إنه يقول إن السحر ، والنشاط المضاد له ، يخدمان غرضاً حقيقياً في الحياة الإفريقية . وفي الواقع أنهما يخدمان أغراضاً تتابعها الدول المتمدينة بواسطة بحوث علمية واسعة النطاق في مجالات علم النفس والمستشفيات والمعامل .

ويتسلط الخوف على هذه المملكة في إفريقيا ، أولاً نظراً لطبيعة السحر الخادعة ، وثانياً لوجود بعض الغش في ممارسة بعض الأطباء والسحرة ووكالات البحث عن الساحرات . ولكن السحر يبقى قبضته على عقول الأشخاص لأنه يعمل في نطاق روحى يفهمه الإفريقيون ويؤمنون به . وفي أيام الاستعمار الماضية لم تكن هنالك محاولات للتحقق من هذا أو فهمه (فيما عدا فئة قليلة من علماء السلالات البشرية) ، والقوانين الحكومية - التي هدفت منع الاتهامات غير العادلة الموجهة ضد أشخاص أبرياء كان غرضاً شريفاً وإن ضلت قيادتها - لم تلق رضاء من الشعب ، كما أنها لم تفعل سوى القليل ، إن كانت قد فعلت شيئاً ، لتغيير الاعتمادات في السحر . عاجلت العوارض وتركت الأسباب .

إن المعرفة هي ما نحتاج إليه : تفهم الأسباب التي تطور فيها الإيمان بالعرافة والسحر والطرق المؤدية لعلاج الأمراض الاجتماعية التي تعكسها ، لبتزها .

ويجب إيجاد وسائل لإحلال مقدمات جديدة ونيرة محل الرعب المتمثل في السحر . ولكن يجب أن يتم هذا بشروط إفريقية وتقدير كامل للجذور

العميقة للتعارفات الروحية الإفريقية ، وإلا فإن الظروف الاجتماعية غير المتزنة للحياة الإفريقية الحديثة يغلب أن تقوى الشرور المرتبطة بالسحر بدلا من أن تضعفها . ويجب أن نتناول الموضوع من وجهة نظر شخصية وعلمية - ووطنية :

وهذه ليست طريقة « اقتلعها من جذورها » التي تفرضها الحكومات الاستعمارية المسيحية ولا هي نصيحة ، « دعها وحدها » التي يقول بها بعض علماء السلالات البشرية والإرساليات ، إن الاعتقاد في السحر ينتج ويحلل المخاوف والتوترات في الحياة الإفريقية . إن الخوف والتوتر هما اللذان يجلب فهما أولا ، وكما يقترح السيد محرر جريدة « قائد غرب إفريقيا » أن هذا مشروع من الضخامة بحيث يلزم لتبنيه تكوين لجنة من حكومة اتحاد نيجيريا على الأقل .

وبالرغم من السخافات التي تكتبها المجلات والجرائد في الغرب عن التطبيب الإفريقي للسحر ، فإنه يندر أن يسخر طبيب غربي ، مارس المهنة لمدة طويلة بين الإفريقيين ، من وسائل الشفاء الإفريقية . وبدلا من هذا فإن هنالك تقديراً متزايداً يضاف فاعلية على بعض أنواع العلاج التي يمارسها الأطباء السحرة . وتجهد معامل الأدوية في أوروبا وأمريكا نفسها منذ مدة لتحليل بعض النباتات الطبية الإفريقية التي أرسلها إليهم أطباء وصيادلة تأثروا بفائدتها .

إن التنازع المريب بين الأطباء المبشرين والأطباء السحرة أصبح موضوعاً شعبياً مفضلاً في القصص القصيرة والروايات . وهذا التنازع ، حتى حديثاً كان صحيحاً ، ولكن هناك مجهودات كبيرة للتحقق من أن التشخيص بواسطة الطبيب الساحر أساسه الناحية الروحية . وهو بالنسبة للطبيب الغربي ينحصر أساساً في محاولة تعرف أسباب جسمانية يقدم عليها دليل علمي . ويساير هذا الآن في الطب الغربي تقدير عام للناحية النفسية - الإحساس ، والشعور ، وعامل الروح ، في المرض . وفي الوقت نفسه تأثر الأطباء السحرة ، وإن يكونوا

مضطربين ، بالنجاح الذى يلاقيه زملاؤهم الغربيون ، وبالتدريج ، ومع
انقضاء من الحماس يتقابل الطرفان ليتعلم كل منهم من صاحبه .
إن الكثير من أعشاب الأطباء والسحرة ما زال تحت الفحص ولم تصل
إلا إلى تفسيرات ضئيلة عن أسباب فاعليتها . ومن أكثر هذه الأعشاب مدعاة
للعجب ، تلك التى تسبب إدرار اللبن البشرى . وقد كتب الدكتور كوادجوبتا كوه ،
وهو طبيب إفريقى تعلم فى أوربا ، رسالة الدكتوراه عن الأطباء السحرة فى
إفريقيا الغربية ، وهو يصف كيف أنه ينتظر من الجدة أن تقوم بإرضاع
طفل إذا ماتت الأم فى مولده . إنها تبدأ أولاً بنظام غذائى غنى من حساء
العسل والكبد والكلية ، وضرة الماعز والمخاضى . وفى فترات منقطعة خلال اليوم ،
تقوم بتغذية نفسها على نبات الكسافا النيء والفلو السودانى الطازج والشعير
وبذور من شجيرات القطن أو الباباز ، وتلك ثديها بانتظام بهذه النباتات
نفسها .

وفى وقت قصير جداً تكون الجدة مستعدة لإرضاع حفيدها . على أنه خلافاً
للعادة فى إفريقيا ، يقطع الطفل فى أسرع وقت ممكن ، ليس لأن اللبن يجف
ولكن لارتفاع تكاليف تغذية المرأة .

وقد ذهبت الآن سرعة ميل الأطباء الغربيين إلى الاستهزاء بتأثير مثل
نظام التغذية والتدليك السحري هذا إدراراً للبن ، والانتقاص من قيم الكثير
من أمثال هذه العلاجات الإفريقية . ولم يحدث تقادم مذكور لتحديد
السبب الذى من أجله تحدث هذه التأثيرات من الأدوية الإفريقية والطب
الإفريقى ، ولكن السخرية القديمة حل محلها نظرة أكثر تواضعاً وصبراً بغية
المعرفة . ويفسر الدكتور بال ، من المتحف البشرى بباريس ، هذه الظاهرة
بقوله : « كنا فى الماضى نقوم بتحليل نبات يستعمله الإفريقيون بدون أن
نستطيع أن نجد له أية قيمة طبية أو غذائية . فمثلاً بتحليل نبات الكسافا ،
انضح أن قيمته الغذائية ضئيلة جداً ، واستنتجنا من هذا أن الإفريقيين
إنما يستعملونه بكثرة نظراً لسهولة زراعته . ولكن حينما قررنا أن نعيد تحليله

مرة أخرى بعد غمسه في ماء تقارب حرارته مياه فروع الأنهار الإفريقية ،
 ظهرت لنا أنواع غذاء لم يكن لوجودها حتى مجرد الإشارة في التحليل الأول .
 إن التحليل يكون له مفعول فقط عند محاكاة الظروف في إفريقيا تماماً .
 وبهذا ، ومع تحسين طرقنا في التحليل نكشف قيماً جديدة في نباتات كنا
 حتى هذا الوقت نسخر منها .

إنه من العسير جداً أن نتوقع من العلماء الغربيين الذين يتبعون ميل هذه
 الطريقة حيال الأعشاب الإفريقية أن يكونوا متسعي التفكير أيضاً عن
 الخصائص الشفائية للأضحية ، والرقيات السحرية ، والرقص ، والعزائم . فهناك
 براهين كثيرة عن إخفاق الأطباء السحرة في التغلب على أمراض الجذام والملاريا
 ومرض النوم بوسائهم السحرية . ولكن هنالك أكثر من بصيص من الحكمة
 في مقالة الدكتور بال بوجوب محاكاة الظروف في إفريقيا لإمكان تفهم
 الخصائص الشفائية للأدوية الإفريقية .

وهؤلاء الذين يسخرون من الأساس الروحي للحياة الإفريقية لا يستطيعون
 إصلاح معتقداتها السحرية ولا الممارسات الطبية بها . فبينما الأطباء السحرة
 الإفريقيون يزدادون اعترافاً بأن الطب الغربي فعال وصالح ، إذا هم
 لا يزالون يشكون جداً في قدرة الأطباء الغربيين على التصدي لنفسيات المرضى .
 ولبعض الوقت في المستقبل في الحياة الإفريقية العادية ، سوف يعبر هذا
 الاهتمام بروح المريض عن نفسه بالطرق التقليدية المعتادة للسحرة ، بالتضحية
 والتأثم والتعويذ وغيرها . ولكن دعنا نتذكر أن هذه الوسائل إن كانت
 ممقوتة من وجهة النظر المعاصرة فإنها طرق معتادة ومجربة في وضع القوة
 المنتجة « للكلمة » تحت إمرة الرجل . (نومو) قوة الحياة التي تنتج عنها كل
 الحياة ، وكل الأمراض ، وكل الصحة ، وكل الشر ، وكل الخير في صيغة « الكلمة » .
 وبما أن الإنسان له الساطة على « الكلمة » فهو الذي يمكنه أن يوجه قوة الحياة .
 إن نفوذ وجهة النظر هذه ، من تقدير أسباب وعلاجات كل مصائب
 وأمراض الحياة ، من النادر أن يفهمها سوى من نشأ في مجتمع يؤمن بها .

إن العرافة والسحر والكهانة والتطبيب بالسحر ، ليست مجرد شعوذة أو أباطيل ، إنها وسائل إفريقية التقليدية لإيجاد فاسفة في الحياة ، وتطبيقها لتساير الحياة اليومية . إن النظام التقائدي قد داخله الاختلاط الآن ، وفي المدى الطويل لامشاحة في أن معظم ممارساته القديمة مقضى عليه نهائياً ، أما ما سوف يبقى ، بل ما يجب أن يبقى ، إذا لم يكن في النية القضاء على الروح الإفريقية ، فهو الإيمان القوى بأن الإنسان في استطاعته السيطرة على قوى الحياة وتسييرها ، سواء في الشر أو الخير ، وأنه يستطيع من خلال سيطرته على « الكلمة » أن يحقق معنى الحياة وأغراضها .

أما كيف يمكن ترجمة هذه الفلسفة ، وإخراجها من حيز العرافة والسحر إلى شيء يمكنه أن يضم ويفوق العلم الغربي ، فإنه موضوع هائل ما زال مجهولاً إلى الآن ، كما أنه لا تزال مجالا للأبحاث في إفريقيا اليوم ، تماماً كما قال محرر جريدة « قائد غرب إفريقيا » إن الروح التي تدفع إلى تفسير الشر وتخفيف الآلام ، ومواساة الحياة البشرية هي « بروميتوس »^(١) المختزنة في جعبات إفريقيا المحففة المليئة بالسحر والخرافات .

إنه كان مونتاني الذي قال : « إن كل إنسان يطلق لفظ البربرية على ما لم يعتده » ، وقد كتب برونيسلاو لينوفسكى « إذا نظرنا من عليائنا الآمن في مدينتنا المتطورة فإنه من اليسير أن نرى سخافة السحر وعدم ملاعته » .

ويزداد عدد الأفريقيين أنفسهم الذين ينظرون من عليائهم إلى ماضيهم ويتحيرون في فلسفة مجتمعاتهم الحديثة الناهضة . وقد كتب أساناسيك ، السنغالي والمخاضر في الجغرافيا في جامعة داكار : ربما كانت إفريقيا السوداء — من بين المناطق المتخلفة التي لم تتطور — هي الوحيدة التي كانت مدينتها قليلة الإشراف ونحو معرفة هادفة للعالم ونحو اكتساب قوة مادية . لقد ترك الإفريقيون كل محاولات لاكتشاف قوانين الطبيعة والسيطرة على المادة ،

(١) بروميتوس هو الذي سرق النار من الآلهة فبما نقول الأساطير الإغريقية .

وبدلاً من ذلك حاولوا اكتشاف الروح في كل كائن أوشىء حتى يتمكن الإنسان من التحرك في العالم طبقاً لنظمه الداخلية . « إن وجهة النظر هذه في العلاقات بين الإنسان والعالم المحيط به قد تنتج عنها طريقة من الحياة خالية من كل مبدأ دافع قوى حتى إنها قريبة جداً من مجرد التوازن ، ولو أنها قد سمحت بالمحافظة على الجنس الأسود ومدنيته على الرغم من ضعفه من الناحية الفنية . وهذا الافتقار إلى القوة المادية يساعدنا على أن نفهم إلى أى مدى كانت سهولة نشأة الاستعمار في إفريقيا .

وبمعنى آخر أن العالم الإفريقي التقليدي كان غريباً عن نوع مجتمعنا الدنيوى ، وفريسة سهلة في يد قواه المادية المتفوقة . إن اهتمام إفريقيا « بالنظام الداخلى » للحياة « وبالروح في كل كائن أوشىء » ، قد ساعد إلى أقصى حد على الاحتفاظ بالأوضاع متوازنة ، ومقاومة كل تغيير .

وإني أتذكر الوصف البسيط الواضح الذى قاله أحد زعماء يوروبا « أو . ديبلانو » عن إيساكو وهو حفل جناز المتوفى ، بين شعبه : « إن احتفالات الإيساكو لا تبدأ إلا في ساعة متأخرة من الليل . وقد يكون المتوفى عجوزاً ، رجلاً أو امرأة ، ويحدد السن بما إذا كان الميت جدياً أم لا ، أو كان له ولد في سن الزواج قادر على إجراء الطقوس المتعاقبة بجنازة والده أم لا .

والشخص المتوفى في حالة بعثه أو يوم الإيساكو يظهر بمظهر الرجل السعيد ، وهذا الموقف إنما يقنع أقرباءه بأن الموت ما هو إلا مجرد ممر إلى العالم الأبدى العظيم . وفي أثناء حياة الشخص المسن يقوم المسئولون عن الاحتفالات الخاصة بجنازته بإعداد أشياء كثيرة . هم يتمرنون خفية على طريقة سير وحركات وخصائص الرجل العجوز ، ويقاربه جدياً الرجل الذى سوف يقوم بتقليده يوم البعث .

وفي يوم « الإيساكو » يخرج الميت في اللباس الذى كان معروفاً به حال حياته حتى يقتنع الناس أنه — الرجل الميت — قد عاد إلى الدنيا لدقائق

قليلة لينهى أعماله . وإذا كان الشخص الذى يقلد شخصيته قد تمرن بدرجة كافية فقد يمثل دور الرجل المتوفى لدرجة أن كل الجماعة تنفجر فى البكاء لدى ظهوره . إنه يظهر بغتة من اتجاه غير متوقع ، ويبدأ هؤلاء الذين كانوا ينتظرون ملاقاته لآخر مرة بارتجال أغنية فى مدحه ذاكرته بأعماله الطيبة خلال حياته على الأرض . وهذه المناسبة كان لها قبل ذلك تأثير على أكثر من رجل عجوز حينما يتذكر أن هنالك يوماً سوف يحاسب فيه ، ولن يكون له حق الشرح ، وأن إدانته قد تكون مصدر عار لأولاده . فالأغاني فى يوم الإيساكو كما قد تكون مدحاً قد تكون إدانة .

وإن الأثر الحتمى لحفلات « الإيساكو » كما وصفها برقة الزعيم ديلانو ، هو المحافظة على التوازن والاستمرار غير المتقطع والجوهر غير المتغير لطريقة ثابتة ومستقرة فى المعيشة . ولا يقل الزعيم إدراكاً عن كثيرين غيره فى أن الطرق القديمة مسئولة عن افتقاد إفريقيا للقوة المادية ، والتقدم فى العلوم والفنون التى هى بدورها علة ما وصفه رئيس الوزراء « نهرو » كمأساة إفريقيا الأليمة خلال القرون القليلة الماضية ، ومع هذا أضاف الزعيم بحصافة « إننى أعتقد أن ثقافة يوروبا » لها قيم كثيرة قد تطورت خلال مر القرون ، ولا أود أن ننساها أو نتجاهلها . وبالرغم من أن كثيراً من العادات والتقاليد قد عني عليه الزمن ، فإن هنالك بعض الخصائص الرئيسية التى أعتقد أن فى إمكانها أن تسهم بصورة قاطعة فى الثقافة البشرية . لست أود فقط أن نحفظ بها ، بل أيضاً أن نوضع فى وقتنا هذا ، فى مقدمة أطماعنا للمستقبل .

وربما لم يدر بنخلد الزعيم أن أحد منتجات إفريقيا ، فى لقاءها المحموم مع ما فوق الطبيعة ، قد بدأ فعلاً ينتشر كوحى للغرب : النحت . حينما تحول « واتيس » من حانوت إلى آخر فى مونبارناس وهو يلتقط تماثيل لقاء بضعة فرنكات لكل تميمة ، لم يكن يخطر فى باله إطلاقاً أنه كان مكتشف الفن الإفريقى . إنه هو وأضرابه ، بيكاسو ويراك وديران — أحبوا الجوجو

لأنه كان إهانة للفن التقليدى — كان شيئاً يلوح به ليسخروا من عبدة الأشكال التقليدية .

إن العبقرية القيدة للنحاتين الإفريقيين — بالنسبة لهؤلاء التأثيرين المجددين الفرنسيين على الأقل — كانت وسيلة هزتهم من الواقعى « هنا كان جمال لا يأبه مقدار ذرة لمحاكاة أشكال الطبيعة . فالنحاتون الإفريقيون خالقون بالمعنى ، كانوا أحراراً كما كان كوجان وسيزان وفان جوخ أحراراً . أو هكذا ظن المجددون التأثيرون . وقليل ما أدركوا أن اكتشافهم من ناحية أخرى يستحسن مقارنته مع الفن الدينى فى القرون الوسطى وليس مع الفن الحديث المنشأ . ومع هذا فالنحت الإفريقى قد ساعد فعلاً فى تطوير الفن فى قارتين إذ قام مؤيدوه الغربيون بانقلاب ساخر .

ووصلت القعقعة إلى موطنها ، وعلم الإفريقيون لأول مرة أن لهم فنناً . وكانت أخباراً مثيرة للنحات الإفريقى أن يعلم أنه كان فناناً . فالتجمع القبلى لا يعرف شيئاً عن الفن فالفكرة أوربية ولغة المتعلمين الذين حاولوا أن يعموا مع الشعور بالجمال فى لسان القبائل ، اتضح لهم أنه يمتزج بكلمات أخرى ، مثل الخير والمصير والكفاءة مما يسبب الارتباك ، لم يكن النحات الإفريقى يحاول أن يخلق الجمال ، وإنما حاول الاتصال بالأرواح لكى يمنعهم من فعل الشر ، ولكى يكتسب ودهم ومساعدتهم ، ولكى يتناسق مع نغم الحياة . وليدفع رعب المجهول . إن ما رآه الغربيون فى تمثال بوكونجو هو عمل فنى . أما ما رآه النحات الإفريقى فهو موضوع عبادة ، فكل نتاج من يديه وآلاته إنما هو جزء من عالمه الروحى المحيط به . شىء مقدس لدور مقدس يقوم به ، وعاء « لنومو » . إننا من عليائنا الآمن فى أحضان المدنية المتقدمة ، ننظر باحتقار إلى قناع بازمونج من الكرنجو ، ونحن إذا كنا مخلصين للمنازل التى اعتدناها ، يلزم أن نقول إن هذا مجرد سحر سخييف غير مقبول » — وذلك لأن ما يمثله القناع للقروى الذى نحتته هو تجسد ملحمة مرعبة بين قوى ما فوق الطبيعة ،

حينما تكلم الزعيم ديبلانو عن الرجل الذى يقوم بمحاكاة شخصية المتوفى فى احتفال « إيساكو » ، لاحظ مدى الواقعية فى التمثيل . ولكن الواقعية رمزية أكثر منها تشخيصية ، كما هى دائماً فى النحت الإفريقى . إننا نريد طابعاً وصفيّاً ، ولهذا نقول إن الفن الإفريقى « تعبيرى » ولكن لكى تنجسد روح الميت لا يلزم للشخص فى إيساكو ، ولا للمثال الإفريقى أن يصور بدقة ملامح وجهه فى حفلة « الإيساكو » . قد تلاحظ بعض المظاهر الخاصة ، كالملابس والمشية وربما تظهر فى القناع أيضاً ميزة غالبية ، الأنف أو الشفتين ، ولكن الباقى لا داعى لأن يشابه الشكل البشرى . فلا يوجد أى إسراف أو زخرف . إن الغرض المقدس هو استدعاء الجواهر فقط ، القوة الحيوية . النظام الباطنى .

على أن هنالك شيئاً آخر فى الفن الإفريقى يستميل الغربين الذين خنقهم مدنهم بأسفلتها وصلبها . ألا وهو نزعتة الدنيوية الشهوانية . حينما يبدأ الأطباء وضاربو الدفوف يوقعون على آلاتهم ، فإن الدماء التى تتدفق فى العروق البشرية تتجاوب بنغم خاص بها . وتثير أقدام الراقصين التى تدق الأرض أكثر من مجرد غبار ، ويتضمن النحت الإفريقى بطريقة ما نفس هذه الدنيوية ، ليس فقط فى أشكاله ومواده ، ولكن فى المشاركة البدنية . وليس الفنانون الإفريقيون فئة مهملة ، تخدم نظارة ومتفرجين . إذ يلاحظ الأستاذ مارسيل جريول فى دراسته عن الفن الإفريقى أن مهارة الصناعة تعد جزءاً من الحياة القبائية لا يحام أحد بمجانبتها . وتاماً كما يقوم الرجل بالصيد فهو أيضاً يقوم بالنحت ، والرسم ، وبالنقش والزخرفة . والرقص والإيقاع على آلة موسيقية . وقد يتفوق بعضهم على بعض آخر طبعاً . ويفخر القرويون بأحسن راقصهم وطبالهم ، وقصاصيهم ونحاتيهم ، ولكنها مسألة درجة وليست تفرقة . وقد وصف لى المغنى الذى كان فى « أو أوماما » على أنه الأحسن فى كل أرض إيبو ، ولكن شهرته لم تنبع من الابتكار ، ولاهى كذلك فى أى نوع من الفنون الإفريقية التقليدية ، وهنا المقصد . لم يكن هنالك فى الرب والله وجود

الحياة الإفريقية القديمة أى تكريم فنى للابتكار ، وإنما هدف الجميع كان الحفاظ بأمانة على نفس طرق الماضى .

ففى حين منح اكتشاف الفن الإفريقى الغرب هدية ثمينة من الحرية المبتكرة ، فإنه يجب الحكم عليه فى أرضه كقطعة أخرى من عالم خامد . خلال سحره المسيطر ، تمت مساعدة جنس ومدنية على البقاء ، لكن الآن بين الباقيين من هذا الجنس يتزايد عدد القلقين والطموحين ، وهم ينظرون حوالهم ليروا فى كل مكان أن عالم إفريقيا القديم المقدس يلفظ أنفاسه الأخيرة . وأن عالماً دنيوياً جديداً يكافح ليولد . وظهر نقص العالم القديم فى تطور شخصية إفريقيا الجديدة .

ولعل أحد المظاهر الغربية فى مصير الفن الدينى الإفريقى ، أن الهداية الدينية الحديثة قد أصابته إصابة مميتة . وفيما عدا بعض المناطق النائية جداً والبعيدة عن العمران ، فإن الفن الإفريقى فى تدهور لأنه لم يكن دنيوياً ، إن وحيه كان يعتمد على نظام (فوق الطبيعة) المغلق حيث لا مكان ولا موجب لبديل ، وفى هذا النظام المغلق جاء الإسلام المحطم للأصنام ، كما جاءت المسيحية التى لا مهادة بينها وبين طقوس الوثنية . فحينما ألقت بذور الشك فى الآلهة ، ذهبت الشعلة من تعبيرات الفن الإفريقى . فن بين أصدقائنا القدامى ، الكالابارى مثلاً ، يقنع رجال كثيرون الآن ، على عكس الماضى ، بالمساهمة فى حفلات القرية . ببعض المال الذى يستطيع الكهنة ونوابهم أن يستعملوه لتقديم القرابين إلى الآلهة فى حين أنهم يقبعون فى أعمالهم بالمدينة أو مخيمات الصيد البعيدة .

ولكن الهبوط بالفن الإفريقى إلى مستوى الصناعة السياحية لا يقع عبؤه كله على عاتق الإسلام والمسيحية فقط ، بل إن هنالك أكثر من هذا بكثير ، إذ أن الإغراء بالانحناء لعبادة قوة عالم الرجل الأبيض المادية كان لا يقاوم . وكما كتب « توماس ديوب » : « لا حاجة بنا إلى الخوض فى التفاصيل

المرعبة لهذا الذل الطويل الأمد . إن هذه المأساة تضمنت الاختفاء الطويل للشخصية الإفريقية ، وهبطت بالإفريقي إلى درجة رجل أدنى ، رجل مستهزأ به . كيف حدث إذاً أن إفريقيا خلال سنوات قلائل قد خطت هذه الخطوات العملاقة نحو الحرية ؟ ويجيب ديوب « بدأت إفريقيا في تعلم دروس جديدة في مدرسة الحياة القاسية ، لقد أعادت اكتشاف شخصيتها العميقة وحاولت أن تعيد تشكيلها ، لكي تواجه مطالب الحياة كما رأتها خلال تجاربها الأليمة ، وفي الواقع كان هنالك (توافق) في راحة إفريقيا الروحية المؤلمة خلال العبودية » . ومن كلمات ديوب :

« وقد لاحظت إفريقيا — بالتفكير المستمر في مصيرها — أن سبب وقوعها في وقت معين من تاريخها فريسة لقوة أعلى في إهلاك الحياة البشرية . هو أنها خلال المراحل الأولى لتطورها المنعزل ، لم يكن يخطر في خيالها إطلاقاً أنه قد يوجد أى سبب لأن تهتم بتطوير فن القتل والإبادة إلى مثل هذه الدرجة من الكمال . ولو كان الغرض منه مجرد الحفاظ على سلامة الفرد الشخصية فقط » .

واستتباعاً لتفكيرهم في طبيعة ومظهر المأساة المتناهية لإفريقيا ، أدركت الأجيال المتعاقبة من الإفريقيين أن العبودية الروحية هي أسوأ أنواع العبوديات إطلاقاً ، وأنها تؤدي إلى تجمد الشخصية . وحاولت الشخصية الإفريقية منذئذ أن تحرر نفسها من التعصب المشوش للفرقة العنصرية الذي أحاط بها .

وكما أن التجارب البشرية لا نهاية لها ، كذلك تتطور الشخصية بلا توقف وهي تتجه بلا حيدة إلى تحقيق أرق الاحتمالات لإفريقيا .

وهكذا ازداد شعور المفكر الإفريقي بأن مبالغة ثقافته الروحية في الاهتمام بالعالم الروحي قد جمدت النواحي المادية : الصناعة والعلوم ، وأهم من هذا قوة المحافظة على السيادة . وعلى هذا إجماع آراء الزعماء الإفريقيين ، فهم يتلهفون على الإقلال ، بسرعة ، من استقلال المجتمعات المطلق

في إفريقيا والمؤسس على عالم الروح الذي حاول فيه الإفريقي أن يكتشف الحياة .

وعلى الرغم من هذا يصر هؤلاء الزعماء أنفسهم على وجوب الحفاظ على وجهة النظر الإفريقية التقليدية عن جهر الحياة التي تقرر وجود قوة معينة تغذى كل الكائنات بالمعاني والأغراض . ويغير هذا ، كيف يكون هنالك أمل في اكتشاف شخصية إفريقيا الأصلية ؟ ويتساءل المفكر الإفريقي كيف أمكن أن تبقى الثقافة الإفريقية ، وقد واجهت كل هذه الاعتداءات الغاشمة التي انصبت عليها ؟ ما الذي جعل البقاء ممكناً للمجتمعات الإفريقية على الرغم من تسلط الحمود عليها ، وعلى الرغم من ضعفها المادي المستفيض ؟ كيف أمكن أن يتحمل الجنس الأسود ويبقى مع إذلاله ، ليس فقط في إفريقيا بل في جميع العالم الجديد ؟

ويعتقد الآن الكثير من مثقفي إفريقيا أن العثور على الردود على كل هذه الأسئلة ، وحل لغز تحمل الجنس الأسود ، وشرح تصميم المجتمعات والثقافة السوداء على البقاء ، على الرغم من سوء معاملتها الساحق ، سوف يوضح معاني قدسيات وتقاليد وجهة النظر الإفريقية الروحية وظهور الدول الإفريقية الحرة .

ويقترح البعض أن أحجية البقاء الإفريقي ، لا بد أن تعزى إلى عقلية متفوقة ، والواقع حقاً أن الكثيرين يؤكدون أن مثل هذا الاعتقاد أساسى جداً إذ أرادت إفريقيا الآن أن تصل إلى مؤالفة جديدة بين حياتها الخاصة، ومادية الشرق والغرب ، بدون أن تفقد روحانيتها . ويدعون أن الانسجام بين الإنسان والطبيعة ، بين الإنسان وعالم الروح ، لم يميز مجتمعات إفريقيا التقليدية ، فحسب ؛ بل يجب أيضاً أن يبقى القوة الحيوية والمبدأ الأساسى للمجتمعات الإفريقية الجديدة .

ويعتبر ليوبولد سيدار سنجهور ، رئيس جمهورية السنغال ، أحد

الكثيرين الذين حاولوا اكتشاف غوامض هذا التوافق ، وقد كتب : « ما هو التوافق ؟ هو المهندس البناء للكائن ، والحيوية الداخلية التي تعطيه شكله . هو نظام الموجات التي تنقل إلى اهتمام الآخرين التعبير الصافي للقوة الجوهرية . التوافق ؛ هو الصدمة ذات الذبذبات ، هو القوة التي عن طريق الحواس تربطنا بجذور الوجود .

إنه بواسطة رقية العالم المتوافقة ، يمكن أن يستحضر الساحر القوة الجوهرية ، ومعنى هذا هنا ، هو الاشتراك في الجوهر العالمى ، خلال الجنس ، فى معناه الأساسى غير الحقيقى ؛ على خلاف التأمل التقليدى فى الشرق والغرب .

وقد لاحظ الكاتب الأمريكى الزنجى ، صامويل ألن ، علم سنجهور عن التباين الموجود فى الرقصات القبلية — كيف أن الراقصين غير المهمين يندمجون فى انفعال جنسى ، فى الوقت نفسه الذى يشارك فيه الراقص الأول جمال أقنعة الموتى الصارم . ويستمر فى قوله : « إن أثر ذبذبة الكلمة الملفوظة ؛ إذا صاحبها دفوف الدق ، كما هو الحال فى إفريقيا ، تسبب الاشتراك العام فى القوة الحيوية أو الجوهر العالمى . وتذكرنا هذه بما يقابلها من التصرفات الأكثر فردية وتأملية ، الخاصة بالشاعرين الإميزيين ، بليك وفوجان . ومن العجيب أنه كان إفريقيًا ذلك الذى منذ بضعة قرون خلت . عد التأمل الدينى عملية جماعية . والذى تأثر بالتواتر النغمى لكلمة الله . ومن الصمت . قال أسقف هيبو (سنت أوجستين) : « جاء صوت الرب ، الكلمة الأولى ، ثم الثانية فالثالثة وهكذا حتى الكلمة قبل الأخيرة ثم الأخيرة ثم الصمت » .

وإذا كان لمجموع ارتباطات المجتمعات الإفريقية التقليدية بعالم « التيم » آثار سيئة ، فقد كان لها — فى المعنى الروحى العميق التوافق مثلاً — مزاياها . وينظر المفكرون الإفريقيون بحدة إلى برود الأساوب الفعلى ووجهة نظر العالم الآلية ، ويرون فيها محاسن كما يرون مثالب . وأهم أسئلتهم ما يلى :

كيف يمكن الحفاظ على روح وجهة نظر التقاليد الدينية الإفريقية التي تؤمن بعقل خالق كلاً من عالم المراثيات والعالم غير المنظور ، حين نستبعد الرعب البشع ، والرجعية الخائقة ، وأهم من هذا كيف تستطيع إفريقيا أن تصل إلى تركيب فلسفي جديد للإنسان والرب والإنسان والطبيعة ، والإنسان والإنسان ؟

ويقول صديق الإفريقي : « إن هذه الأسئلة محيرة جداً » . وعلى الإجابة عنها ، يتوقف الكثير من مستقبل إفريقيا الجديدة . إن نزاعاً ضخماً يتجاوب في النفوس الإفريقية ؛ ومن الحكمة لنا أن نرى في هذا التنازع ما يسميه مالينوفسكى : « الشمول السخيف للأمل السامى الذى ما زال أحسن مدرسة لشخصية الإنسان » .

الله في إفريقيا

« مستمعيّ الأعضاء - السلام عليكم . بالرغم من أنه يلوح أنني قد تأخرت - قليلاً فإنني لا أود أن يفترقني أن أقدم تهاني القلبية بالعيد لكل المستمعين وعائلاتهم وأصدقائهم . وأقول لكم عيد مبارك . وأدعو الله أن ينزل علينا جميعاً رحماته - آمين .

« وأنتقل الآن إلى الأسئلة : السؤال الأول ورد من السيد / أولاجيد بكير المقيم ١٠ شارع ينكول بلاجوس . »

والصوت اللطيف الأمر الناطق بهذه الكلمات هو صوت مولاي نسيم صيفي رئيس أئمة الأحمدية ، والمتكلم عن برنامج يدعى « وجهة نظر الإسلام » الذي يذاع مساء كل اثنين من راديو لاجوس التابع لجمعية الإذاعة النيجيرية .

ويذاع على الأقل برنامجان إسلاميان في كل يوم ، ويزداد العدد مرة أو مرتين عادة كل يوم اثنين وجمعة ، ويرتس هذه الهيئة النشطة التي تهدف إلى التبشير بالجملة الحاج م . ك أكمود الذي ينظم في أسبوع واحد برامج تشمل موضوعات متباينة مثل « طريقة الإسلام في العبادة » ، و « الإسلام والطلبة » ، و « الإسلام والتطور البدني » ، و « الإسلام دين السلام » ، و « القرآن الكريم معجزة قائمة » وبعض هذه البرامج يذاع باللغة البوربية ، وبعضها بالهاوسية ، وبعضها بالإنجليزية ، ويستدعي الحاج أكمود إلى مذياع أفريقيا بنيجيريا أعظم المبشرين والأئمة وقادة الفكر في مجتمع نيجيريا الإسلامي . إن هنالك تشقّقاً طائفيّاً شديداً بين المؤمنين المسلمين ، ولكن السيد / آليموند يلم كل الشتات حول مبدئه - مبدأ نشر الدين الذي يدين به ، والذي يدعى أن الهداية مبنية على الأعمال الطيبة أكثر من مجرد

المبادئ في كل غرب إفريقيا . وهو يتوقع مطمئناً أن يصبح الإسلام الدين الرسمي في نيجيريا ، وبعدها في كل أفريقيا ، وذلك يرجع جزئياً إلى أن أسسه بسيطة ، وميسورة ، وعملية .

ولكيما نرى إلى أي حد تظهر تعاليم الإسلام بسيطة ، وميسورة وعملية لمستمعي راديو نيجيريا ، نعود إلى مولاي نسيم صيفي الذي كان بهذه المناسبة ، المتحدى غير المتنازع لبيلي جراهام خلال الحملة التبشيرية المشهورة بلاجوس . كناقذ تركناه وهو على وشك أن يتناول سؤالاً موجهاً من السيد أولاجيد بكير عن معنى النافلة التي تقال عادة قبل أو بعد العبادة اليومية ، وقد أجاب السيد صيفي :

« النافلة معناها ما زاد على الفرض ، ونحن نقرأ في القرآن الكريم : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

« ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ، وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » صدق الله العظيم « (١) .

والواقع أن الحب الصحيح لعمل أي شيء يمكن استنباطه فقط حينما يحاول الشخص أن يعمل أكثر مما هو مفروض ، لأن الالتزام يجب القيام به ولا يمكن التحلل منه ، وعليه فإذا ما قام به فقط فلا يمكن القول بأنه يحبه حقيقة . ولكن حينما يقوم بعمل أكثر قليلاً يمكن معرفة اتجاهه معرفة صحيحة ، ويمكن حينئذ القول بأنه يقوم بعمله بمحض رضاه ، وإن مثل هذا العمل هو المجزئ حقاً . وفي الواقع أنه العمل الوحيد الذي يضع شخصاً فوق مرتبة الآخرين . إن النوافل التي يراعيها الأشخاص قبل وبعد

(١) من سورة الإسراء ٧٨، ٧٩، ٨٠ وقد كتبها المؤلف باللغة الإنكليزية ، ومن البديهي ألا علاقة لها سواء في المعنى أو النغم بما هي عليه - المعرب

الصلاة ، وبخاصة تلك التي يقوم بها في الهزيع الأخير من الليل ، هي وسيلة تلقى بركات الله ، فهي تقربنا جداً من خالقنا .

« وإني لأود أن أنصح كل إخواننا المسلمين ، وأخواتنا المسلمات ، أن يراعوا جداً النافلة ، وإنهم خلال صلواتهم يدعون إلى انتشار الإسلام واتحاد المسلمين وتمسكهم به في جميع بقاع العالم ، بارك الله فيكم أجمعين . آمين »

هذه بداية ودودة وسهلة وميسورة ، ولكن ماذا عن الناحية العمالية في رسالة الإسلام . والسؤال الثاني الموجه إلى السيد / صيفي كان من السيد / إريبيرى مايجون القاطن في ٣ شارع إيكدي بلاجوس . سأل : « بدأت الصوم في سن العاشرة ، ولكنني في فترة من حياتي مرضت مرضاً شديداً كان من نتيجته أني منذ أن أبللت منه ، لم يكن في استطاعتي قط صوم كل رمضان ، ماذا تعتقد أنه الحل لمشكلتي مع العلم بأنني أؤدي صلاتي بانتظام ؟ »

« عزيزي السيد مايجون : لعلك تعلم الآن أنك قد أخطأت خطأ فاحشاً بالصيام في سن العاشرة ، فهذه سن رقيقة ويمكن للبدن أن يصاب بأضرار شديدة من جراء الصيام في أثنائها .

« ولهذا فإن ديننا العملي جداً يمنع الأطفال من الصيام ، وربما قد سمعني كثيراً وأنا أنصح الآباء بأن يمنعوا أولادهم من الصوم ، وعلى أي حال وبما ، أنك قد آذيت بدلك فعلاً فإن اقتراحى الرحيم أن تبذل قصارى جهدك لاسترداد صحتك كاملة ، وإلى أن تصبح من القوة كمن في مثل سنك ، أو كما قد كنت تكون لو لم تؤذ بدلك ، فإنني أنصحك بعدم الصيام ، ولكن أرجوك ألا تقنع بحالتك الراهنة ، فيجب استشارة طبيب عن حالتك واتباع تعليماته لمعالجة نفسك ، وإني لوائق أنك بمعونة الله سوف تسترد صحتك كاملة لدرجة تتمكنك من معاودة الصوم ، وأرجوك أن تكتب إلى ثانية في العام القادم لتخبرني عن حالتك ، وسوف يسرنى جداً أن أعلم أنك قد استعدت صحتك كاملة » .

عملى جدًّا ، بل أكثر من ذلك أنه عملى فى صيغة شخصية ، ولكن
ماذا عن تكيفه ؟

والسؤال التالى هنا يصدر من السيد/ ب . أ . أجاناكو (ويجدر الملاحظة
أنه لم يوجه سؤال واحد من امرأة) سأل : « لقد قررت فى إحدى إجاباتك
أن المسلم لا يجوز له أن يشترك فى حفلة دفن أحد أقربائه الوثنيين ، لنفرض
أن وثنيًّا توفى فى مكان ما ، وكان جميع أقربائه من المسلمين ، فما
هو رأى الإسلام فى مثل هذا الموقف ؟ هل يجب دفنه بدون غسل ؟ أو
ما الذى يمكن عمله قبل دفنه ؟ »

« أبدأ يا عزيزى السيد/ أجاناكو . لماذا يدفن بدون غسل ؟ إن ما يحرمه
الإسلام هو القيام بدور فى الاحتفالات الوثنية ، وجثة الميت ، أيا كان ، يجب
أن تعطى احترامها الواجب ، لقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقف
احتراماً إذا مرت جنازة يهودى ، أو مسيحي ، أو حتى وثنى ، إننا لا نكره أو
نجافى الشخص نفسه أو جسده الميت ، إنما هى العادات الوثنية ، وعليه فإن
القريب الوثنى الذى تتكلم عنه يجب أن يغسل قبل دفنه .

ولكننى يجب أن أعترف أن هنالك شيئاً لم أفهمه . هل هذا الوثنى الذى
تتكلم عنه هو آخر وثنى فى العالم بحيث لا يوجد وثنى آخر ليقوم بغسله ودفنه ؟

« أرجوك أن تذكر أن الله تعالى قال فى قرآنه الكريم إن الرسول (صلى الله
عليه وسلم) رحمة للعالمين ، ونحن الذين نتابع الرسول الكريم يجب أن نثبت
أننا رحمة للعالم ، وأنه . ب . ب عدم فقد اللمسات الإنسانية ، بل يجب تطبيقها
حيثما كان ، ومع أى شخص ، وإن أكثر الحالات تطلباً للمشاركة فى
الأحاسيس هى حالة موت أى شخص ، شارك الناس شعورهم ولا تزور
عنهم . اللهم ساعدنا على أن نظهر للعالم أننا تابعون حقاً للرسول الكريم
(صلى الله عليه وسلم) الذى كان رحمة للعالمين . »

هذا هو التكيف فعلاً ، ولكنه من نوع يختلف تماماً عن ذلك الذى

يصفه المبشرون المسيحيون لطوائفهم في بلادهم الأوروبية أو الأمريكية ، إن ما يؤكد عادة في مثل هذه التقارير . التي لا يقصد منها سوى مجرد سرد حديث أن الإسلام يتكيف ، ليوافق عملاً أى شيء في الحياة الإفريقية ، وإن التعبير المفضل هنا هو : «أسس الإسلام الأخلاقية المنحلة» . لقد قرأت اثني عشر تقريراً مطولاً أو أكثر ، مقدمة من مبشرين مسيحيين ذوى خبرة يمثلون طوائف ملية متعددة ، وبالرغم من وجود بعض الاستثناءات ، فإن الأغلبية تقنع بمقارنة أحسن ما في المسيحية بأسوأ ما في الإسلام ، وليست هذه وسيلة لإثارة أذهان الشعوب الغربية عن دور الإسلام السارى في أفريقيا ، إن هنالك طرقاً سارفيها الإسلام في إفريقيا شوطاً كبيراً ، وهنالك أخرى تهبط الآن فيها أسهمه ، وفي كلا الطريقتين يسير حشد من الوجوه السوداء .

إذا ما تركنا جانباً شمال إفريقيا ومصر - وهي بلاد أغليبتها الساحقة من المسلمين - وركزنا أنفسنا في المناطق التي تقع تحت الصحراء الكبرى حيث يتنازع الإسلام والمسيحية ، نجد أن النسبة التقديرية للذين تبعوا الإسلام هي :

نسبة المسلمين إلى السكان

الدولة أو مجموعة الدول

٣٠٪ من مجموع السكان

إكوادور والفرنسية الإفريقية (سابقاً)

» » » ٣٤٪

إفريقيا الغربية الفرنسية (سابقاً)

» » » ٥٠٪

كامرون البريطانية (سابقاً)

» » » ٨٤٪

جامبيا

» » » ٢٠٪

ليبيريا

» » » ٢٣٪

نيجيريا

» » » ٩٪

نياسالاند

» » » ١١٪

سيراليون

» » » ١٩٪

تانجانيقا

إن رب المسيحيين وإله المسلمين يعرضان على الدولة النامية في إفريقيا في زوبعة المجتمع المتقدم ، ويحكم الإفريقيون من جديد على العقيدتين اللتين كان لهما أكبر الأثر في حياة الإنسان . وليست المسيحية والإسلام بالأديان الجديدة على إفريقيا ، ولكن الموقف الذي يواجهانه اليوم جديد في عمقه وعرضه ، ونظراً لانحلال النظام الاجتماعي التقليدي . بدأت الأديان القبلية تفقد قوتها . ولما كانت هذه الأديان مركزة في قرى فردية ، أو مناطق قبلية ، وبدون أى فاعلية خارج نطاق هذه الحدود ، فإنها أصبحت غير مستطبعة أن تتحكم في الأعداد المتزايدة من الإفريقيين ، أو أن تؤثر فيهم ، وهؤلاء بدورهم قد جذبهم الأديان الروحية الأكثر عالمية ، وهناك من ناحية حنين إلى كيان ، إلى معنى ، وإلى تحد لأديان التوحيد العالمية الكبيرة . ومن ناحية أخرى . رغبة عميقة للاحتفاظ بالقيم الروحية التاريخية للمجتمع الإفريقي .

والإسلام ، كأحد الممثلين الأول في هذه المسألة . له ميراث ضخم لثلاثة عشر قرناً من الاتصال بمناطق معينة في إفريقيا . وهو اليوم يظهر اهتماماً متزايداً بالتبشير ، وفي إفريقيا ، وعدد سكانها يقارب ٢٢٠ مليون شخص يوجد حوالي ٨١ مليون مسلم في شمال الصحراء . وربما حوالي ٣١ مليوناً في جنوبها . ويتركز الأخيرون لدرجة كبيرة في حزام عريض يمتد من داكار ، وجمهوريةات السينغال ، ومالي وغينيا ، إلى المناطق الشمالية في كل إفريقيا الغربية وخصوصاً نيجيريا ، ومختزاً جمهوريات تشاد والكونغو إلى كينيا ، والحبشة . والصومال ، وتنجانيقا ، وسواحل المحيط الهندي .

هذه هي القاعدة التي يبدأ فيها التجار المسلمون ، والمبشرون ، والمدرسون ، ادعاءاتهم ، في حلقات تتسع دائماً ، بأن الإسلام هو دين الرجل ذاكن البشرية ، وهو أيضاً أخوة عالمية مفتوحة لجميع الأجناس والشعوب ، ومناديهم أن « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

وطبقاً للتاريخ حضر الإسلام إلى إفريقيا في موجات ثلاث في أول سنة للهجرة (٦٢٢ ميلادية) وقبل هجرة محمد (صلى الله عليه وسلم) من مكة

إلى المدينة أرسل بعض أتباعه الذين اضطهدوا إلى الحبشة ، رافعاً روحهم المعنوية بوعدهم أن الإسلام سوف يظهر على الدين كله ، وحتى يتضح تماماً أنه دين الحق ، وقبل مرور عشرة أعوام من وفاة الرسول (٦٣٢ ميلادية) كان الإسلام يغزو مصر بقوة . وفي خلال السنوات ٦٦١ - ٥٧٠ امتد الغزو الإسلامي عبر شمال إفريقيا وفي السودان . ومن القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر وجه الإسلام ضرباته إلى الجنوب ، وأنشأ مستعمرات ثقافية في الإمبراطوريات الإفريقية القوية ، في غانا وسرنگاي ومالي ، ويلوح أن ذبابة تسمى المؤذية فقط هي التي أحرزت تقدماً أكثر خلال البطاح والغابات الممطرة في الجنوب .

وقامت موجة ثانية في نفس التاريخ جنوباً على شواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وما حل القرن الرابع عشر حتى كانت هناك قلاع للإسلام ، أقيمت على شاطئ إفريقيا الشرق الحصيب كما أقيمت مستعمرات ناجحة للتجارة في العاج والتوابل والصمغ والعبيد والذهب .

ويبدأ تاريخ الموجة الثالثة من حوالي ١٧٥٠ حتى هذا القرن . وقد أرسلت خلالها بعثات تبشيرية من السنية المتحمسين للرد على البعثات المسيحية التي أرسلها الكاثوليك للرومان والبروتستانت الذين وفدوا أولاً من أوروبا ، ثم أخيراً من أمريكا الشمالية .

وقد تغلغل الإسلام في إفريقيا خلال هذه المدد المختلفة بجماع أربع وسائل حكيمة :

- ١ - الغزو عن طريق الجهاد .
- ٢ - النفوذ التجاري للتجارة والباعة المتجولين .
- ٣ - بعثات دعاية سلمية يقوم بها أتباع الطرق الصوفية والمتخرجون من المدارس الإسلامية بالقاهرة وفاس والزيتونة .
- ٤ - زواج التجار المسلمين والقادة الدينيين بنساء إفريقيات .

وقد وضع الدكتور ترأس سترونج أستاذ البعثات الزائر لكلية اللاهوت الاتحادية بجامعة شيكاغو تلخيصاً جميلاً عن موقف الإسلام في المناطق المختلفة بإفريقيا . وإنى أتتبع تحديداته الرئيسية .

مصر والسودان

إن القاهرة وهي تحاول دائماً ازدياد الروابط مع إفريقيا الاستوائية ، تؤكد بحماس ضرورة اتحاد إسلامي عن طريق إذاعتها المنتظمة ، وإرسال مجموعة ضخمة من الأزهرين للتبشير ، وعقد مؤتمرات للإفريقيين المسلمين والخطباء ، وإن تشجيع زعماء المصريين المساهمين للقومية الإفريقية لا يقل عن تشجيع الزعماء السياسيين المصريين لها .

والسودان ، مع وجود ٦,٣٥٠,٠٠٠ مسلم و ٣,٥٠٠,٩٠٠ تابعين للديانة القبلية و ٤٠٠,٠٠٠ مسيحي . في اضطراب مستمر ، فالسودانيون الشماليون الذين قبلوا الإسلام بحماس شديد استعملوا عبقريتهم في المحاكاة في تعديل دين الرسول (صلى الله عليه وسلم) طبقاً لأهوائهم ضد رغبات رجال الدين ، وكما يقول سترونج « لقد غنوا فيه ، ورقصوا فيه ، وبكوا فيه ، واستجلبوا عاداتهم واحتفالاتهم فيه ، وأدخلوا فيه جوانب كثيرة من الوثنية ، ولكن مع احتفاظهم دائماً بحقيقته الحية من توحيد الإله الحاكم الواحد . وقد أصر القبليون في معظم بقاع السودان من ناحية أخرى على التعلق بحياتهم الدينية التقليدية ، مقاومين بذلك البعثات التبشيرية الإسلامية والمسيحية على حد سواء . أما الذين اتبعوا الديانة المسيحية على قلة عددهم ، فقد تلقوا تعليماً أكثر ، وهم الذين يكونون معظم الزعامة السياسية .

الحبشة وكينيا وتانجانيقا

ذات مرة قال الإمبراطور منليك : « إن الحبشة جزيرة مسيحية وسط بحر من المسلمين » كما يوجه المثقف ج . ص . ج . س . تريمينجهام من جلاسجو ، الأنظار إلى موقف البعثات التبشيرية ، سواء المسيحية أو الإسلامية ، الدقيق نظراً لوجود كنيسة إفريقية للدولة فريدة في أثيوبيا منذ زمن بعيد . ولكن لأثيوبيا تاريخ طويل من العلاقات مع الإسلام ، ويحتفظ الكثير من شعبها بمزيج غريب من الروابط الوثنية والإسلامية ، فالمواظبة على الصلوات الإسلامية ، ومراعاة رمضان ، وتوجيه المقابر وجهة مكة ، يختلط مع الحلى المعتادة ذات الطابع القبلى التقليدى فى نماذج غريبة مشوشة . وعلى طول المناطق الساحلية فى كينيا وتانجانيقا جماعات من عرب السواحل الذين يعدون من أقدم المجتمعات الإسلامية وأكثرها تديناً . وكان الأجداد العرب لهذا الخياط الأخوى الغنى ، هم المكتشفين الأوائل لشرق إفريقيا . ويوجد بينهم الكثير من العائلات الأرستقراطية الغنية التى مثلها كمثل بعض العائلات فى نيوانجلاند ، قد جمعت ثروتها عن طريق الاتجار فى الرقيق . ويعاون عرب السواحل البعثات التبشيرية الإسلامية ، ولكن بطريقة ضعيفة ورقيقة .

ويتركز فى نيروبي ، وسط أماتيل من الثقافة الدينية ، ورغد العيش ، والنزعة الإنسانية المجتمع المنطوى على نفسه ، طائفة الإسماعيلية الإسلامية التى تتخذ من خريج هارفارد الشاب أغاخان الخامس زعيماً روحياً ودينياً . ولأغاخان آراء حديثة جداً عن قيادة شعبه فى عصر الذرة ، ويعد أتباعه ، ومعظمهم من الهزرد ، من أكثر الطوائف ثراء وتقدماً فى إفريقيا .

ولعل أكثر البعثات التبشيرية الإسلامية اندفاعاً فى شرق إفريقيا هى

تلك التي تنبع من الأحمدية . ومركزها الرئيسي في كينيا . ونظراً لنشاط هذا البرنامج الواسع النطاق فسوف نتكلم فيه أكثر في مجال آخر .

روديسيا وجمهورية جنوب إفريقيا وجمهورية الكونغو وجمهورية إكوادور
الإفريقية الفرنسية سابقاً والكامرون .

هنالك ازدياد في نشاط البعثات التبشيرية الإسلامية في روديسيا ، ولكن مجموع عدد المسلمين ما زال ضئيلاً نسبياً . وإن كثيراً من الرجال الذين يأتون إلى شمال روديسيا من نياسالاند ورواند بوراندي للعمل في مناجم النحاس ، يستحضرون معهم عقيدتهم الإسلامية . وفي العاصمة لوساكا مسجد جديد جميل أشار إليه بفخر سائق السيارة الإفريقي التابع لشركة جنوب إفريقيا البريطانية .

وقد قرر لي بيتر ماثيوز ، من مركز منزلو المسكوني ، وهي مؤسسة غير عادية سوف نتكلم عنها بعد قليل ، أن الإسلام ينتشر بسرعة أكثر مما يظن كثير من المسيحيين ، وأنه يجب النظر إليه نظرة جدية .

وفي جنوب روديسيا بنى أكثر من ١٢٠,٠٠٠ عامل من نياسالاند شبكة من الجوامع والمجتمعات . وليس لهم ، حتى الآن ، اتصال كبير بمجتمع منظم من الهنود المسلمين ابتداءً بداية طيبة في تديد تعاليم الإسلام في تعليم الصغار . وقد قال أحد زعمائهم لئراس سترونج ، إنه يرى أن الإسلام هو أقوى رابطة في حياتهم لضم القوى ، حيث إنهم قلة من الهنود يتقاذفها التنازع على السلطة بين المجتمعات الإفريقية والأوربية .

وتضم ديربان الجميلة واحدة من أقوى الجاليات الإسلامية في جنوب إفريقيا ، وهذه أيضاً معظمها مكون من الهنود . وفي جوهانسبرج كثير من العمال المهاجرين من موزنبيق والشمال ، مسلمون . وفي كيب تاون جالية قديمة من المسلمين من الملايو (وهم يعدون ملونين طبقاً لتعريف جنوب إفريقيا للون) والإسلام هو القوة التي تجمع هذه العائلة المحصورة . وحيثما يكن في الاستطاعة ،

يرسل شبان الملايو إلى مصر، أو باكستان، أو البلاد الإسلامية الأخرى . ليتلقوا تعليمًا أرقى .

ولا يوجد سوى مسلمين قلائل في ليوبولدفيل والمناطق الغربية من جمهورية الكونغو، لكن في أماكن أخرى من هذه الدولة الواسعة المستقلة حديثاً، توجد جيوب من جماعات قبلية ذات ماضٍ طويل في الولاء للإسلام، وكثيراً ما يرسل زعماء هذه القبائل إلى تانجانيقا للتتمرين في المدارس الإسلامية .

وفي سلسلة الجمهوريات التي تكون ما كان سابقاً إفريقية الاستوائية الفرنسية، قلة نسبية من المسلمين . أما تشاد فهي استثناء ضخم إذ يصل تعداد المسلمين فيها إلى ثمانية وسبعين في المائة .

وفي الكامرون خضم متلاطم من القوى الدينية، ويزداد نشاط المسلمين والمسيحيين بصفة خاصة . وكثير من الزعماء لهم عقول مادية، والولاء للقبيلة ما زال قوياً، والكنائس المسيحية لها مدافعون إفريقيون ذوو حماس غير عادي . أما في الشمال — حيث الزعامة ما زالت نظاماً قوياً — فالإسلام بالذات في عنفه .

داهومي والسنغال

بينما تقدر نسبة المسلمين بسبعة عشر في المائة فقط من تعداد شعب داهومي، فإن هنالك علامات على وجود دفعات تبشيرية إسلامية قوية في قبائل يوربا في الشرق كما تظهر الجوامع — سبعة في السنوات الأخيرة القلائل . على أن الحياة القبلية شاقة، ويلوح أن الإسلام مجرد غطاء سطحي بدون أي اعتقاد داخلي عميق .

ويسود الاعتقاد أن حوالي تسعين في المائة من تعداد مينا سنغال الحيوي « داكار » مسلمون . وقد قام أيضاً المبشرون المتجولون بمد سلطة الرب والله وجوهو

الإسلام إلى القرى. في المناطق المجاورة ، ويظهر أن هناك اتحاداً قوياً غير عادى بين مزاولة الإسلام والأديان التقليدية ، في حين أن المجموعة الحديثة الاستقلال ليست متحمسة لتشجيع أعمال التبشير المسيحية . وفي الواقع أن الموقف أصبح مشبطاً لدرجة تبعث الكاثوليك الرومان والبروتستانت على أن يتفاهموا جدياً في توحيد جهودهم .

غينيا وسيراليون وليبيريا

ليس سيكوتورى ، رئيس غينيا القادر الطموح ، من المتحمسين للهداية الدينية ، ويسود الإسلام بلاده ، وقد زار مكة حديثاً كما يجب على زعيم مثل هذه البلاد ، ولكنه يدعو إلى الاشتراكية المادية ، وقد لاح لمدة جواز قيام حملة تعليمية ضد الأديان ، وأهملت الخطط قبل أن تتحقق . وإن أقل ما يقال عن الاعتقاد السائد بأن غينيا دولة شيوعية إنه سابق لأوانه . وتطبق المبادئ الماركسية في التنظيم السياسى — كما رفعت يد الطوائف الدينية في أكثر مجالات نشاط الشباب لتوضع في يد الدولة . ولكن تورى يوضح بجلاء أن أساسه في الوطنية الإفريقية ليس شيوعية السرقيت أو الصين ، فهو يؤكد ، كما سبق ذكره ، أنه من الصعب جداً أن تجد أى شخص في غينيا لا يؤمن بالرب . وفي غينيا اسم الرب هو الله ، ورسوله المسيطر هو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وتعداد سيراليون الصغيرة هو ٢,٣٥٠,٠٠٠ نسمة منهم ٥٨٨,٠٠٠ نسمة مسلمون و ٧٠,٠٠٠ مسيحيون . ويحتفظ أغلب الباقيين بالعادات والتقاليد القديمة . ومن الميزات الواضحة في غرب إفريقيا عموماً ، أن الشخص يمكنه أن يجد مجموعة من الأديان في عائلة أو قرية واحدة يسود بين أفرادها التفاهم ولا تؤخذ الخلافات الدينية مجالا لاحتداد الشعور . وفي تقرير عن حرية فكر زعماء القبائل الإسلامية كتب ج . سبنسر « أنهم يقيمون عبادات الأجداد ،

ويعضدون الإسلام لدرجة التعصب ، ويشجعون بعثات التبشير المسيحية لدرجة أكبر من مجرد التقدير لنشاطها في النواحي التعليمية والاجتماعية ، ويحضرون الصلوات في الكنائس ، كما يكرمون الأعياد الإسلامية . إن كلا من الأديان الثلاثة يملأ ناحية اجتماعية ، ولما كان هناك موالون لكل دين في كل زعامة قبلية ، فقد كفلت حرية الأديان للجميع . وتنشط حركة التبشير الأحمدية . وقد ساعدت على بناء حوالى خمسة وعشرين جامعاً ، كما أن لها مبشرين شباناً نشطين وقفوا جهودهم أنفسهم لتقدم البلاد روحياً وعلمياً .

وفى ليبيريا يصل تعداد السكان إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة منهم حوالى ١٠٠,٠٠٠ فقط من المسلمين ، وضعف هذا الرقم من المسيحيين ، ويتبع الباقون ديانة السلف . وتركز الجاليات الإسلامية في الشمال ، ويوجد جامع فى مونروفيا ، وتعترف بالإجازات الإسلامية ، كما تفعل عملاكل حكومات غرب إفريقيا . ولا تقوم أية محاولات لكبح الأعمال التبشيرية ، وقد نشطت الأحمدية لهداية الليبيريين ، مع أنهم لم يحضروا إلى ليبيريا إلا فى سنة ١٩٥٧

غانا ونيجيريا

إن دستور غانا الجمهورى ، الذى بدأ تطبيقه فى أول يوليو سنة ١٩٦٠ يقرر أنه : « لن يحرم أى شخص من حرية الدين » : القطر وتعداد زهاء ٥,٠٠٠,٠٠٠ يمكن تقدير ١,٠٠٠,٠٠٠ منهم كمسيحيين أو مسلمين ، وقد تكون نسبة المسيحيين ثلثى هذا العدد . وهناك تاريخ طويل من المقاومة فى غانا للضغط الإسلامى ، مقاومة ترجع إلى عمق جذور معتقدات السلف . ولكن ما حلت سنة ١٩٣٢ حتى كانت الجمعية الإسلامية قد تكونت كمؤسسة ثقافية لتحتضن الوحدة الإسلامية ، ولتبحث إصلاحات تهدف إلى اعتراف أكثر بالإسلام فى النظم القانونية والتعليمية . وقد دخلت فى السياسة لأول مرة

في سنة ١٩٣٩ بأن ظهرت مرشحين في انتخابات بلدية أكر . وما حلت انتخابات سنة ١٩٥٤ حتى اتسع نطاق مؤيدي حزب الاتحاد الإسلامي في المستعمرة وفي أشانتي ، ولكن لم ينتخب من مرشحيه الستة عشر سوى واحد فقط . وقد وجد تأسيس حزب الاتحاد الإسلامي معارضة قوية من الدكتور نكروما وحزبه المسمى حزب الإصلاح الشعبي . فالسيد / نكروما يعارض تدخل الدين في السياسة . ولكي يمنع أي تدخل إسلامي في السياسة في المستقبل ، أقام حزب الإصلاح الشعبي مجلساً لمناقشة اقتراحات تأسيس مدارس لحفظ القرآن ، وإدخال القرآن في المدارس للطلبة المسلمين ، وكفالة وجود أئمة من الحزب في أكر . ويلوح أن هذه المناورة قد أفلحت ، إذ لم يقدم حزب الاتحاد الإسلامي في انتخابات ١٩٥٦ سوى ثلاثة مرشحين لم ينتخب منهم سوى واحد .

ولم يحاول المسلمون في المناطق الشمالية أن ينظموا أنفسهم سياسياً ، ولكنهم ظاهروا جداً حزب الشعوب الشمالية ، ومن بين المائة وأربعة مقاعد في الجمعية الوطنية سنة ١٩٥٤ ، أحرز المسلمون خمسة عشر ، بينها اثنان للأحمدية . وهذه هي بالتقريب نسبة عدد المسلمين إلى التعداد الكامل للشعب . وما زال الموقف كما هو ، فيما عدا نشاط حركة الأحمدية المتزايد . ومنذ استقلال غانا سنة ١٩٥٧ بنى الأحمدية بين ١٥٠ و ٢٠٠ جامع . وأسسوا مدارس كثيرة . ولجيش غانا المدرب أئمة مسلمون ، مما يخلق جواً من التوتر حينما يصدر الأمر لحضور حفلات رسمية كبناء قبر الجندي المجهول .

وفي سنة ١٩٥٩ أقيم مؤتمر من القسيسين المسيحيين ، وعقد في الجامعة لتحسين العلاقات بين المسلمين والمسيحيين . وبما ذكر لصالح القساوسة أنهم وافقوا على أنه من المفيد جداً أن يتقابل المسيحيون والمسلمون ، وأن يتناقشوا ، وأن يحاولوا التفاهم في جو من الألفة والاحترام المتبادل . وقد ورد في تقريرهم :

إذا كان المسلمون يعلمون شيئاً عن النظرية المسيحية فإنهم يميلون إلى

الظن بأن تعاليم نظرية التثليث هي وجود ثلاثة آلهة ؛ ومع أن المسألة النظرية لها أهميتها لكنها لا تتناول أمام واقع العواقب الاجتماعية والأخلاقية والأدبية .

ينتشر الإسلام في المناطق التي يحتفل فيها بأعياده . والاحتفالات تقام عادة في المنازل ، لا في الجوامع ، وتجذب هذه الاحتفالات الجيران بما فيها من جمال ، وألوان ، وموسيقى ورقص ، وسهولة تميزها . ويأتى الناس ليشاهدوا فينجذبون نحو الدين . ويدعى المسلمون أن المسيحية تفترض قيام علاقة مستحيلة بين الرجل والمرأة ، وتأخذ العلاقة في الإسلام طابعاً مختلفاً يستطيع الرجل العادى أن يسايره . ويقال أخيراً إن المسيحية تعارض بشدة أى شىء يمت . ولو من بعيد . للوثنية ، وهى بهذا تميل إلى هدم الكثير من طرق الحياة القومية ، وتجرف مهتديها مع طرق الغرب العالمية التي لا جذور لها .

أما المبشر الإسلامى فإنه يأتى كإفريقى ، ويترك الشخص الذى هداه وهو ما زال متمسكاً بطريقة حياته الوطنية ، ومع ذلك يقلمه إلى أخوة عمت العالم أجمع .

ويتوقع الدكتور نويل كنج ، عالم اللاهوت المسيحى منذ سنوات عدة فيما هو معروف الآن بجامعة غانا ، للإسلام أن يحظى بمكاسب ضخمة في غانا في بضع السنوات القادمة . وقد حدثنى عن مدى نفاد صبره من طريقة الدعاية التي يتبعها المسيحيون تجاه الإسلام . وقال : « إن قليلاً جداً من المسيحيين النظريين من يأخذ في حسبانهم الوقع الانفعالى الهائل على رجل حين يذهب ليصلى مع إخوانه المسلمين . إنه في هذه اللحظة يصبح حقيقة رجلاً مساوياً لأى رجل آخر في أخوة واسعة المدى . هو يخرج من صلاته واثقاً من قيمته مهما تأتى من أمر » .

إن سير أبو بكر تافاوا باليواه ، أول رئيس وزارة لاتحاد نيجيريا ، مسلم ، وكذلك على الأقل ثلث شعبه . وكل الطبقة الشمالية من هذه الدولة ، التي تعتبر أكثر الدول الإفريقية المستقلة حديثاً ازدهاماً بالسكان مسلمة . وقد

يبلغ مدى ارتفاع العدد الإجمالي من المسلمين في مجموع الشعب إلى ١٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة .

وفي سنة ١٩٤٨ تم تنظيم مجلس نيجيريا الإسلامى . لتمكين وحدة التابعين لمحمد (صلى الله عليه وسلم) في الدولة وللتعاون في نشر الإسلام وتنشيط تقدمه كدين الإنسانية ، والحفاظ على علاقات وثيقة مع المجتمعات المماثلة في مكة ، والقاهرة ، والخرطوم ، وإنجلترا ؛ وما حلت سنة ١٩٥١ حتى كان قادة المجلس مستعدين لعقد مؤتمر في مدينة بنين ؛ وقد حضره مندوبون إخوة من سيراليون وغانا وجامبيا . وهناك تقرر تكوين جمعية غرب إفريقيا الإسلامية التي تضم الدول الأربع .

ومنذ أمد طويل أصبح الإسلام قوة متماسكة تصبغ الحياة في شمال نيجيريا ، ولكن بدء دخوله في جنوبي نيجيريا حديث نسبياً . وقد بدأ دخول قبائل يوروبا ، التي تسكن غرب نيجيريا ، في هذا الدين في بداية القرن الحالى فقط ، وكان التقدم بطيئاً في أول الأمر . وكان المبشرون هم تجار الهوسا من الشمال ، الذين يعتقد أغلب اليوروبيين أنهم أسوأ العناصر الممكنة في الإسلام . وفي المبدأ كان المهتدون قليلين ، وكانوا موضع السخرية ومنبوذين . ولكن الإسلام اجتذب تدريجياً ، كما في عبدان ، أشخاصاً محترمين ، قادة مدنيين ، وتجاراً موسرين : ورحل من الشمال مدرسون عرب ليضيفوا لمسة مهنية إلى تعاليم ووعظ المؤمنين العاديين الذين قاموا بالتبشير في أثناء أعمالهم .

واليوم توجد مئات من الجوامع في عبدان ، ويرتفع عدد المدارس الإسلامية باطراد . وتهتم جمعية معروفة باسم « أنصار الدين » خاصة بنشر التعليم ذى الطابع الغربى بين الأطفال المسلمين .

وفي لاجوس ، العاصمة الاتحادية المزدهمة ، يبلغ النشاط الإسلامى الذروة في كل الأوقات . هناك قابلت الدكتور بابس فافونوا — وقد حصل على

الدكتوراه من جامعة نيويورك « الذي كان مسئولاً في هذا الوقت عن المستخدمين والعلاقات العامة في شركة إسو. وقد أصبح بعد ذلك عضواً في الكلية بأنسوكا . وهو يصف نفسه بأنه مسلم بالميلاد والافتناع ، ولكنه مسلم حر التفكير . ولما سألته كيف يحدد الحرية في هذا المجال أجاب بأن « المسلم الحر يعتقد في المثل القديم القائل إن الرجل قد ينام في الجامع ، ويضرب رأسه في الأرض في أثناء الصلاة حتى تصبح عجيبة . ولكنه إذا خرج وأصاب زميله الإنسان بضرر فليس مسلماً ».

وقد قال لي إنه قد وافق لتوه على تولي الرئاسة التعليمية في نحلته . الجمعية الإسلامية ، التي تنظم مدارس ثانوية باطراد منظم . وكان هو أيضاً مؤسساً ورئيساً للاتحاد الإسلامي في نيجيريا الذي كان يشارك حملة لجمع موارد للشروع في برامج ترفيهية وتعليمية للشباب . تشابه أساساً جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات . وقد أنبأني بأنه « يوجد تقصير بين شبابنا أكثر مما نحب أن نعترف . وكنا نحن المسلمين ، نعتبر (الأقارب الفقراء) لمدة طويلة لا سيما في فرص التعليم . فالبعثات التبشيرية المسيحية ، كانت تدير ما يوجد من مدارس . ولم يرغب آباؤنا في ذهابنا إليها خشية أن نخدع فتنكر للإسلام . وقد كذبت عامداً عن ديني وادعيت المسيحية ، حتى أتمكن من دخول مدرسة ثانوية ، وكاد هذا يحطم قلب والدي . كان المسلمون النيجيريون . وبخاصة في الشمال ، رجعيين في موضوع التعليم ، ويرهبونه كأداة للكفرة . ولم يكن لديهم العقل الكافي ليقوموا بأنفسهم بعمل شيء حياله . والآن يتغير هذا ، ويتغير بسرعة ، ولكن ما زال عندنا عدد ضخم جداً من الأشخاص غير المتعلمين والخائبين يتجولون داخل المدن . لقد بدأنا نفعل شيئاً إزاء هذا ، وسوف نفعل أكثر » .

ولما سألت الدكتور فافانوا عما إذا كان يتوقع أن يصبح الإسلام الدين القوي في نيجيريا أجاب : « إن هذا لا يهمني في الواقع ، وأن ما تحتاج

إليه نيجيريا هو العلم الديني بأوسع معانيه . ويجب أن أقرر أن المسيحيين في هذه البلد قطعاً أقل تحملاً للمسلمين من العكس » .

وأضاف : « أنه من البديهي أن هنالك بعض الاختلافات الطائفية بيننا » . هذه الخلافات الطائفية تتمثل في وجود ما لا يقل عن ثلاثة جوامع رئيسية في لاجوس وثلاثة أئمة ورؤساء أحدهم للمسلمين السنية ، والآخر للأحمدية ، والثالث لجمعية الإسلام التحرري .

الأحمدية : جمعية تبشيرية إسلامية حديثة

ذكرت عدة مرات نسج نفوذ الأحمدية إلى نموذج إسلامي بارز . وتعد هذه بسهولة أكثر الحركات الإسلامية التبشيرية نشاطاً واتساعاً في إفريقيا الاستوائية . ومع ذلك فجذورها ليست إفريقية على الإطلاق . ولدت الطائفة في بنجاب ومركزها الرئيسي في باكستان . وفي أواخر القرن التاسع عشر ادعى مؤسسها ميرزا غلام أحمد ، أنه المهدي المنتظر والمسيح . ولكن المسلمين السنية اتهموه بأنه مخادع ومرتد . وبعد وفاته سنة ١٩٠٨ قامت انفصالية بين من قبلوا ادعاء أحمد بأنه خاتم الأنبياء ، والذين أصرّوا أنه كان مصلحاً دينياً عظيماً لا أكثر . ويمكن أن نجد امتداداً لهذا الشقاق في إفريقيا ، ولكن أساس دفع التبشير الأحمدي ينبع من الطائفة الأصلية .

وقد وصل نفوذ الأحمدية إلى شواطئ إفريقيا الشرقية والغربية في وقت واحد تقريباً في سنة ١٩١٦ . وقد جاءت كحركة إصلاحية ، ونفوذ تحرري لمحاولة التوفيق بين تعاليم الإسلام والتعاليم الحديثة ، وتابعت في وسائلها مجهودات البعثات التبشيرية المسيحية . ولم يحاول أول المصلين الأحمديين ، وهم مواطنون باكستانيون ، أن يخفوا اشمئزازهم من السحر ، والشعوذة ، اللذين كان يزاوهما كثير من المسلمين ، وقد نادوا بالتشديد في معاملة الإهمال في العبادات ، كما قامت دعوات حادة لإعطاء النساء مكانة أعلى في الحياة الدينية . ومن الغريب

أنه كان هناك تمسك شديد بمبدأ عدم تعدد الزوجات .
 وكان السند على نص الآية القرآنية : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » [النساء ٣] وقال المبشرون الأحمديون من الحمق أن ينتظر من الرجل أن يتصرف بعدل مع أكثر من زوجة واحدة .

وفي نظرية الأحمدية ، محمد (صلى الله عليه وسلم) هو أحسن الرسل وأحسن الخلق . والاتحاد الكامل مع الله مستحيل لأولئك الذين لا يعرفونه ولا يعرفون تعاليمه . ومن ضمن العشرة الشروط لعضوية الأحمدية قسم من الطالب بأن يقيم أخوة مع المؤسس أحمد بإطاعة نظامه في كل ما هو خير .

ويقوم الخلاف الكبير مع المسلمين السنية على مبدأ استمرار الإلهام الإلهي . فالأنبياء ، مثل أحمد ، في نظر الأحمدية يمكن أن يظهروا بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه يلزم أن يكون من أتباعه ومن يحملون خاتمته . ومع ذلك فقد تكلم الله بواسطة رسل آخرين من أمثال زورواستر وبوذا وكريشنا ، وراما شانندرا ، هؤلاء كانوا رسلا مقدسين يستحقون التبجيل ، فقد قادوا شعوبهم في طريق الحق .

وقد علم مؤسس الأحمدية مسيحية فريدة ، يجب على الأحمدية الحديثين بواسطتها أن يستثيروا المسيحيين في المناقشة . لقد صلب المسيح فعلاً ولا شك في ذلك ولكن نظراً لصلاح الجليلي وصدقه أنقذه الله من النهاية اللاذعة على الصليب بأن سبب له إغماءة تشابه الموت . وكان في هذه الإغماءة حينما وضع في القبر ، وفي اليوم الثالث استرد المسيح وعيه وقام . وبعد اجتماع سرى أكد فيه لأتباعه أنه حقيقة حي ، تجول المسيح في أفغانستان وكشمير حيث كانت بعض القبائل الإسرائيلية التائهة قد استقرت سابقاً . وفي كشمير مات أخيراً . هنالك في شوارع خان بار في مسبرنجاجار يستطيع الزوار أن يروا قبر عيسى المسيح الرسول . ولكن روح عيسى ليست هناك . فقد ذهبت إلى الله كشأن أرواح جميع الرجال الصالحين .

وإن إجابة العالم المسيحي « جيوفري باريندر » الذى هو عادة مسلم وصبور قد عكست حدة رد فعل المسيحيين على هذا الجزء من النظر التاريخي الأحمدي « إنه من غير الطبيعي أن يعرف أحمد حسن حواربي المسيح الذين عاشوا في القرن الأول وكتبوا الأناجيل . وقد يكون القبر لمبشرين مسيحيين نسطوريين قدامى ذهبوا إلى الهند » .

ويتألم المسيحيون من وسائل الأحمديّة الاعتدائية ، ومع هذا ما زالوا يعترفون مرغمين بأنها حركة أكثر تقدماً وسعة عقل من الطوائف التي يمكن وجودها في صفوف السنية المسلمين . ويعارض العلماء (الذين تعلموا القوانين الإسلامية) والمعلمون (الأساتذة المسلمون) الذين يتمركزون في شمال نيجيريا ، بشدة الأحمديّة المارقين مع خشيتهم لنفوذهم القوي . وقد أبقت الدعاية ضد الأحمديّة حركة الأحمديّة صغيرة حتى الآن في المدن الشماليّة الصغيرة . ولكن هنالك علامات ازدياد ميل الفئة المتعلمة إليها . ويظهر صدام من هذا النوع أكثر في سالتبونند المتدينة وفي مناطق كولوني بغانا وسيراليون . ويوجد تدفق سريع للقوى الأحمديّة في المدن الهامة في جنوب غرب نيجيريا وقد فرض الأحمديّة ضريبة دينية (زكاة) على أتباعهم . ولما كان الكثير من المهتدين تجاراً موسرين ، فإنه توجد موارد كبيرة لدرجة مدهشة تحت إمرة المجهودات التبشيرية ، وبعض هذه الموارد قد وجه بحكمه إلى إنشاء مدارس ابتدائية وثانوية ، وهي خطوة يميل إليها الشعب الجائع الظمآن لسحر التعليم كثيراً . وخطورة أخرى أكثر تأثيراً هي إنشاء مدارس مختلطة للبنات والصبيان ، وهو بعد كبير عن التقاليد .

وتقف حملة الأحمديّة منفردة عن جميع العمليات الإسلامية السابقة في إفريقيا ، في استيرادها للدوافع وأوضاع مختلفة تماماً عن الإسلام التقليدي . وإذا كان هذا قد أثار نزاعاً طائفيّاً ، فإنه جذب أيضاً الاهتمام إلى الإسلام التحرري بين هؤلاء الذين تضرروا من القديم وتحمسوا للاتجاه إلى الجديد . وإن حاكماً مسلماً مستبدّاً مثل الأمير في كانو ، العاصمة الإسلامية لشمال نيجيريا ، محافظ لا يتزعزع في عالم متطرف . وهو مشمثر جداً من مروق

ادعاء أحمد للنسبة ، ولكنه أكثر غضباً من بعض الأعمال الأحمدية الممقوتة كالسماح للنساء بدخول الجوامع للصلاة خلف الرجال وتشجيع العرائس في حضور حفلات زفافهن لإعطاء موافقتهن . إن الأمير قد اعتاد خضوع المؤمنين للسلطة التي لا تقبل التحدى . وإن قصره المبني في القرون الوسطى في الجزء القديم من مدينة كانو يحكم طبقة هرمية من النبلاء المتقدمين في السن ورثت ألقابها ودرجاتها وأعمالها من قرون مضت وإن تضمنت الآن كثيراً من واجبات الرياح الحديثة المتغيرة ، ويمثل الأحمدية في تصميمهم على إصلاح وتجديد القانون الإسلامى تهديداً حقيقياً للسلطة التقليدية ، فبرامجهم الاجتماعية والتعليمية النشيطة غريبة وبغیضة إلى الطباع القديمة .

كل رجل ناشر للعقيدة

إن الاهتمام بالإسلام التحررى قد فاق الآن حتى الأحمدية . يوجد في لاجوس كما سبق أن أشرنا ليس فقط جامع يزعم الجمعة الأحمدى ولكن أيضاً جامع الجماعة الإسلامية ، التي يرأسها رئيس الأئمة الحاج ل . ح . ب . أغسطو .

وقد زرت في الحى القديم بلاجوس (٢١ / ٢٥ شارع بالمجبوز) داراً فسيحة واجهتها من مكتبين عاريين غامقين . وفي الخلف توجد ساحة مغلقة يحوطها مربع من المباني المصيصية ؛ وكان عدد لا يحصى من الأطفال يلعب حول ، كما لمحت امرأتين تختفیان بسرعة خلف بابین يؤديان إلى طابق أرضى . وهناك درج من سلم خشبية خارجية كانت تن فى أثناء صعودى عليها لأصل إلى مسكن الإمام الخاص حيث كانت الحجرة الصغيرة الأمامية مكتظة بقطع الأثاث الفيكتورى الضخمة . وتناثر الكتب والملفات والمستندات كلها فى مجموعات غير مرتبة أو منظمة . وكان الحاج ل . ب . أغسطو قد

استيقظ لتوه من قبلولته ، ودخل من ظلام الشقة الداخلى وهو يرتدى اللباس التقليدى الفضااض المزركش بطباعة زرقاء . وهو رجل عجوز خشن ، واثق جداً من نفسه ، وقد اشتهر عنه بأنه قد كون ثروتين إحداهما من تجارة العقاقير ، والأخرى من اشتغاله بالقانون .

ورداً على سؤالى الأول : « ما هو رأيه فى مستقبل الإسلام فى أفريقيا؟ » بدأ يتكلم لساعة وربع ساعة ، ولم يتوقف إلا ليسألنى ببلاغة بين آونة وأخرى عما إذا كنت قد فهمت . وقد وصف لى كل تاريخه كزعيم إسلامى من سنة ١٩١٠ حينما بدأ العمل فى جامع السنية المركزى . وفى غمرة من حماس أسس جماعة الإسلام الأدبية ، وهى جماعة تناقش أمهات الكتب ولكن بعد ست سنوات من تجارب غير مشجعة مع الأساتذة الرجعيين قرر أنه كان من المستحيل أن يأتى بالعلم والهدى إلى الجامع المركزى وقال : « إن عيسى كان على حق ، إنك لا تستطيع وضع النبىذ الحديد فى القوارير القديمة » .

وحوالى هذا الوقت وصلت الأحمدية إلى لاجوس . واستقبل أغسطو حركتها بسرور واضح وأضحى أحد أوائل مظاهريها . ولما كان متخرجاً فى كلية الصيدلية فقد أنشأ تجارة للعقاقير سرعان ما نمت ، وذهب بمدخراته إلى لندن للدراسة عدة سنوات انتهت بدرجة فى القانون .

ولما عاد إلى وطنه فى لاجوس جدد نشاطه فى الأحمدية ولكن داخاه شعور خيبة الرجاء . لقد تقدمت نظرياته التحررية لعدة عقد ، كما أن الادعاء بأن أحمد هو المسيح المنتظر كان غصة فى حلقه . وبينما كان الأحمدية يفعلون الكثير فى ميدان التعليم ، فإنه قد خطر لأغسطو أن اهتمامهم كان ينحصر فى الهداية أكثر من تأسيس نظام حديث للدراسة . وقال : « لاح لى أن المبشرين الأحمديين كانوا يشابهون زملاءهم المسيحيين فى هذا الصدد إلى حد يثير القلق ، كانوا أكثر رغبة فى نشر رأى طائفهم الإسلامية من احتضان التقدم الإفريقى » .

وبعد . نضى بعض الوقت انفصل أغسطو عنهم تماماً . ونظم مع آخرين يشاطرونه آراءه « الجماعة الإسلامية » التى هدفها « التعليم ، والتفكير الحديث ، واستعمال العقل ، ومنع إفريقيا الأشياء السامية فى الحياة » .

وبعد أن فرغ من سرد تاريخ حياته الخاصة النشطة . حرك جسده الضخم على الأريكة . ثم مال إلى الأمام مفكراً . ثم بدأ يتكلم عن الأفق الأوسع .

« إن الإسلام ينتشر بسرعة فى إفريقيا الاستوائية . وليس لدى دراسات إحصائية لإثبات ذلك ، فلا توجد مثل هذه الإحصائيات . ولكن ما عليك إلا أن تنظر حواليك . بعد أن مكث ببلى جراهام هنا فترة بدأ يتكلم كرجل مرتعب ، كما أن بعض أصدقائنا المبشرين الكاثوليك يرسلون إلى بلادهم تقارير مدعورة » .

وتكلم عن رغبته فى إمكان أن تكون هنالك دراسات أساسية يقوم بها أشخاص لهم قدرة التحديد الإحصائى للمركز الدينى الحقيقى فى إفريقيا . « ماذا يقصد حين يقال إن المسيحية تخسر ؟ هل يعنى أن المسيحيين لم يعودوا يستطيعون كسب أتباع جدد من الشعوب غير المسلمة فى إفريقيا ؟ أو هل تعنى أن أتباعاً سابقين مخلصين للمسيحية ، أو غير مخلصين ، قد تركوا الكنيسة ليملحقوا بالجامع ؟ إذا كان الإسلام يكسب فى أى المناطق فى إفريقيا ؟ هل يكسب الإسلام فى المناطق التى كان راسخ القدم فيها قبلاً ؟ أو هل يتقدم حيثما كان يابوح أن المسيحية قد وطدت أركانها ؟ أو هل هو فى الأجزاء المحايدة . المناطق الانتقالية بين الشعوب الخاضعة أصالة للإسلام وغير المسلمة . مثل حزامنا الأوسط هنا فى نيجيريا ؟ هل يتقدم الإسلام فى القرى أو المدن والبلاد فقط ؟ ما موقفه من الطبقة المتطورة أو النخبة الصاعدة ومن الجماعات ذات الدخل الضئيل ؟ هذه هى بعض الأسئلة التى أود إجابة واقعية عنها . وحينئذ نعلم أين نقف وما يجب عمله » .

ومرة ثانية حول أغسطو جسده الضخم وجذب أنفاسه . لقد بدأ يتحمس إلى توقعات كثيرة بغض النظر عن الإحصائيات .

« سوف أقول لك لماذا أعتقد أن الإسلام كسب » فأولا لا تحوط به شبكة من نظام الإرساليات الأحمدية منظمة تماماً كالجماعة المسيحية ، ولكن الباقين السنيين والتحرريين يعملون بمبدأ أن كل شخص ناشر لدينه . إنه يشابه نداءنا السياسى : « للرجل الواحد صوت واحد » ، فالرجل قد يكون محامياً موسراً مثلى ، وقد يكون جاهلاً . أو بائعاً متجولاً مفاساً يتجول فى البلاد الداخلية لبيع بضاعته فى قرى وثنية ، ولكنه : مهما كان . رسول الإسلام . وأبنا ذهب فى ترحاله فهو يتوقف فى المواعيد المحددة لإقامة الصلاة ، ويلاحظ الشعب ويستمتع ويتأثر . »

وقد سمعت شخصياً عن قصص تروى كيف أن الباعة المتجولين قد أشاعوا الفضول عن الإسلام فى أثناء ترحالهم من بلدة إلى أخرى : فى الأعراس أو مناطق الغابات ، ولكنه كان اغزاً لدى ، كيف أن هذا الفضول قد تركز فى مجتمع إسلامى منظم . وقد أعطانى أغسطو الإجابة : « قد يعجب التجار الذين يحملون بضائعهم أحياناً ببقعة فيستقرون فيها . وفى مدة وجيزة جداً يصبحون من تلقاء أنفسهم أولياء وخدمة للدين . وتنعقد طائفة حول مثل هذا الرجل ليعطيهم تعاليم القرآن . ويقوم بتحديد مساحة مربعة للصلاة بأربع قطع من الخشب . وتزداد الطائفة عدداً بالتدريج وتجذب الشباب ويبدأ رويداً . وبمرور الوقت يبنى جامع من الطين على المنطقة السابق تحديدها للصلاة ، وبذلك يتأسس مركز جديد للإسلام . »

« هذه هى الطريقة التى قد تحدث فى قرية ، ولكنك يجب أن تذكر أيضاً أن الشباب يترك القرى بكثرة فى هذه الأيام . إنهم يسمعون قصصاً مثيرة عن حياة المدن ، وأعتقد أن لكم معشر الأمريكيين أغنية فى هذا الصدد . » كيف تبتئهم فى المزارع بعد أن رأوا باريس ؟ « حسناً إنه نفس الوضع هنا . يرغب الشباب فى التحرر من سلطة الكبار التى تكون جزءاً هاماً من

حياتنا التقليدية كما يريدون أن يريحوا ما لا يمكنهم من الزواج . وعليه فإنهم يتجهون إلى المدن الكبرى ، وتعد هذه لأغليبيتهم تجربة مؤسفة في المبدأ . فالحياة وحيدة ومرتبكة . هم يعملون ساعات طويلا ، أو يتجولون منثاقلين يبحثون عن عمل . وتنقطع جميع الروابط المتينة مع القرية إذ هم بعيدون جداً عن طمأنينة الحياة الروحية في القرية . وفي المساء يعودون إلى مأواهم ولا يجدون أحداً يرقصون معه ، أو يتعبدون . ويأتى يوم يسأل فيه شخص : « ماذا تعلم عن الإسلام ؟ تعال معى وألقى نظرة » ويفعل ، ليجد نفسه مرحباً به في جماعة يتعبدون ، ويقولون بقوة كيف أن كل الأشياء تأتى من الله ، وكيف أن كل الأشخاص إخوة في تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويجد أيضاً أن هنالك حياة اجتماعية في الإسلام لها تأثير محبوب . هنالك الكثير من الرقص والطبل والاحتفالات والرؤساء إفريقيون مثله تماماً ، وهم غالباً لا يتقاضون أجراً لعملهم الدينى ، ولكنهم يمتهنون عملاً آخر يتعيشون منه . وفي مدى قصير جداً يكون في طريقه للإيمان . وحينما يؤمن لا يشعر بعد ذلك أبداً بالوحدة أو الضياع ، ولا يهجمه أن يحاول العمل في أى بلد ، فسوف يستطيع أن يجد أستاذاً ليتابع تعليماته ، كما يستطيع أن يجد إخوة يأكل معهم ويصلى معهم ، ويرقص معهم ودائماً ما ينتقدنا بعض أصدقائنا المسيحيين لأننا لا نتطلب من المهتمين أن يقطعوا أنفسهم كلية من جذور أديانهم القديمة ، وما يؤخذ علينا الزعم بأنه من المخجل أن المسلمين في المدينة حينما يعودون إلى قراهم يرتدون بسرعة إلى مزاوله حياتهم الروحية التقليدية . وأنخشي أن أقول إن هذا الزعم يظهر نقصاً مخجلاً لفضيلتى الصبر والتكيف . أنا أعلم أنك في استطاعتك أن تنقل نصوصاً ، إسلامية أو مسيحية لنثبت بها كلا الرأيين في أى مناقشة . ولكن هنالك كلاماً جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول الله تعالى : « لا إكراه في الدين » . ما هو الغنم من دفع الناس بأسرع مما يستطيعون ؟ إن ديناً جديداً يكون تغلغله أحسن ، إذا تغلغل ببطء ، وحينما يحتفظ باحترام كل ما هو قيم في المثل والمزاوالت القديمة ، ومن البديهي أن يكون هنالك حدود

لهذا . ولكن معاملتنا تختلف في هذا الصدد عن معظم المبشرين المسيحيين .
 إنى أذهب بين الفينة والفينة إلى القديس كما أحضر كثيراً الخدمات الدينية
 لطوائف بروتستانتية متعددة ، وإنى لمندھش لقلّة ما عندهم من الخصائص الإفريقية .
 إن التكيف الوحيد الذى يلوح أنه موجود ، هو الضغط على الإفريقيين ليتبعوا
 شكلیات الدين الأوروبى . وإن رأى أن هذه طريقة خاطئة لزرع حركة
 روحية عميقة في الأرض الإفريقية ؛ لأن الدين الذى يرغب في الازدهار
 في هذه الأرض عليه أن يتأقلم بإفريقيا .

« وربما تكون قد لاحظت الكندرائية الكاثوليكية التى تبنى في مارينا .
 لقد تعجبت كيف يلوح أن الأسقف قد تعلم قليلاً جداً من تجاربه . إنه رجل
 طيب ممتاز ، ولكن يلوح أنه لم يسأل نفسه قط لماذا ينتقل كثير من الإفريقيين
 من الكاثوليكية إلى الإسلام ؟ ويعود هذا الإخفاق إلى عدم تفهم استحالة
 القطع التام الفجائى لماضى الشخص الدينى . إن الشاب الإفريقى ، بمجرد أن
 ينال بعض التعليم ، يتطلع حوالیه لوسائل يثبت بها أنه أضحى رجلاً جديداً .
 وتجذبه الكاثوليكية لموقفها المتعارض مع الوثنية . وبذا يصبح مسيحياً . فهو
 من ناحية ينفجر بعيداً عن تقاليدہ ، ويجتمع بآخرين في مجتمع غريب كلية
 عن باقى قبيلته أو قريته ، ولكنه كلما تقدم في السن وجد أن وحدته أقل اقرباً
 إلى نفسه . ويمنحه الإسلام بديلاً ، فلا يحتاج إلى أن يعود ثانية إلى الوثنية
 ليستعيد شخصيته الإفريقية . ويجد السلام في دين أسمى يساير الحياة
 الإفريقية جداً .

ومهمتنا أن نجعل هذه المرحلة من الوثنية إلى الإسلام خالية من البلبلة
 ما أمكن ، فإن في الحياة الإفريقية ما يكفى من الاضطراب بدون أن نضيف
 إليها من عندياتنا . إننا لا نتوقع من الحديثى الإيمان أن يصبحوا قديسين
 مسلمين ما بين يوم وليلة . إننا نشجعهم على أن يتحسسوا طريقهم إلى
 الواجبات والالتزامات الأكثر شدة ، وكل ما نسألهم أن يعدوا به ، هو أن
 يكونوا مخلصين في محاولاتهم أن يتعلموا أكثر عن دين النبى (صلى الله عليه
 وسلم) وأن يعلموا أولادهم الدين الإسلامى .

« وللإسلام ميزته الكبرى هنا . لم تتشكل نظريته الخارجية بالغرب كما حدث في المسيحية . إن الهوة بين المسيحية الإفريقية والأوربية ضخمة ، في حين لا توجد صعوبة في الإسلام في تفهم العقلية الإفريقية . ولقد سمعت المبشرين المسيحيين يقولون إن الإسلام دين لبدو الصحراء ، وإنه يستحيل عليه تفهم سير عقل الفلاح الإفريقي . وإنني أقرر أن الإسلام معد من أكثر من ناحية لتفهم الفلاح الإفريقي ، أكثر من المسيحية الغربية ، بل إن البعض من أحسن الفلاحين لدينا مسلمون .

« ماذا تظن اعتقاد الفلاح الإفريقي في عدم زواج القسيس الكاثوليكي؟ إن الفلاح الإفريقي لا يمكنه أن يتصور نفسه رجلاً كاملاً حتى يتزوج . إن اجتماع الذكر والأنثى ، وإنتاج النسل ، وتوافقات العالم الجسدى . ولا سيما من الناحية الجنسية ، كل هذه لها جذورها العميقة في الأرض الإفريقية . ويرفضها القسيسون الكاثوليك لأنفسهم ويعطى المبشرون البروتستانت الإيجاء بأنهم يعدونها فاسدة . والإسلام من ناحية أخرى يقدر مشكلة الإنخصاب . إن المغريات الجسدية للمرأة والرغبة التي تستعر في عروق الرجل لا تخيفان المتدين المسلم ، ولا زوجته . لقد أدارت المسيحية ظهرها منذ زمن طويل لمواضيع الإنجاب ، ولم يقع الإسلام في هذا الخطأ .

وهناك كلام كثير عن تحلل الإسلام الأخلاقى . وعادة يعنى هذا إخفاقنا في أن نفرض على المؤمن حديثاً أن يتزوج من واحدة فقط . صحيح تماماً أن تعاليم الإسلام تقبل تعدد الزوجات . ولكن دعنا نسأل أنفسنا لماذا يشعر الكثيرون من الإفريقيين كما يشعرون إزاء تعدد الزوجات ؟ هل لأنهم منحلون أخلاقياً ؟ أبدأ إن الحياة بالنسبة للإفريقي تدور حول استمرار العائلة . إن في مجتمعنا التقليدى لا يوجد مكان لامرأة غير متزوجة . إن الكثيرين من الإفريقيين يخشون أن مبدأ الزوجة الواحدة في إفريقيا قد يترك عدداً ضخماً من النساء بدون زواج مما يؤدي فعلاً إلى تشجيع التساهل في النواحي الجنسية . وإن المركز الطبيعى لحياتنا هو العائلة ، وتعتقد أن تعدد الزوجات هو الوسيلة للاحتفاظ الرب والله وجود

بالأرامل والبنات داخل نطاق طمأنينة العائلة أكثر من خارجها. وأن كل الفروع الإسلامية الأكثر علماً في إفريقيا تشجع الزواج بواحدة . ولكن تغييرات من هذا النوع لا تتم بأوامر رسمية . إن التحول عن مبدأ الزوجة الواحدة يلوح منطقياً جداً بالنسبة للإفريقي في المدينة ، ولكنه بعيد جداً عن الصحة في القرى .

وهذا يذكرني بشيء آخر . هنالك كثير من اللفظ بين المسيحيين لأننا لا نمنع أضحية الطقوس بين من نهديهم . ومرة ثانية هذه حالة من حالات الولاء للقبيلة منذ أمد طويل تنادى بالأضحية كمشاركة في النفع العام . فالضحية معناها التنازل عن شيء غال . والفلاح البسيط ، في تتبعه سبل آبائه يقوم بلا أى تردد بالتضحية بثروة كمشاركة في طقوس تغذيه روحياً ، أو تشفى مريضه أو تضمن سلامة أولاده . فإذا أضحى مسيحياً لاقى تقطيباً حتى لو كان ما قدم لا يربو على دجاجة . ونحن نحقق في أن نرى أن هذا التحكم التزمى يساعد الشخص حقيقة على أن يعيد التفكير في علاقته بالله .

« إننا لا نميل إلى أن نطالب ، باسم الأخلاق ، بأوامر تتحدى قدرة الأشخاص المهتمدين حديثاً . وإذا كان الكثير من الإفريقيين يفضلوننا على المسيحية ، لأننا أكثر ليونة ، فإنى أقول إذاً إن هذا لمصلحتنا ولا داعى لأن نعتذر عنه . إن مسألة التكيف طريق ذواتجاهين . إن الإفريقيين يتعلمون من الإسلام ، ولكن الإسلام أيضاً يتعلم من الإفريقيين ، من الأحاسيس في نوع حياتنا . إن أدياننا القديمة ودودة ، ودودة جداً ، بل خيالية في صفاتها الإنسانية . ولم تكن الآلهة القدماى كائنات بعيدة متعالية . كانت قريبة وشخصية .

إن الإسلام في إفريقيا الاستوائية أقل تأملاً وبطشاً بكثير عما هو عليه في العالم العربى . إن له خصائص أكثر أرضية واتساعاً ، تعلمها من الحياة الإفريقية . وبهذا يمكن القول إن الإفريقيين قد تلقوا الإسلام وطوروه طبقاً لأذواقهم . « وأقول إن هذا حسن وإننى لمعيد حتماً أن أرى الطوائف المسيحية قد بدأت في أن تكون أقل مقاومة للتكيف مما كانت . وفي الواقع أننى لا أستطيع أن

أجد شيئاً أقل تعقلاً من استمرار الحرب بين المسيحية والإسلام على أرواح الإفريقيين . إن الاختلافات سوف تقوم بيننا دائماً ، ولكن كما وصفها أحد حكمائنا المسلمين وصفاً جيداً إذ يقول : « إن إفريقيا كالمستشفى حيث يموت العجوز ويولد الصغير . وتوجد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأطباء والمرضات لكفالة الراحة وتخفيف الآلام ، والقيام بأعمال التوليد بمهارة ، والرعاية بالمولودين حديثاً . وإننا لنطلب الكثير إن كنا نتوقع أن يصير الإسلام والمسيحية شركاء في هذا ، ولكن ما دام كلاهما مطلوباً فلا داعي لأن يكونا أعداء . إن إفريقيا مكان لقاتلها وليست ساحة قتالهما .. »

ويجب إعطاء الرئيس الإمام الحاج ل. ب أغسطو كل الحق في التحيزات التي يحملها . إنه يشايع ويدافع بصراحة وعلناً عن دينه ، ولكنه أيضاً رجل عاقل حر التفكير ، وقد تركت غرفة جلوسه المزدهمة وأنا أشعر أنني كنت في حضرة عقل واسع .

ومن البديهي أن هنالك الناحية العكسية في الإسلام أو ما يمكننا أن نسميه الجانب الإنساني المتطرف ويستحق هذا تأملنا :

مثالب الهلال

إن مثالب الهلال الإسلامي الإفريقي لما يدعو إلى عدم الاطمئنان . ليس للإسلام رهبان ، متخصصون ولكن له رجال دين (كهنة) — مشايخ . وبين الكهنة في كل الأديان وكل الأزمان أنذال يخدمون أنفسهم ، ويلوح أن المسلمين الإفريقيين قد ابتلوا بنسبة عالية غير عادية منهم ، ولا سيما في مناطق البلاد الداخلية . إن أغلب الكهنة جهلة جداً ، وهم — حتى مع منتهى حسن النية — محرك ضعيف جداً في التطور الفكري للإفريقيين الذين تحت رعايتهم . ومما يبعث أكثر على الإزعاج ، الطريقة التي يقحم بها الكثير من هؤلاء الكهنة

أنفسهم في مزاولات السحر التقليدية ليحاولوا لفائدتهم الشخصية . وقد ذكر رئيس الأئمة أغسطو طريقة البائعين المتجولين في الاستقرار في مكان ليصبحوا أولياء في قرية يهدونها إلى الإسلام . وتفقد الصورة جمالها حين يصبح أحد هؤلاء الكهنة غير الرسميين للإسلام صانعاً وبائعاً للأحجية الإسلامية لتحل محل أختها الوثنية ، وبارتكازه على الخرافات القديمة يقنع من هداهم بأن أحجبه تستمد قواتها السحرية من الله .

والواقع أنه ربما يقنع الناس بألا يقدموا الأضحية للأرواح القديمة بأن يعدم الحماية بواسطة سحره الإسلامي ، الذي له من البديهي سعره . والقرويون البسطاء هدف سهل لمثل هذا الباب . ويقوم الولي الإسلامي بعمل أحجية سحرية عليها كتابة . والمعتقد الإفريقي التقليدي في قوة الكلمة هو الذي يسبغ على هذه التعاويذ الكتابية جمالها الأسر .

ويظهر بعض هؤلاء الأولياء تطوراً مذهشاً كسحره . ويصف ترمنجهم تعاويذهم بأنها تحتوي على « آيات من القرآن وأسماء الملائكة والجن وصيغ غامضة وجداول سرية » ، والمربوط (الولي) وحده هو الذي يستطيع أن يقول منى وأين يمكن استعمالها . بعضها يبطل مفعول السحر الأسود وينكسه على صاحبه ، وبعضها يضر الأعداء وبعضها الآخر يستنزل الرحمة على مستعملها ، بالصحة ، أو الأموال ، أو الأولاد ، أو القوة أيّما كانت الرغبة .

ويبيع أنذاك الكهنة نتاجاً مغريباً آخر بربح ، وهو الماء المستعمل لغسل الآيات القرآنية من ألواح الإردواز ذات الإطارات الخشبية . يعبأ الماء في زجاجات بواسطة الولي ويباع كدواء . ويمكن شربه أو دهن الجسم به تبعاً للنتائج المرجوة ، وتستعمله بعض النساء لإرغام أزواجهن على طلاقهن ، مما ينتقل بنا إلى وجهة أخرى أقل جاذبية في الإسلام الإفريقي .

هنالك تضارب غريب في مركز المرأة التقليدي في الحياة الإفريقية . فأساساً مهمة المرأة هي إنجاب الأطفال . ومع ذلك فإن الإفريقيين يذهلون أحياناً حينما يعلمون أن الزوجات الأمريكيات لا يتمتعن دائماً بسيطرة كاملة

على أموالهن . ومنذ فجر التاريخ كان المتوقع من النساء الإفريقيات أن يقمن بالأعمال الثقيلة ، ولهن مركز اجتماعي ضعيف جداً . كما ليس لطائفتهن سوى نفوذ سياسي ضئيل ، ومع ذلك فإن النساء في مجموع القرية كن القوامات على العائلة وبالأحرى على الجنس .

وقد وردت التغييرات فجأة وبسرعة . ولم تنس القرية الإفريقية تحرير المرأة ، فرجل واحد صوت واحد يعنى النساء أيضاً ، إلا في المناطق التي يسيطر عليها النفوذ الإسلامي . هنالك تقاوم قيود الإسلام التقليدية رياح التغيير ، ليس فقط في المشاركة السياسية ، ولكن أيضاً في التعليم ، على ما له من أهمية جوهرية في التقدم .

ويحاول الأحمديّة والجماعة الإسلامية بنشاط إعطاء النساء حرية أكثر ، وفرصاً تعليمية أكبر ، ولكن في مناطق كالسودان ، وزنبار وشمال نيجيريا ، حيث تتحكم الدنية ، تعيش النساء تحت جثام قديم من عزلة وجهل .

وهناك مظهر غريب لدور المرأة تحت النفوذ السنّي الإسلامي ، هو التشجيع الذي يعطى للدعارة في أسواق ومدن إسلامية كثيرة في غرب إفريقيا . إن عادة إهمار العروس تفرض شدة حقيقية حينما تستقر التدرجات الإسلامية الاجتماعية الجامدة ، فالرجال في الطبقات غير السعيدة فقراء لدرجة أنهم لا يستطيعون دفع مهور الزواج . يجب أن يستغنوا عن الزوجات ، وتزدهر الدعارة بناء على هذا الموقف . ولا نعتقد أنه سوف يحدث رد فعل من الكهنة المسلمين ، أو الرؤساء أو الوطنيين عامة إلا بعد أن تصل إلى درجة لا يمكن ضبطها . وأن المظهر المتناقض جداً هو أن هؤلاء المومسات هن - طبقاً لكلمات رجل مراقب - « الأكثر حرية ، والأكثر خبرة ، وغالباً الأحسن تعليماً ، في نساء غرب إفريقيا المسلمات » . هن يحضرن صلاة النساء في ملحق الجامع ، ليس لزاماً ليجدن عملاء ، وسوف تجدهن يحضرن مدارس القرآن .

إن القدس الجديدة التي يتطلع إليها الزعماء الإفريقيون المجددون هي مكان تكون فيه النساء شريكات كاملات ، وليس مجرد شريكات فراش ، أو طبائحات ، أو حاملات للأثقال ، أو للأطفال ، أو مومسات متعلمات وهذا يعني مشاركة كاملة يقاومها الإسلام ويخربها في كثير من مظاهره الإفريقية^(١) .

(١) أرجو أن يلاحظ القارئ أن كل « المثالب » التي نسبها المؤلف إلى الإسلام ، هي - إن صحت - مثالب نحو القائمين بنشره ، وليست موجهة إليه شخصياً .
 أما فيما يتعلق بمركز المرأة في الدين الإسلامي فلا شك عندي في أن المؤلف يجهله تماماً .
 ولا يعني هذا إهمال ما ورد في الكتاب ، بل العكس هو الصحيح ، إذ يجب أن يوضع المبعوثون الإسلاميون ، المبشرون ، تحت مراقبة شديدة حتى لا يسبوا إلى سمة الإسلام .

وجهات نظر المناطق غير المرتبطة في إفريقيا

هنالك مثل داهومي قديم يقول : « إن الرجل لا يجرى على الأشواك للأشياء ، فلماذا أن يكون مطارداً لثعبان أو أن يكون الثعبان مطارداً به » . إن أعداداً متزايدة من الإفريقيين ينظرون إلى الالتزام الديني نظرتهم إلى مهد من الشوك لا يميلون في الوقت الحاضر إلى الجرى فيه ، فهم لا يطاردون « بحيات » طائفية . وفي المناطق التي يسود فيها الإسلام ، يكون الإفريقيون من هذا النوع مسلمين تبعاً لميلادهم ونشأتهم ، ولكنهم أقرب لأن يكونوا سطحيين من أن يكونوا ورعين . وحيثما يكن الإسلام والمسيحية في تنافس لجذب الانتباه لهما والالتزام بهما ، فهناك ميل للنظر باهتمام خفيف لا أكثر .

قال أحد نواب توم مبوبا في نيروبي : « إنني لا أعرف سوى القليل جداً عن الإسلام ، يلوح أنه يكسب ، وربما يكسب لأنه الدين الأحسن . لقد تأثر بعض أصدقائي لأنهم يقولون إن المسلمين يزاولون دينهم ويعيشون فيه ، ليس فقط في شعائريهم ، ولكن في الطريقة التي يعاملون بها زملاءهم في الإيمان ، وفي اتجاههم ، اللاعنصرى . وفي حياتهم الاجتماعية وفي شعورهم بكرامتهم الشخصية ودرجته كتنفيه واستمر : « وبشعر الكثيرون أن المسيحية كانت جزءاً من خداع إفريقيا . إنهم يرتابون في الأديان جميعاً ، ولكنهم أقل ارتياباً في الإسلام . ولا يعنى هذا أنهم يشجعون الإسلام ، ولكن نظراً لتفردهم من المسيحية . فإنه لا يعتقد أنهم سرف يقاومون النشاط الإسلامى في دوائريهم . وفي الوقت نفسه يميلون إلى أن يكونوا أكثر دنيوية في مواقفهم ، فالانتعاش الثقافي والمصالح الأخرى ذات الطبيعة السياسية والاقتصادية تجذب اهتمامهم بتزايد ، وتقل حاجتهم إلى التزام ديني ذي طابع رسمي » .

ما السبب في وجهة النظر هذه ؟ إنها غير متفشية سوى في جزء من شعب

إفريقيا ، ولكنها واضحة ومعينة : «داهنة تجاه الإسلام ، وعداء تجاه المسيحية .

أولا هناك ترتيب عام وإن لم يكن محدداً تجاه الدين المنظم . هذا النوع من الإفريقيين غير مستريح للدين التقليدي لشعبه . وهو يعلم أن إفريقيا لا تحتكر الخرافات ، ولكن ربما كان لها أكثر من نصيبها فيها . ومع هذا فإن فلسفة الخلاص بعد الموت التي تقول بها الأديان المدعى بأنها الأرقى تلوح له أنها خيالية . إنه يشعر أن الدين في مدنيته قد تأخر باستمرار علمياً ومادياً ، ولكنه حين ينظر إلى بقاع العالم حيث التقدم المادي كان واضح التأثير ، وبخاصة في الغرب فإنه يجد أن المسيحية تمجد في حين أن المادية هي التي تزاوَل . ويكون استنتاجه أن مثل هذه الدول لا تأخذ دينها بجدية ، أو على الأقل أن ليس للدين إلا القليل إزاء كدهم الاقتصادى والاجتماعى . المادية هي طريقهم في الحياة ، وإنما تعطى نتائج . والدين نوع من الزغب . هو يعطى نوعاً من الاكتفاء الذاتى ولكن لا أهمية له في النظام الجوهري للأشياء .

ولا يعنى التمدن بالنسبة للإفريقيين الذين قد فكروا في الأشياء على هذا المنوال ، الانفصال عن خرافاتهم المحلية فقط ، ولكنه أيضاً الانفصال عن الدين المنظم عامة ، ويعرب هذا الانفصال عن نفسه بكره للمسيحية ومحاربة بدرجة أقل للإسلام .

وقد وضَّح لى هذا الوضع رجل ممن ينتمون إلى هذه الفئة ، وهو أبيبيو من شرق نيجيريا ، متعلم تعليماً عالياً بقواه : « بجانب الميول التحكيمية للدين الإسلامى أجد أن الرجعية في المجتمعات الإسلامية من الناحيتين السياسية والاجتماعية لا يمكنها المنافسة مع التجديد . في نيجيريا قاومت الطبقة الحاكمة في الشمال الإسلامى حركة الاستقلال . وكانت امتيازاتها تحميها سلطات الاستعمار . وكان موقفهم إزاء التعليم الحديث فاضحاً . والآن مع الاستقلال بدأت الطبقات الحاكمة في هذه المناطق الإسلامية تدريجياً في

إظهار بعض التجديد ، على الأقل لدرجة لا يضطرب معها مركزها الاجتماعي والسياسي . ولكن بنى الإسلام لدرجة كبيرة جداً حجر عثرة أمام التقدم في هذه المناطق الإفريقية حيث كان سائداً . فهو يحمي الطبقات الإقطاعية من مشاركة المجموع في الحياة السياسية والاقتصادية في المجتمع . وفي السودان لم تستطع الحكومة المدنية المنتخبة ، ولا النظام الحزبي الحالي ، زحزحة المركز الحصين للمتعصبين الذين يديرون حركة المهدي ، فإنهم مازالوا يقبضون على عنق السودان .

إذا كان في هذا عداً فإننا سرف نبجده ، في صفحات قادمة ، لطيفاً نسبياً إذا ما قورن بالمواقف الانتقادية تجاه المسيحية . إن رد الفعل عند هذا النوع من الإفريقيين بهداً عادة بما يمكن أن يسمى :

حسنات الإسلام

أولا هنالك حسن حظ الإسلام في أنه لم يكن له علاقة بعناصر حكم الاستعمار ، يتكلم الخطباء المسيحيون بحق عن مباركة القرآن للرق ، وإلى تجارة الرقيق الشائعة اللاهية التي قام بها الغزاة والتجار المسلمون في الأيام القديمة . ومن الغريب أن تأثير هذه القضية ضئيل جداً من وجهه النظر الإفريقية المرتابة . وعادة تطرح جانباً كإحدى الدعايات المسيحية الاستعمارية التي تهدف إلى الإبقاء على الانقسامات في إفريقيا . ومثل هؤلاء الإفريقيين سوف يحتجون بأن الإسلام ، فوق كل شيء ، قد أظهر قدرة أضخم بكثير من المسيحية في مساندة التطلعات الإفريقية .

ومن ناحية العنصر بالذات ، كان الاتصال بالمبشرين المسلمين دائماً شخصياً وحراراً وإنسانياً . وهذا على النقيض جداً من ممثلي المسيحية الذين اتصل بهم الإفريقيون ، والواقع أنه فضل للإسلام أنه لم يتم حواجز

عنصرية سواء في الزواج أو غيره في إفريقيا . المؤمنون متساوون إذا تكلمنا عن العنصر ، وهم فعلاً كذلك في داخل مجتمعاتهم . لم يرق جامع أبداً لهذا العنصر أو ذاك ، أو لهذه الطبقة أو تلك .

ومنذ بداية القرن وجه إدوارد بلايون في كتابه « المسيحية والإسلام والجنس الزنجي » الاهتمام إلى بعض مزايا الإسلام الرقيقة فيما يختص بالعنصر ، وأشار إلى أنه على عكس المسيحية ، ليس للإسلام تماثيل ، لرب أو مسيح ، أو ملائكة بيضاء ، أو مريم العذراء . ليس له تماثيل ، أو نصب ، أو كتب قصص مصورة ، توحى بأن أبطال الخلاص المقدس جميعهم غير سود .

ومع عدم وجود هذا الحاجز النفساني كان من السهل على الإفريقيين تقبل الإسلام كدين وطني حقيقي . ولم يتكلم المبشرون المسلمون أبداً عن دفاعهم عن القيم الإسلامية العربية ، « كما تكلم كثير من المبشرين المسيحيين رافعين قدر « القيم المسيحية الغربية » .

وعامل آخر هام هو اختيار الشباب الإفريقي من مدة للتدريب في القاهرة والخرطوم كمبشرين مساعدين . قبل أن تعطى الجماعات المسيحية أى فرص ذات قيمة للإفريقيين في رياسة الإرساليات بزمان طويل كان الإسلام ينتشر بواسطة رجال شاركوا الشعوب الإفريقية أحاسيسها الرئيسية ، لأنهم هم أنفسهم كانوا من هذه الشعوب . لقد تدخلوا بدون أية قيود عنصرية أو طبقية . وبغض النظر عن اللون ، فإن الشعور الطبقي ظاهرة شاركها زعماء المسيحيين الأوروبيين مع مجتمعاتهم المدني . إن الحواجز الطبقيّة موجودة في الإسلام ، ولكن في أشكال تقليدية عليا معروفة للإفريقيين ، وفيما عدا ذلك فهناك روح مشاركة قوية في المجتمع الإسلامي تضارع مثيلاتها في حياة القرية الإفريقية . وهناك أيضاً طريق مسنون في الإسلام لرعاية الفقير شبيه بما في الحياة القبلية .

وأخيراً وليس آخراً ، حوّر الإسلام نفسه طبقاً للمجتمع الإفريقي ، ولم يشغل كاهل مهتدية بطلبات نابعة من طريقة حياة أجنبية . إنه يفي

بمجايات مختلفة لمجتمعات متباينة ، كما أن له القدرة على تقوية أواصر المجتمع وأواصر العائلة ، ودستوره الأخلاقي على الرغم من أنه مستبد في نواح كثيرة - جسر قوى للتجديد . إنه كان حقيقة قوة أخلاقية للطبقات الدنيا ، تساعد الكثيرين ليحيوا حياة كريمة ذات احترام نفسي وسط تغيرات مضطربة . إنه قادر على خلق الرأى في مجتمع ، والترابط بين جماعة ، متجنباً بذلك الهلهلة التي غالباً ما توجد على أشدها في الطوائف والملل المسيحية المنافسة ، هذه قيم محترمة في أنحاء إفريقيا يحترمها حتى هؤلاء الذين ليست لديهم نية شخصية أن يصيروا مسلمين .

ولا يوجد أدنى شك في أن الإسلام سوف يستمر في كسب أعضاء جدد من الشعوب الإفريقية في مناطق إفريقيا المكتظة المتحضرة . إن التباعد والتفور الاجتماعي سوف يزدادان قطعاً ، وسوف يجد الكثيرون راحة من يؤسهم الأرضى في الإسلام . وسوف يحدث هذا خاصة إذا لم تستطع حكومات هذه البلاد أن تتقدم تقدماً اقتصادياً يؤكد تشغيل الوافدين على المدينة لأن الفردية تحل محل طمأنينة القرابة القديمة والحياة القبلية ، ولأن التطور الصناعى المخطط يتقاعس خلف انتشار الاضطراب الاجتماعى .

ولغالبية الإفريقيين إعجاب متجدد بالإسلام . والواقع أن هذا من أكبر أسباب استمالة الإسلام للملايين الذين لم يتصلوا به قبل . إن أول احتكاك للإفريقيين بالإسلام ، وهو لا يعلم شيئاً عن تاريخه أو نظرياته ، غالباً ما يكون مثيراً . وقد قال لى إفريقى من الطلبة الذين يدرسون فى بوسطن : « إن تعليمنا فى بلدنا أو فى الخارج لا يعدنا إعداداً كافياً لفهم الإسلام . إن المسيحيين فى إفريقيا مشغولون جداً بحمايتنا من مختلف الآراء . حتى لا يفسدوا سجاياتنا الطفولية . وإنى غالباً ما أدهش لجهل العدد الضخم من الإفريقيين المسيحيين بالعالم . إنهم بمقدرة عجيبة فى حفظ الإنجيل حفظاً تاماً ، ولكن فضولهم لا يجاوز هذا الحد . إنهم يحتاجون إلى أن يعلموا

عن الإسلام ويحتاجون إلى أن يعلموا عن العالم . بالعلم يستطيعون أن يحكموا بأنفسهم » .

إن الإسلام سوف يحكم عليه الإفريقيون المتعلمون على أساس قدرته في تطوير نفسه لمقابلة الاحتياجات العصرية ، وفي المساعدة في تطوير الشخصية الإفريقية . وعموماً ، فإنه بالنسبة للمجموع باق ، وسوف يبقى معتقداً مستمراً في تقدمه ، هلالاً لاهياً على قارة مضطربة . ومهما كان شكل مستقبل إفريقيا فإن الله (الإسلام) يلوح أنه مقدر عليه أن يلعب دوراً رئيسياً .

مملكة المسيح في إفريقيا

إذا ما نظرت ورأى إلى تجاربي في إفريقيا ، أقول إن من أكثر الإفريقيين الذين قابلتهم شبيهاً بالمسيحية ، هر كينيث دافيد كواندا « شعبان القومية الإفريقية الأسود » في شمال روديسيا والذي يبلغ عمره ثمانية وثلاثين عاماً . ومع هذا فإن كواندا ليس من أتباع المسيح ، على الأقل ليس بالمعنى الشكلي . إن الذهاب إلى الكنائس المسيحية جزء من حياته الراهنة ، تماماً كصنع الإبر الحادة الطرف ، ولكنه نشأ في عالم الإرساليات المسيحية ، حيث كان والده اليد اليمنى للمبشر وكانت والدته زعيمة النساء .

ما الذي يجعل شخصاً في مثل رقة كواندا يبتعد عن حَمَلِ المسيح لينحاز إلى نمر إفريقيا السياسي ؟ إن أى إجابة زلقة عن هذا السؤال ، غالباً ما تكون خطأ ، ولكن السؤال نفسه يذهب إلى جذور موقف المسيحية في إفريقيا . ولا يمكن فهم كينيث كواندا كشخصية منفصلة ، إذ أنه رجل وقته وعصره ، نتاج القوى التي تشكل إفريقيا الحديثة .

منذ أكثر من مائة سنة ، جاء دافيد ليفنجستون إلى شمال روديسيا ليفتح طريقاً للمسيحية والتجارة . وفي الاجتماع الثامن للمجلس المسيحي بشمال روديسيا ، الذي انعقد في سنة ١٩٥٩ ، تبينوا تقريراً جاء في جزء منه : « إن ما بدأه ليفنجستون بنبل ، يلوح أنه قد نما كثيراً برعاية الله . في المدينة والأرياف علت كلمة الرب ويشاهد المسيحيون الأوروبيون والأفريقيون قوتها وحقيقتها الخالدتين في أثناء عملهم » .

ويستمر التقرير في الكلام عن امتزاج مواهب الأوروبيين العلمية والفنية

مع عمل الإفريقيين الذى رفع مستوى الحياة المادية للأوروبيين ، كما عاد على المستثمرين وراءهم بفوائد مالية ضخمة . والمستثمرون إذ يقدمون مبالغ جسيمة له . لم تكن ميسرة من طريق آخر ، يحسنون الناحية المادية لمواطنينا الإفريقيين .

ثم نجد هذه الفقرة المؤلة : « يجب أن نكون أول من يعترف بهذا ، وأن نشكر الرب على رحمته السخية فى خلق الظروف التى شاهدت هذا التدفق المسيحى ، التى أتبع فيها وجود قدرات الإنسان الطبيعية ودهاؤه . ولكننا إذ نفعل . نلاحظ جيداً الجوانب السفلية الخفية المظلمة لجميع مظاهر العمل المسيحى . كما نلاحظ التقدم الاقتصادى لتيارات التحامل والخوف المتلاحقة التى تجرى بسرعة وعمق فى عقول زملائنا المواطنين . وضغوط القرية الإفريقية (خارج الحدود كما فى داخلها) التى تزداد وثوقاً بنفسها ، والتى تسمح أرواح عدد ضخم من الأوروبيين والإفريقيين ، والافتقار إلى علاقة حازمة وواقعية تدعو إلى الثقة والاحترام المتبادلين بين المواطنين الأوروبيين والإفريقيين » .

أين مكان كينيث كواندا فى هذا الجانب السفلى المظلم من صدام إفريقيا مع المسيحية والتجارة ، اللتين شق طريقهما ليفنجنجستون ؟

بالقرب من تشينسالى ، فى أقصى الركن الشمالى الشرقى لروديسيا الشمالية تقع « لوبوا » ، إرسالية الكنيسة الأسكتلندية . وفى الكنيسة الصخرية الضخمة غير المتناسقة فى لوبوا لوحة تذكارية لتصوير دافيد كواندا ، أول قبس بشر شعب بايمبا فى منطقة لوبوا بالمسيحية لمدة ثمانى سنوات . واصل مواطن نياسالاند الشجاع تزكية قضيته فى عزلة منفردة بين قبيلة غريبة ، وكان نجاحه كبيراً لدرجة أن إرسالية كنيسة أسكتلندة عينت مستر ماكين سنة ١٩١٣ وكلفته ببناء مركز دائم فى لوبوا .

ورحل دافيد كواندا إلى نياسالاند ليجد زوجة من بين عشيرته « تونجا » ،

وعاد معه امرأة تتكلم الإنجليزية بطلاقة ، كما كانت قد دربت في إرسالية للعلوم العائلية، وولد كينيث ، الولد الثاني، في سنة ١٩٢٤ ، وهو يتذكر أمه ، كامرأة عطوف وإن تكن محبة للنظام ومتدينة بحماس ، وقد أنشأته مع أخته وأخوته على برنامج منتظم من الصلاة الصباحية والمسائية . وكانت رئيسة منزل البنات الداخلي والمدرسة .

ومنذ مولده تمتع كينيث بأفضل ما في نفوذ الإرسالية المسيحية . وكانت لديه الفرصة غير العادية ، التي نادراً ما كانت مفتوحة لمعاصريه الإفريقيين ، وهي أن يبدأ الدراسة في سن السابعة ، ويتلقى أحسن أنواع التعليم التي كانت وقتئذ ممكنة لأي طفل إفريقي .

وفيما عدا بعض زيارات مأمور المنطقة المقطعة ، لم ير كواندا إلا قلة من الوجوه البيضاء ، كرئيس البعثة ماكين وطبيبها . وكان والده يتولى إدارة الإرسالية في معظم الوقت ، حينما كان ماكين يرحل إلى القرى للتبشير . أو حين يكون مشغولاً في ترجمة الإنجيل إلى لغة سيدمبا . ولما يكن مقتنعاً بنسخة الملك جيمس ، فقد أصر هذا الأسكتلندي المقدس على النقل من الأصلين اليوناني والامبري ، كما عانى الكثير ليكتشف من عجائز القرية الكلمات الصحيحة المضبوطة في لغة سيدمبا لترجمته . ولم يكن للدكتور براون أدنى رعاية لضميره في عمله . كان يسير بلا هوادة في دوراته الطبية من قرية إلى أخرى . وكانت رغبته في أن يكون فرداً من الشعب الذي عمل بينه من التمكن الدرجة أنه ترك تعليمات صارمة بدفنه بالطريقة الإفريقية ، أي ليس في تابوت وإنما ملتفماً في غطاء . ويرقد قبره في لوبوا بجانب زميله العجوز دافيد كواندا .

وكانت الحياة في لوبوا عملية متذبذبة إذا ما قورنت بطرق بامبا الحاملة العادية . فقد أرسلت مؤسسة ناجحة للطوب والإسمنت المواد الأولية اللازمة للتوسع في عدد من الإنشاءات (كنيسة ومدرسة ومنازل للمبشرين ،

(مستشفى) وجاءت النساء من أسكتلندة للتمريض والتعليم ، ولكن لم يسمح لواحدة منهن بالبقاء إذا كانت لا تبغى ، أو كانت لا تستطيع ، أن تتعلم لغة سيمببا .

وعاش البيض في « تل المبشرين » في حين عاشت عائلة كينيث في منزل قريب من المدرسة، ولكن لم تكن هنالك أية تفرقة سواء في العمل أو في العبادة كما كانت هنالك اجتماعات عائلية بين الطرفين .

وكان مركز ماكين كسيد واضحاً ، لقد قبله الإفريقيون كرئيس لمجتمعهم ، وطبقاً لأحسن التقاليد الإفريقية كان هو تحت إمرة شعبه .

وقادت مسز كواندا أطفالها نحو حياة مكرسة لخدمة الكنيسة . وأصبح الولدان وإحدى الفتيات مدرسين ، في حين انخرطت الفتاة الأخرى في التمريض بالمستشفى .

كل هذا يستأهل التسطير ، لأن الظروف لم تكن فريدة ، فإن صفات إرسالية لوبوا الحديدية يمكن تطبيقها في أجزاء كثيرة من إفريقيا . هنالك نواح أخرى لصورة الإرسالية المسيحية كما سنرى ، لكن هنالك وجهة نظر لوبوا أيضاً . ومع هذا فإن كينيث كواندا أضحى لا يهتم بالكنيسة التي تمت فيها تربيته . ومن ناحية أخرى لا يمكن مجرد إسقاطه على اعتبار أنه عاق أو على أنه اغتر .

لما قام كواندا بدورته في الولايات المتحدة في ربيع سنة ١٩٦١ كان المفروض أن يكون ضيفنا في منزلنا ببوسطن ، ولكن نظراً لبعض التعقيدات في برنامج رحلته اضطر لاستبعاد بوسطن من نواياه . وبالنسبة لي كانت زيارتي لروديسيا بعد عدة أشهر فرصة للقاء كواندا أخيراً . إن قيادته لحزب الاتحاد القومي الاستقلالي تؤمله في وضوح لمستقبل سام في انشرون الإفريقية . ولم تصبح روديسيا الشمالية تعد جزءاً من إفريقيا الجديدة ، فإن أغلبيةها الإفريقية الساحقة ما زال يحكمها أفراد قلائل من البيض المستوطنين ،

والإداريين ، والتجار ، ورجال المناجم ، ولكن إذا اجتاز كواندا الأيام القلقة القادمة فإنه غالباً ما سيكون أول رئيس وزارة أسود لروديسيا الشمالية ، لأن مكانته عالية فعلاً بين الأبطال الإفريقيين الحديثين . إنه « أسد روديسيا ومبعوث القدر لإفريقيا الوسطى » .

لوساكا ، عاصمة روديسيا الشمالية الملونة ، لها نزل حقير يدعى (ريد جواي) ، بنى لستقبل ضيوف شركات التعدين الكبيرة ، والزوار الرسميين ، والتجار الرحل ، وحثالة الأوروبيين والأمريكيين . وهناك قابلت كواندا لأول مرة ، ولكن بعد سلسلة من الحوادث كان لها تأثيرها المباشر على مركز المسيحية الحالي في إفريقيا .

صادف وصول إلى (ريد جواي) مؤتمراً على نطاق واسع للعلاقة بين الأجناس ، دعت إليه جمعية اتحاد روديسيا الشمالية . كان اجتماعاً فريداً لإفريقيا الوسطى جمع الرؤساء البيض الرسميين ورجال الصناعة وأقطاب المناجم مع المدرسين والمتقنين السود والخطباء القوميين . ولم يكن كواندا حاضراً . وكانوا يتوقعون وصوله بعد يوم أو اثنين من رحلة سياسية في المناطق الشمالية .

وقضى حوالي مائة من المندوبين مساءهم يستمعون إلى تلاوة أوراق سبق تحضيرها بعناية عن سوء العلاقات بين الأجناس .

وحضرت العشاء مع جماعة صغيرة ، كان من بينها سياسي أبيض من رجال دولة اتحاد روديسيا ونياسالاندا ، وحتى أعفيه من الإحراج لن أذكر اسمه . لقد شرب كثيراً من الخمر ، وكلما ازداد شرباً ازداد ثرثرة وفحشاً . لقد تكلم أولاً عن السود ، ثم أصبحت الكلمة « الغفير » ، وهو تعبير مسيء لكلمة زنجي ، وقال إنه تعب وشتم من الإضرابات الحقيرة التي يثيرها هذا الزنجي الملعون كواندا . وأكثر من ذلك أنه كان يقول إن سياسة الولايات المتحدة تجاه القومية الإفريقية تصيبه بالغثيان . وقد دهر في بانفجار وحشي وهياج مغمور

الرب والله وجوجو

قائلا : « إنني أمقت أمريكا » ، وأعقب ذلك مباشرة بأن أكد أنه لا يقصد شيئاً شخصياً « وهل لي أن أتناول . كأساً ؟ » كان مظهرًا محزنًا لإحدى شخصيات روديسيا الهامة البيضاء ، رجل له مركزه وعضو دائم محترم للطائفة المسيحية .

وكان على المائدة أيضاً مدير المستخدمين الإفريقيين في إحدى شركات مناجم النحاس الكبرى وهو أسكتلندي . وكلما ازداد رجل الدولة النشوان سكرًا ازداد الأسكتلندي محاجة . وبعد ذلك حادثني في البهو بجد زائد . حدثني عن خبرته لمدة اثنين وعشرين عاماً في روديسيا الشمالية ، ومعاملاته مع الأهالي . وقال : « كرجل دين قد دعوت الله كل ليلة طوال اثنين وعشرين عاماً أن أتصرف تصرفاً سليماً مع الأهالي ، وبعد اثنين وعشرين عاماً أعتقد أنني أستطيع أن أقول بأمانة إنني أعرف الإفريقي وميوله وماهيته » . وفي حفل غداء أقامه المؤتمر في اليوم التالي لاحظت شاباً إفريقيًا ، يحمل في يده صينية الطعام ، ويلوح أنه بغير رفيق . وجلسنا معاً وبدأنا فوراً الحديث عن عمله .

كان يحضر المؤتمر بصفة مساعد محرر في جريدة تنشرها شركة التعدين التي كان الأسكتلندي رئيساً لمستخدميها . وكان شاباً جاداً ، ذكياً يتكلم بسهولة عن عمله .

ورآني رئيس المستخدمين وأنا أتحدث مع موظفه الإفريقي ، فأصرع إلينا . وبرعب داخلي راقبت شخصية الشباب تغير نفسها وتتحول أمام عيني . من المحترف الواثق بنفسه ، خفيض الصوت الذي كان يحدثني عن عمله كمحرر في جريدة منجم ، تحول في سرعة البرق إلى تابع نصف أبله مليء بالابتسامات والتحيات . هذا هو الإفريقي الذي كان يعرفه ذلك الذي صلى اثنين وعشرين عاماً !!

إن رجل السياسة ، ومدير المستخدمين لهما أعمال أكثر مما تسمح لهما

أن يفهما عدم اهتمام أمثال كينيث كواندا بالمسيحية .

إن صبا كواندا في الإرسالية المسيحية ، مثلها مثل كثير من شبيهاتها ، بها عيب مفهوم ، إذ لم تستطع الكنيسة أن ترغم نفسها على أن تقدم لطلبها الهيكل الذي تحيا فيه ، أى عدم الاهتمام الدينى للمدنية التى تمثلها ، والواقع الحقيقى من أن المثل المسيحية عدوة لأرباب الحياة اليومية لعالم التجارة والسياسة الغربى . إن أمثال ماكين والدكتور براون وقبيلة لوبوا الإفريقية إنما يتعادلون مع المدنية الغربية فقط في المساحة الواقعة داخل جدران الإرسالية . وخلف هذه الجدران يوجد الاضطراب والوهم . وكيف كان يستطيع مثل كينيث كواندا ، أو آلاف غيره ممن يدينون بمعلوماتهم الأولى عن العالم الغربى إلى مدارس الإرساليات ، أن يعرفوا ، قبل أن يمارسوا التجربة فعلا ، أن القسيسين والكهنة البيض الأوربيين والأمريكيين قد فقدوا من أمد طويل قيادة شعوبهم ؟

وبعد الغداء الخفيف ركبت سيارة خارج لوساكا إلى ضاحية ماييرو المتربة النائية. والى تهبّ عليها الرياح باستمرار . وهى نسيج منبسط من أكواخ المصيص تشابه الصناديق ، ويقطن فيها المواطنون الإفريقيون إذ أن المناطق السكنية للمدينة نفسها للبيض فقط . وفى آخر طريق رملى ينتهى إلى الأحراش ويحترق فى لهيب الشمس ، يوجد المركز الرئيسى لحزب الاتحاد الوطنى الاستقلالى . وهو عشة ذات سطح « متثنٍ ومتعفن » . وكان عدد من الأطفال يلعبون أمامه ، وبينما أنا أسير من العربة إلى المدخل بدءوا يغنون أغنية ، كواتشا ، كواتشا « أى الحرية » ، وأكبر الظن أنهم أرادونى أن أعرف أنهم كانوا من أتباع كواندا . وفى حصن القوة هذا الذى يبعث الرعب فى قلوب الكثيرين من البيض فى روديسيا الشمالية وجدت سيكوتوينا ، أحد نواب كواندا الرئيسيين ، وهو شاب طويل ذو جفون ثقيلة وشهرة فى شعوره العميق ضد الرجل الأبيض . وكان هناك صبي فى حوالى السابعة عشرة من عمره ، يحمل فى يده خطابين ، وبحث وينا فى جيوبه

عن مبلغ كاف يعطيه للغلام لكي يرسل الخطابين بالبريد . ولاحظت أنه لا يوجد هاتف ، وأن أثاث المكتب يتكون من مكتبين قديمين وبضعة مقاعد مكسرة وما كينة كتابة صغيرة لنسخ الوثائق .

وأخبرني وينا أن كواندا لم يعد بعد من الشمال ، ولكنهم يتوقعون حضوره في أية لحظة ، وقلت له إنني سوف أكون في فندق ريديجواي . ثم تحدثنا فترة عن أخ وينا الأصغر ، الذي يدرس في الولايات المتحدة . وتركته ليستقبلني الأطفال بمزيد من أغنية كواتشا .

وفي اليوم التالي في الساعة الخامسة مساء ، طرق الخادم باب حجرتي بالفندق مقررًا أن سيدين في انتظاري في القاعة وهما وينا وكواندا . كينيث كواندا إفريقي وسيم جميل التقاسيم بشرته داكنة جدًا ، وعيناه بنيتان ، وله ابتسامة لطيفة وتصرفات رقيقة تكاد تصل إلى حد الحجل .

وكان لقاءه حارًا . واعتذر عن مظهره إذ كانت سترته الجلدية البنية ما زالت مغطاة بتراب الطريق . وكان قد عاد تويًا من رحلته ، وأتى لرؤيتي قبل العودة إلى منزله للاغتسال .

وذهبنا إلى قاعة الجلوس ، حيث طلب كواندا لبنًا ، في حين طلبنا أنا وينا قهوة ، وقد روض كواندا نفسه بشدة على نظام حياة دقيق ، فهو لا يشرب ولا يسخن ، كما أنه نباتي . وهناك لمسة من اللون الرمادي في شعره الأسود الذي يمشطه مستقيماً على الطريقة السواحلية .

وحدثني عن رحلته الطويلة الشاقة في مناطق الحدود المتاخمة للكونجو . وقال لي إن الشعب كان يفيض عرفاناً بالجميل لاستقلال الكونجو . وقد اخترعوا كثيراً من الأقوال عن الاستقلال على الجانب الآخر من النهر ، فنصف النهر حر والنصف الآخر غير حر ، والسمك حرّ في نصفه وغير حرّ في النصف الآخر — وهم يقولون إن جنود ولينسكي قد أرسلت إلى الحدود لإطلاق الرصاص على الحرية وهي تعبر النهر .

وبينما هو يرتشف لبنه المثلج كان يتكلم عن الجماهير التي استقبلته .
وقال : « مرةً إثر أخرى كان يتجمع عشرون ألفاً أو يزيدون . وكانوا أحياناً
ينتظرون قدومي لبضعة أيام . هنالك مصاعب ، فقد فسدت السيارة أكثر
من مرة ، ولم أستطع أن أحافظ على البرنامج ، ولكن الجماهير كانت ما إن
تتجمع من القرى المجاورة حتى تنتظر . ولأول مرة ساعدني بعض المبشرين ،
جميع أنواع المبشرين ، كاثوليك وإنجيليين وأتباع كنيسة أسكتلندية . لقد
ساعدوني في تنظيم خطبي للجماهير في بعض الأماكن ، كما ساعدوا على
تنظيم تسهيلات لغذاء الجماهير في أماكن أخرى .

وقد رجوت الجماهير في كل مكان أن يخلدوا إلى الهدوء وأن يستبعدوا
العنف في التفكير والحديث والعمل ، ألا يقوموا بأية خطوات حمقاء .

وسألته : « هل تشك في مدى سلطتك على شعبك ؟ هل تشك في
قدرتك على منعهم من أعمال العنف ؟

وأجاب : « أجل ، أشك » ؛ وظهر عليه التعب الشديد فجأة .

حينما كان كينيث كواندا في الثانية والعشرين ، كانت لديه أعلى
المؤهلات الدراسية التي كان يمكن في روديسيا الشمالية أن يحصل عليها
إفريقي في هذا الوقت . كانت لديه شهادة تدريس وشهادة اجتياز من
الدرجة الثامنة لامتحان مدرسة « موالى الثانوية » . وعاد إلى لوموا ليقوم
بالتدريس لصبية المدرسة الداخلية ، حيث أصبح دفعة واحدة اليد اليمنى
للمبشر ، تماماً كما كان والده ، وسريعاً ما أصبح الناظر . وكان يمكن
أن يقضى حياته بهذا الوضع . وبدلاً من ذلك مكث سنة واحدة فقط ،
ثم قرر أنه قد حان الوقت ليوسع خبرته عن العالم .

واتجه إلى الحزام النحاسي (كوبربات) حيث وجد عبدلاً كمساعد
اجتماعي في مناجم تشانجا . وقد قال إن سنة ١٩٤٧ كانت أكثر سنة
حاسمة في حياته . لأول مرة جرح نفسه بصدامه مع حاجز اللزن ، وكانت

تجربة مريرة . وجد نفسه في وسط أوربيين لا يعاملونه ككائن بشري مثلهم ولكن كزنجي وكفير^(١) .

وكان داوتي بامبا قد كون في سنة ١٩٤٦ جمعية الشئون الاجتماعية الإفريقية التي أصبحت بعد ذلك أم المجلس الوطني الإفريقي . وأصبح كواندا عضواً في اتحاد نشانجا الاقتصادي المحلي، وبدأ تجربة جديدة .

لقد سمع أشخاصاً من جنسه يناقشون السياسة بجدية . وكانت بضعة أشهر في نشانجا كافية . وعاد كواندا إلى التدريس وعين ناظراً لمدرسة موفوليرا . وحينما تكون المجلس الوطني الإفريقي سنة ١٩٤٨ ، كان من أوائل الذين التحقوا به ، وبسرعة استغرق نشاطه السياسي كل وقته . وللمرة الثانية استقال من التدريس وحزم حقائبه وعاد ثانية إلى المنزل . كان يريد أن ينشئ لنفسه نوعاً ما من العمل وأن يبنى لنفسه أساساً سياسياً .

ورحبت به والدته في منزله ؛ وأصبح تاجراً في الملابس المستعملة التي كانت وقتئذ موجودة بأسعار زهيدة جداً في الكونغو الباجيكية .

كان يركب دراجته ثلثمائة ميل من الأحرار إلى حدود الكونغو ، ويشتري بالات من الملابس المستعملة ، ويعهد بها إلى سيارة نقل ثم يقود الدراجة عائداً إلى لوبوا في وقت كاف ليفرغ بضاعته حينما تصل سيارة النقل . وإن قدرة عضلات الأرجل والرئتين التي بنيت من جراء هذا التمرين المدهش قد ساعدته إذ قاد دراجته بعدئذ في كل المناطق الشمالية حينما كان ينظم فروعاً للمجلس الوطني الإفريقي . إن قدميه على الدراجة بعض مؤهلاته كزعيم .

وفي هذا الوقت كان انفصال « كواندا » من المسيحية قد بدأ . اصطدم

(١) كلمة هولندية الأصل معناها زنجي من جنوب إفريقيا ، وتؤدي أحياناً معنى محدوداً عن أفراد من قبائل الشعوب المتكلمة بلغة البانتو من جنس « نجوي » .

بحدة مع أصدقائه الإرساليين التدامى فى لوبوا فى موضوع اقتراح ويلنسكى بعمل اتحاد بين روديسيا الجنوبية ونياسالاندا وروديسيا الشمالية ؛ وفى خطاب كتبه إلى رئيس الإرسالية نقل ما كتبه برناردشو فى كتابه « رجل القدر » :

« حينما يريد رجل إنجليزى سوقاً جديدة لبضائعه الفاسدة ، التى صنعها فى مانشستر ، فإنه يرسل مبشراً لتعليم الأهالى « بشارة السلام » ، ويقتل الأهالى المبشر ، فيهب الإنجليزى إلى حمل السلاح دفاعاً عن المسيحية ، ويحارب من أجلها ، ثم يستولى على السرق كمكافأة من السماء » .

« إذا كنت تنوى خدمة الحكومة البريطانية بالطريقة التى رصفها شو ، فلقد أتيت فى الوقت غير المناسب . لم يقتل أجدادنا أحد الأوربيين فى المحمية ، وسوف نتأكد من أننا لن نقتل أى أوربى ، مبشراً أو غير مبشر لأسباب سياسية ، كلالن نفعل ذلك — أيها السيد الموقر . عظم كيف شئت فإننا سوف نناضل من أجل بقاء أمتنا فى نطاق المفهوم البريطانى للنضال . إننا لا نناضل ضد الحكومة البريطانية وإنما ضد قضية الاتحاد » .

وما حلت سنة ١٩٥٣ حتى اعترف الجميع بأن كواندا هو ساحر تنظيم المجلس الوطنى الإفريقى . وبصفته سكرتيراً عاماً طالب بمقاطعة أسواق اللحوم ، لأن النساء الإفريقيات كن يُطالبن بالوقوف فى صفوف خارج فجوة فى الجدار فى حين كانت السيدات البيض يخذمن فى الداخل عند الخزنة . ولما قبضت الشرطة على بعض النساء اللاتى اشتركن فى الاحتجاج ضد التمييز العنصرى . أقسم كواندا ألا يأكل اللحم مرة ثانية أبداً . ولم يأكله .

وقد تضمنت السنوات منذ ١٩٥٣ ، قضاء مدة فى السجن « لإحراز منشورات أعلنت الحكومة منع قراءتها » ، وكان من ضمنها بضعة كتب عن حملات غاندى السلمية ، وزيارة إلى بريطانيا لحضور مؤتمر الكومنولث

الذي عقده حزب العمال ، ومرض صدرى غامض ، ورحلات إلى تانجانيقا . والهند وغانا حيث أمضى بضعة أشهر في دراسة طرق النشاط الثورى بغير وسائل العنف .

وقصة انفصال كواندا عن المجلس الوطنى الإفريقى وتكوينه أول « مجلس زامبيا » ثم حزب الاتحاد الوطنى الاستقلالى ، يحسن أن يرويها آخرون غيرى . إن كينيث كواندا ، كرمز لورطة المسيحية في إفريقيا ، أصبح ظاهرة مستقرة . إنها ورطة رؤية عديد ممن هم من أكثر نتاج الكنيسة موهبة ، رجالا ونساء ، هؤلاء الذين منحوا أنفسهم بثقة كاملة في مبدأ الأمر لناشرى الإنجيل فإذا هم يعانون من وهم كبير . وأساس هذا الوهم أن الكنيسة ، في تعقيدات مجتمع متغير ، لا تملك القدرة لكى توازن القوى في العالم المادى . ويضاف إلى هذا أن الجزء « الغربى من الكنيسة يميل إلى تميز ، بغير حدود ، لنظريات ومصالح المجتمع الغربى » .

قواعد ارتكاز في أرض قلقة

في وسط كل هذا الوهم والرجعية والعداء الفعلي ، لا تزال تبرز حقيقة متناقضة في كل إفريقيا الاستوائية ، إذ يدعى واحد من كل عشرة من مجموع التعداد أنه مسيحي ، وأن الذين يتنبئون بنهاية المسيحية الإفريقية في خضم تحقيق الاستقلال والحفاظ على عليه ، ربما يكونون قد تعجلوا جداً إهمال ما لعقيدة قوية من وعى وطبيعة خلاقين . إن موقف إفريقيا هو أحد التحديات الضخمة للكنيسة ، ويصفه جون فرنون تايلور ، في كتابه « المسيحية والسياسة في أفريقيا » ، بهذه الكيفية : « في وقت يتحرك الناس فيه في تيارات من الأحاسيس ، ويصارعون مشاكل معقدة ، في وسط توترات متزايدة ، ويضعون أسس مستقبل الأمم ، فإن المطالب من الكنيسة أكثر من أي وقت ، أن تعلن كلمة الله ، وأن توضح طريق المسيح ، وأن تفرض رفقتها الحانية لبرء الأمم » .

تكلمت سابقاً عن المرحوم الأسقف داجادو ، الزعيم الميثودستي الغاني ذي القلب الكبير . كان قد أتى إلى غرفتي في « الأمباسادور » ليودعني قبل أن أرحل عن أكرا . وكان يرغب في معرفة انطباعاتي عن الشعور الديني في غانا . وقلت له إنه كان من العسير أن يجد المرء قادة غانيين في السياسة ، أو المهن ، أو الفن متحمسين للكنيسة .

وهبط داجادو ، وهو رجل ضخم الجثة ، في مقعده حينما كنت أسر له ببعض مقابلاتي . وامتلات عيناه البنيان بالدهوع ، وسألني : هل أسمع بأن أنضم إليه في صلاة ؟ وفعات . وأخذ نفساً عميقاً بعدئذ ، ومسح وجهه المبلل بمنديل وابتدأ يتكلم . كان كأنما يتحدث إلى نفسه وإلى

العالم . كانت في صوته رنة فخمة مبهمه . وكانت مناجاة عن كيفية قضائه لحياته ، والهدف الذي قضاه من أجله . كان في هذه اللحظة صوت إفريقيًا مجسداً .

« إنني أذكر حينما سجنتم السلطات البريطانية الدكتور نكروما — أن الناس كانوا يغنون :

« إن جسد كوامي نكروما ملق ليتهفن في السجن . ولكن روحه تسير خارجه . » تسير خارجه من ماذا ؟ من المسيحية ؟ إن غانا لا تستطيع أن تسير خارجه من المسيحية بدون أن تسير خارجه من روحها . إن الكنيسة في غانا هي التي أخذت على عاتقها مسئولية تعليمنا حين لم تتم قوة منظمة أخرى بأن تفعل ذلك . إن الكنيسة في غانا هي التي غذت روحياً أجيالاً من رجالنا ونسائنا ، شباناً وبنات ، في الكتابة والقراءة . في الأخلاق والسلوك ، والزراعة ، والإدارة ، والتنظيم . إن الكنيسة في غانا هي التي رفعت كل هؤلاء الرجال الذين هم الآن سياسيون ، ومدرسون ومحامون .

« ولست أعني كنيسة معينة بالذات . كل الكنائس الميثودية والكاثوليكية والإنجيلية . والبريسباتيرية . والمعدانية ، وجيش السلام — كلها ساهمت ، بالمدارس والمستشفيات ، وتدريب المدرضات ، وأماكن العبادة . ومراكز الأبراشيات للدرضى ، والمتعبين ، والمحتاجين والعميان . كل هذا جاءت به المسيحية إلى غانا . ولكنها جاءت بشيء آخر أثمن وأنفس . جاءت بتعاليم الحب والولاء للرب . وبالحب والاحترام للإنسان . جاءت بالمسيح لتحقيق وجود الله في حياتنا .

« والآن هؤلاء البروميثيون . زعمائنا ، الذين يدينون عدلاً بكل ما هم عليه إلى الكنائس التي علمتهم . من أين يظنون أنهم استقوا أفكارهم عن الحرية والمساواة والتقدم الاجتماعي ؟ من أدخل هذه الأفكار إلى

غانا ؟ من ساعد في أن يَحمد الحروب القبلية وغارات تجار العبيد ؟ من أعطانا عقيدة عامة قادرة على توحيد عشرات القبائل . وعشرات اللغات ، ومئات الآلهة في أمة واحدة ؟

« إن كل ما نسميه الآن تقدماً في إفريقيا . إن هو إلا نتاج مباشر أو غير مباشر للمسيحية . إنها المسيحية التي أشعلت النار في كل إفريقيا . إنها المسيحية التي منحتنا مدونات جديدة للحياة . قيماً جديدة ، وإحساساً جديداً باحترام لونا وجنسنا .

« إن كل هذا الحديث عن الكنيسة والاستعمار يمرضني . هل أنا مستعمر ؟ هل يقول لي أى شخص في لندن أو نيويورك كيف أدبر أعمالي كأسقف ميثوذيستي ؟ إنني غاني ، إفريقي . والكنيسة الميثوذيستية في غانا كنيسة إفريقية إننا ندبر أنفسنا بأنفسنا ، ولدينا اكتفاء ذاتي مثل حكومة كوامي نكروما .

« ما الذي حدث لهؤلاء الأشخاص الذين يعيبون الكنيسة ؟ ألا يرون أن كل ما يدمغون به الكنيسة يمكن أيضاً اتهام الدولة به . إننا جميعاً قد مررنا بمرحلة الإرسالية في نقطة أو في أخرى . إن المبشرين حضروا لهدايتنا إلى طريق مسيحي في الحياة . وكثير منا اهتمدوا فعلاً ، وفي السبيل اكتشفنا شيئاً بأنفسنا ، اكتشفنا الحرية والعدالة . اكتشفنا كيف ننظم حياتنا ، وكيف نسير شئوننا بالطرق الحديثة . اكتشفنا كيف نخلق عالمنا الخاص .

« حقيقى أن كثيراً من المبشرين كان ينقصهم تفهم الشعوب الإفريقية ، ولكننا لم يعد لدينا كنائس إرسالية في غانا ، ولدينا كنائس إفريقية ؟ إن لدى المدنية الإفريقية رسالة للمسيحية تماماً كما لدى المسيحية رسالة لإفريقيا . وقد حاولت طوال حياتي أن أجمع بين الرسالتين . والآن ،

حينما أصبح الوقت مناسباً ، فإن كثيراً من هؤلاء الذين يستطيعون تقديم أكبر المساعدة هم أقلهم ميلاً لتقديمها . إنه مرقف مؤلم ، ولكن المسيحية نفسها قد بنيت على أساس مأساة صليب المسيح . لقد انتصر ، وسوف تنتصر الكنيسة الإفريقية .

ونفض داجادو ، وقبض على يدي اليمنى بكلتا راحتيه وقال : « إننا في حاجة إلى صلواتك » وما غادر الغرفة حتى لاحظت أنني كنت أتجف من حدة كلامه ، ومات بعد بضعة أشهر . لقد كان يمثل شيئاً كبيراً في حياة غانا . ولم تمت غانا .

ولا يستطيع الشخص أن يتصور اختفاء المسيحية من الحقل الإفريقي إذا لاحظ نشاطها في مركز ميندولو المسكوني . كنت في احتياج إلى زيارة ميندولو لأيام قلائل فقط قبل أن أجد نفسي في وسط شغب ملعون في السبوري :

قبل الفجر تماماً ، وبدون إنذار ، اقتحم رجال شرطة روديسيا البيض منازل الإفريقيين ، وقبضوا على زعماء الحزب السياسي الإفريقي الخالص الوحيد ، في روديسيا الجنوبية . كانت سياسة الحزب الوطني الديمقراطي ، حتى هذه اللحظة ، حازمة في الوطنية ، ولكن مع كبح واضح للجماح . وكان الزعماء قد التمسوا اجتماعاً مع رئيس الوزراء ، سير إدجار هوابتهيد ، لمناقشة مظالم الأهالي . وكان الرد هو القبض عليهم .

وكان رد الفعل في مناطق سكنى الإفريقيين المنعزلة في المدن سريعاً وقوياً وتاريخياً ، لأول مرة في روديسيا الجنوبية ، تظاهر الإفريقيون بطريقة نظامية . على أنهم فعلوا ذلك بطريقة مرتبة وملهمة وسلمية إلى أقصى الحدود . وكنت هناك أحد خمسة رجال بيض ، لأشاهد وأعجب لنظام اجتماع تكتلات أهالي هابفيلدز ومسيرة الاحتجاج .

وكان رد الحكومة على أهالي هابفيلدز أن استدعت الجنود والدبابات

وشرطة النجدة ، وكل احتياطي الشرطة المتاح . وأصدر مجامس الوزراء سلسلة من تحذيرات مشددة على اجتماعات الأهالي مظاهراتهم . واستمر المرقف من هذه اللحظة في التدهور .

وما بين يوم وليلة ؛ أصبحت مدينتنا هايفيلدز وهارارى الإفريقيتان مسرحاً للشغب وسفك الدماء ، وراوغت في طريق الحجارة ، والغاز المسيل للدموع ، والمعارك الوحشية في هارارى ، وذعرت من روح البشاعة المجردة التي نمت بين الطرفين ، وقبل أن تنتهي كان البيض ذوو الأزياء الرسمية ، لأول مرة في تاريخ روديسيا الجنوبية الحديث ، قد أطلقوا النار على الإفريقيين وجرحوا وقتلوا منهم .

سالسبوري مدينة أنيقة ، حديثة ، مدينة الرجل الأبيض ، وتقوم بخدمتها كنائس مسيحية فخمة . واتصلت تليفونياً بقسيس الطائفة ، المحترم ا. ا. تراسل ، لأسأله عما يعتزم زعماء المسيحيين فعله بخصوص الشغب . وقال لي إنه سوف يجتمع مع بعض زملائه في الصباح التالي لمناقشة المرقف ، وسأله عما إذا كان في استطاعتي الحضور . وقال إنه سوف يستشير الآخرين ، وإنه سوف يحضر ليأخذني في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي .

ولما وصل ، كان الاضطراب بادياً عليه ، وقال إنه كان هناك اعتراض على أن يحضر « دخيل » الاجتماع . وأكدت له أنني أقدر ذلك ، ولكنني رجوته أن يمنحني بضع دقائق . وجلسنا نحتسى القهوة .

قال إنه يتوقع حضور زملائه الميثودستين والبرسبايتيين والإنجايكيين الاجتماع . ولما سأته عما يتوقع أن يسفر عنه الاجتماع أجاب : « أننا معتدلون ولنا سياسيين في بحثنا للموضوع . أنا لا أحب تعليمات الطوارئ هذه ، إنها مخيفة ، إن الحكومة تتكلم عن المشاركة العنصرية ، ولكنها لا تسمح بأن يقوم الأهالي بأي عمل إنشائي خارج نطاق هذه المشاركة . هذا هو كل

سبب الاضطراب . إن الحزب الوطنى الديموقراطى كان قد بدأ فى الإنشاء فثارت الحكومة . ولكن الأهالى لم يحنوا رؤسهم هذه المرة .

وسأله لماذا يجتمع الرهبان البروتستانتيون ؟ فقال : إن بعض أعضاء الحزب الوطنى الديموقراطى قد اتصلوا بنا . وطلبوا منا أن نفعل شيئاً . إن أغلبهم كما تعلم مسيحيون .

وتذكرت جيداً ما قالته امرأة عجوز فى اجتماع جمهرة أهالى هايفيلدز . لقد صاحت : إن الأوربيين يخشون أن نطردهم إذا صار الأمر لنا . إننا نريد أن يعيش الأوربيون بيننا ، ولكن كأنداد لا كملائكة . إننا مسيحيون ، ليس لأن الأوربيين قد علمونا المسيحية ، ولكن لأن المسيحية فى قلوبنا .

واستطرد تراسل : « إنه من المؤلم أن يكون المتوقع منك أن تعمل شيئاً ، وأن تريد أن تعمله . ولكننا فى موقف حرج مع طائفتنا . هل أخبرك أحد عن هويتفيلد فوى ؟ كان قسيساً مثوذستياً هنا ، وكان شخصاً مستقيماً جداً فيما يختص بموضوع العنصر . وابتدأ عدد من الزعماء الإفريقيين من هارارى الحضور إلى المدينة أيام الآحاد لحضور عظات فوى . وفجأة نقل فوى خارج سالسبورى ، لم يقبل هذا الوضع أتباع أبراشيته البارزون . إن وجود إفريقى فى الكنيسة من وقت لآخر أمر لا بأس به ، ولكن حينما بدأ باوح أن كنيسة فوى سوف تتداخل فيها العناصر ، أخرجوه . هذا هو المأزق الذى نحن فيه . »

هذا ما عنيته حينما قلت إننى كنت فى حاجة إلى زيارة ميندولو . إن ضعف الكنيسة المربع فى سالسبورى كان يشيع الحزن فى نفسى ، كما كان يشيعه مأزق شقيقتها فى ليتل روك . ولكن ميندولو كانت شيئاً آخر ، وهى تقع فى وسط الحزام النحاسى فى روديسيا الشمالية ، فى منطقة تشابه الحداثق تبلغ مساحتها مائة فدان من الأحراش والغابات فى أطراف كيتوى أكبر مدن

مناجم النحاس . وقريباً منها خمسة منشآت حكومية هامة . وقد اجتذب الحزام النحاسى إلى نفسه أكثر من ٣٠,٠٠٠ من البيض و ٣٠٠,٠٠٠ من الإفريقيين ؛ وقد جاء الإفريقيون من أوغندا ، وأنجولا وموزمبيق ، والكونغو ، وتانجانيقا ، ونياسالاند ، وروديسيا الجنوبية وجنوب إفريقيا . حوالى السبعين قبيلة ممثلة .

والمركز المسكونى بمندولو ، هو تضخم لإرسالية مندولو القديمة ، مركز قيادة الإرساليات المتحدة بالحزام النحاسى . وما حلت سنة ١٩٥٥ حتى اتضح أن إرسالية مندولو لا فائدة منها ، فانهت أعمالها . وشكلت هيئة جديدة ، مجلس الخدمة المسيحية بكوبربلت (الحزام النحاسى) ، للتفكير فى مستقبل مندولو المحتمل . وعلى الرغم من مضى ثلاث سنوات قبل أن يضع هذا المجلس تقريره ، فإن التقرير كان يستأهل الانتظار ، وحذوا إجراء تجربة جديدة جداً ، قاعدتها أساس مستقل . وتبنى مجلس الكنائس العالمى المشروع ، ووضع مندولو فى القائمة كمشروع يستحق مساندة الكنائس فى جميع أنحاء العالم .

وكان الرجل الذى يقف خلف هذه الفكرة هو المحترم بيتر ماثيوز ، وهو طائفى أسترالى حاد الطبع ، اقتنع بأن أكثر احتياجات إفريقيا «المسيحية» إلحاحاً ، هو تدريب القيادات ، والاستشارات العلمانية والبحوث ، والمؤتمرات .

وبحيوية مذهلة ، جمع ماثيوز من الكنائس والأوقاف وشركات التعدين مالا يكفى للبدء فى برنامج للبناء ، ودفع مرتبات موظفين . وسرعان ما ابتدأ المركز يكون مركزاً لنشاط قلما اقترن فى الماضى بالإرساليات . فمثلاً بينما كنت فى مندولو ، كان تسعة عشر كاتباً وصحفيّاً إفريقياً من أجزاء مختلفة من القارة مشغولين فى منهج تخصصى فى الكتابة لمدة ستة أسابيع صعبة . كانوا يدرسون من الساعة الثامنة صباحاً حتى العاشرة مساءً ، يتمخلها وقت للراحة والتنزه والصلاة ولكن بلا هزل .

وكان يسايره في نفس الوقت ، منهاج آخر لربات المنازل من منطقة كيتوى ، بيضاوات وسوداوات ، لمناقشة المشاكل الخاصة التي تنشأ من الحياة في مجتمع متعدد الأعجناس . وكانت جماعه مختلفه الأعجناس من الشباب قريبه في معسكر عمل . كانوا يحفرون آباراً لتصريف المجارى ، ويضعون الطوب لعنبر نوم جديد ، ويحضرون دروساً لقيادة الشبيبة .

وكان ينتظر قدوم اثني عشر من زعماء العمال الإفريقيين في الأسبوع التالى ، لحضور منهج دراسى عن مشاكل اتحادات العمال .

ويشرح مايتوز فلسفه مندولو بالآتى : « إن ما هو صحيح عن الحياة الكنسية في كوبر بلمت (الحزام النحاسى) ، صحيح أيضاً عن الكنيسة في معظم بلاد العالم ، إن وظيفة الكنيسة قد مالت إلى الانكماش إلى حلقة ضيقة من العبادة في أيام الآحاد ، وباقي الأسبوع بالنسبة لبعض الجماعات التي تهتم بهذا ، ولكن بدون أية فاعلية أخرى في المجتمع . ولم تعد الكنيسة تمارس مسئولياتها الكاملة في نواحي كثيرة حاسمة في حياة الإنسان ؛ إن هدف مندولو هو إيجاد طرق جديدة لتطبيق المسيحية على الأمور الهامة في حياة إفريقيا » .

وفي أثناء مكثي في مندولو ؛ قرأت تقريراً عن مؤتمر انعقد هناك لمدة خمسة أيام ، عن الإنسان والمجتمع في كوبر بلمت . وكانت لائحة المشتركين مرصعة بأسماء شخصيات رئيسية ، بيضاء وسوداء ، في روديسيا الشمالية . وكان التقرير أكثر مسح شامل رأيت في مجلد واحد ، عن مشاكل إفريقيا العنصرية ، والدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية .

إن العقبات تبدو للمشاهد المسيحي في إفريقيا قوية ، ولكن المركز المسكونى بمندولو قوة مضادة فعالة . إن الاشتراك العنصرى حقيقى في مندولو . والبرنامج الموضوع يساير احتياجات إفريقيا . وكما يقرر مايتوز : أن المركز لن يصبح مؤسسة طابعتها الخاص . إن برنامجه سوف يتغير تماماً ، بمجرد أن تفهم وتقبل التحديات الجديدة للكنيسة المسيحية .

قبس آخر للأمل المسيحى فى إفريقيا ، يتمثل فى الكاردينال الإفريقى للكنيسة الكاثوليكية ، لوريان روجامبرا ، ذى الشخصية المؤثرة . هذا الرجل الطويل المتواضع تذكره أفعاله بأن الكثير يمكن أن يقال فى مصلحة السياسة الكاثوليكية فى إفريقيا ، إذ تصر على أن الكهنة الوطنيين يجب أن تكون لهم مؤهلات تقارن بزملائهم الأوربيين ، ونظراً لأن فرص التعليم محدودة ، فقد كان معنى ذلك أن الكهنوت الكاثولىكى الإفريقى قد نما ببطء . ولكن هؤلاء الذين دخلوه ، قد مرزوا تمريناً عالياً . وهذه السياسة أيضاً تعرض الكاثوليكية لتهمة البقاء تحت النفوذ الأجنبى . ولكنها تنتج من روجامبرا . الذى يعد فى الغالب أكثر مديرى الكنائس الإفريقية عملاً وذكاء فى القارة . كان روجامبرا ، حتى بلغ الثامنة ، روحانياً عارى القدمين فى مزارع الموز بتنجانيقا . وتم تعميده فى هذه السنة ، لأن والده وهو عجوز قبلى كانت قد تمت هدايته إلى المسيحية . وبعدئذ ما إن دخل مدرسة الآباء البيض حتى استقر رأيه على أن يكرس نفسه للرب ، والكنيسة الكاثوليكية . وفى سنة ١٩٤٥ رسم فى الكهنوتية ، وبعد ثمان سنوات كرس رئيساً للأساقفة ، ويقال إن كاتدرائيته مرطن للوطاويط ، ومبينة من قوائم من خشب الكافور ، وقوالب طوب صنعت باليد ، وإن سقفها من الحديد المغضن ، وإنه يقوم بجولته فى أبرشيته فى سيارة شيفورليه قديمة تستخدم لجمع العنب . وأشهر مشترك معه فى تانجانيقا ، هو المواطن الأول جوليوس . ك . نيريرى ، بطل الاستقلال ذو الخمس أقدام والست بوصات ونصف ، والذى يزن ١٢٥ رطلا . قد ذهب نيريرى ، وهو أحد أطفال ستة وعشرين لزعيم زاناكى مزواج ، إلى مدرسة إرسالية ، واهتمدى إلى الكاثوليكية وبقى وفياً لعقيدته حتى الآن . ويصف روجامبرا المسيحية كأعلى ما تلقته إفريقيا من الغرب . ويذكر الكنيسة الكاثوليكية كممثل للتقدم المذهل فى إفريقيا ، ويؤكد دور الكنيسة كمدرسة لإيمان قوى بالرب ، ومحررة من الخرافات ، ومعلمة عن حقوق الأفراد الإنسانية الأساسية ، ورسولة الرفاهية البدنية والاجتماعية ، والاقتصادية ، ومعلمة الكثير من الناس .

وقال ، إذا كانت المبادئ المسيحية هي مصدر إحياء الأمم الغربية في علاقاتها الحاضرة والمستقبلية مع إفريقيا ، فإن كل شيء سوف يكون على ما يرام . إن كل شخص يعلم أن إفريقيا في حاجة إلى معونات مالية ومساعدات فنية . على أن هذه المساعدة ، يجب أن تعرض بروح من الحب والتفهم الأخويين ، بروح المعاونة لا السيطرة . إن ما يتوقعه الإفريقي من قوى الغرب ، هو الاعتراف بكرامته الشخصية ، وقيم حضارته وتقاليدته . وعلى هؤلاء الذين يدعون أن روجامبوا إنما يعرض للإفريقيين كمحلوان (طعم) لتأخير التقدم الشيوعي . أن يكونوا مستعدين لمجابهة هذا الكاردينال الأسود اليقظ ذى المواهب النابهة .

وكأبعد ما يكون عن مجرد زخرف القول ، فإن الكاردينال بناء مصمم لقوة الكنيسة . وإذا ابتدأ بنقطة ارتكاز قوية . ١٨,٠٠٠,٠٠٠ كاثوليكي اسماً على الأقل جنوب الصحراء ، فإنه ناشر حازم لعقيدته التي تمتلك ولائه غير المتزعزع .

وإن أكثر أجنحة المسيحية كشفاً وقابلية للانثلام . هو التفرقة العنصرية الوحشية باسم المسيحية . إن سلالة المستوطنين البيض المستقرين ، الإفريقانيين ، (وهم سلالة الهولنديين المستعمرين في جنوب إفريقيا) قد رأوا أنفسهم ، كتقليد توارثوه . كأنما هم يعيدون تمثيل الدور الوارد في الإنجيل . عن الشعب المختار وأهل الميعاد . حيث فرض الرب على الرجل الأسود أن يصقل الخشب ، ويجلب المياه خدمة للرجل الأبيض . وكزخعة . أطلق على كنيسة الإصلاح الهولندية (البروتستانتية) مركز عبادة حزب الأفريقان الوطني ، وكحقيقة عابسة . قد عطروا التفرقة العنصرية والتحامل الجنسي بأنها حقيقة طبقاً للكتاب المقدس . « لو كان الرب قد أراد المساواة بين الأجناس لقال ذلك في الإنجيل » .

وأصبح الدكتور هندريك فيرود ، الذي كان يعتقد بعدم كفاية العقل لفهم الوحي الإلهي وقت أن كان يعمل كعامل وصحفي ، زائراً متحمساً للكنيسة

حينما تم انتخابه على رأس حكومة الأفريقان . وهو يدعى الآن أن نجاته بأعجوبة من القتل الذى حاوله صاحب مزرعة مريض نفسياً . كان معجزة إلهية لصالح التفرقة العنصرية .

وقد اجتمع أعضاء مجلس الكنائس العالمى مع زعماء كنيسة الإصلاح الهولندية للمشاورة فى المشاكل العنصرية . وحينما جلس عشرة مندوبين من كنائس جنوب إفريقيا البروتستانتية الثمانية . مع ستة ممثلين لمجلس الكنائس العالمى . أصدروا قراراً شديداً للانتقاد للتفرقة العنصرية . نص القرار على أن « جزءاً من كرامة الرجل الراشد هو حقه فى تملك الأرض ولاشتراك فى الحكومة . ولا يتضمن الكتاب المقدس أى أساس لمنع اختلاط الأجناس بما فى ذلك الزواج المختلط . وأن هنالك نقصاً مؤلماً فى التشاور والاتصال بين الأجناس » .

« إننا مقتنعون أنه لا اعتراض من ناحية المبدأ على التمثيل المباشر للشعوب الملونة فى البرلمان . ولا يجوز استبعاد أى مؤمن بوعيسى المسيح من أية كنيسة بسبب لونه أو جنسه . إن الوحدة الروحية بين الرجال المسيحيين . يلزم أن تجد وضوحاً فى التعبير فى أعمال العبادة العامة والشمادة . وكذلك فى الأخوة والمشاورة فى الأمور ذات الأهمية المشتركة » .

ولم تعلن قائمة التصويت على هذا القرار على الجماهير . ولكن البعض على الأقل من ممثلى كنائس الإصلاح الهولندية الثلاث قد انضموا إلى الإنجيليين والمثوذستيين والكاثوليك . ومندوبى الهيئتين البرسبايتريين (أتباع الكنيسة) المسيحية فى التصويت بالموافقة .

وحينما بدأ هبوب عاصفة بين العلمانيين وبعض الكهنة . شعرت كنائس الإصلاح الهولندية بأنها مضطرة لإيضاح موقفها . جمعت كنيسة ندردويتش هرفورمد كيرك . أصغر الكنائس الثلاث . إذ يبلغ أتباعها ٢٠٠,٠٠٠ عضو . القرار وأعلنت موافقتها على التفرقة العنصرية الكاملة . ورجعت كنيسة مندودويتش جيريفور ميد كيركركس عن مستعمرة الكاب وترانسفال .

وعدد أعضائها جميعاً ١,٢٠٠,٠٠٠ إلى موقفها القديم ، بأن سياسة التفرقة يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المسيحية ، ولكنها أصرت على أن الإفريقيين الزوج . الذين يثبت إقامتهم وعملهم في مناطق (بيضاء) يجب أن يمنحوا نصيباً معقولاً في الحكومة .

وقد وصف نوفليس ألان باتون . الذي حضر المؤتمر كمندوب إنجيبايكاني . التصريح بأنه رأى مدهش عن المواقف السابقة ، وأثنى على كنائس الإصلاح الهولندي لشجاعتها .

إنه لما يملأ أسفاراً عن الجو الاجتماعي والسياسي لجنوب أفريقيا أن باتون يستطيع أن يجد دلائل شجاعة في نداء هيئة كنيسة قوى لتفرقة عنصرية أكثر تراخياً في إطار دائم من التمييز . ولعله من المدهش حقاً إمكان صدور التصريح أصالة من أقوى صوت روجي لدولة الأفريقانيين . وقيل إن فيروود ارتج وثار . وكتبت الجريدة الوطنية الإفريقية التي يتولى تحريرها الترنسفال مقالاً ساخراً تقول فيه : مهما كان جمال صياغة المؤتمر لأفكاره فإن تطبيقها يؤدي إلى انهيار المسيحية في جنوب إفريقيا .

ولكن بعض زعماء الهولنديين . البروتستانت على الأقل ، قد بدءوا يقتنعون أن العكس تماماً هو الصحيح . لقد استنكروا جداً الانتقادات القديمة لجوست ده بلانك رئيس أساقفة كليب تاون ، إذ كان عدواً مناضلاً للتفرقة العنصرية . وحينما طالب ده بلانك بطرد كنيسة الإصلاح الهولندية ، كان رد الفعل حاداً في الدوائر العليا في الكنيسة الهولندية ، ولكن كانت هذه مسألة كرامة أكثر من مسألة ضمير . وحينما شارك مؤتمر المجلس العالمي النهاية ، طلب رئيس الأساقفة ده بلانك الكلمة . ورجا العفو من رجال كنيسة الإصلاح الهولندية . عن أي أذى قد يكون ألحقه بهم . في حملته الحماسية ضد التفرقة العنصرية . وفي فورة إخلاص جديد ، منح العفو بحماسة . وكان ألان باتون هو الذي وجد آمالاً للمرة الثانية في هذه المبادلة : « أن تصرف كبير الأساقفة والرد عليه يظهر بعضاً من الجو الجديد » .

ولإذا انضمت كل من الكنيسة الإنجيليكانية . وكنيسة الإصلاح الهولندية
بعضهما إلى بعض ، في قلقةهما المشترك عن التفرقة العنصرية ، فإن الشاهد
المسيحي في جنوب إفريقيا ، سوف يزداد قوة إلى حد بعيد .

ولا يوجد شخص يستطيع أن يصور مأساة ورطة المسيحية السياسية في
جنوب إفريقيا ، بمثل الحدة التي يصورها بها حائز جائزة نوبل للسلام ،
الزعيم ألبرت جون لوثولي رئيس مجلس إفريقيا الوطني في بلده منذ سنة ١٩٥٢ .
ولوثولي وهو الآن في الثالثة والستين من عمره مسيحي عن عقيدة وممارسة .
كان مثالا للشخصية المسيحية ، لا ياجأ إلى العنف في محاولاته للتوفيق في
مقاومة التفرقة العنصرية ، كما أنه ليس به أي ظل لشعور عدااء للرجل
الأبيض . ومع هذا يعده البيض أكبر عدو لسيادتهم ، وكان هو الشخص
الرئيسي في اعتقالات ومحاكمات الخيانة ، كما حرم عليه النشاط السياسي
وبعد مضي خمسة أيام من شاريفيل أحرق تذكرة مروره ، أكثر رموز
التفرقة العنصرية بغضاً . وبعد ثلاثة أيام سجن للمرة الثانية .

وقد حذر لوثولي البيض عدة سنوات من أنهم إذا كانوا لن يتفاهموا
معه . وهو مسيحي ومعتدل ، فإن أتباعه سوف يبدءون ينفضون ، وتقع
الزعامة الإفريقية في أيد أكثر صلابة وعدواناً . وتتحقق الآن نبوءاته ،
فزعامته الطبيعية تنساب ، إذ يلوح أن ارتباطاته المسيحية لم تفعل سوى
القليل للتطلعات الإفريقية في جنوب إفريقيا .

ويمكننا الوثوق من أن لوثولي كان في ذهن رئيس الأساقفة جوست ده بلانك
حينما أعلن أن الكنيسة كانت في مفترق الطرق في جنوب إفريقيا ، وأنها
إذا لم تجد طريقاً لإرضاء التطلعات الإفريقية المشروعة ، فإنها تحكم على
نفسها بالفناء - وأن كل جنوب إفريقيا سوف يكون مفتوحاً على مصاريحه
للمذاهب الدنيوية والعقائد غير المسيحية .

إن نقط ارتكاز المسيحية في إفريقيا قوية ومؤثرة ، ومن السخف أن
نعد المسيحية نخاسة في التنافس الكبير على الأرواح الإفريقية طالما أن

هناك أمثال داجادو ومندولوور وجامبوا ، وزيرى ، وده بلانك وباتون ولوثولى .
ولكن بالمنطق نفسه ، يكون من الغباء ألا نعرف بأن أغلبية المسيحيين
من كل الأجناس فى إفريقيا يلوح أنهم غير مستعدين لمهامهم .

كنائس متمردة فى أرض قلقة

كتب رنجت ساندكلر (الدراسة العلمية عن الكنائس الإفريقية المنشقة)
ويسمى الكتاب « أنبياء قبيلة البانتو فى جنوب إفريقيا » وهو يعدد أكثر من
ثمانمائة كنيسة منشقة ذات قيادة إفريقية سجلتها رسمياً حكومة جنوب إفريقيا
فى سنة ١٩٤٥ ، كما يضيف مائة وعشرين وثلاثاً أخريات ، كان وجودها
معاوناً خلال الثمانية عشر شهراً التالية . وقد قصر ساند كلر بحثه على بلد
واحد ، ولكن تمت ، أو تكاد تتم ، دراسات مماثلة فى جميع أنحاء إفريقيا .
إن مئات الآلاف من الإفريقيين الذين يعدون مسيحيين إحصائياً ، لا يشتركون
فى إرساليات ملية معروفة ، وإنما فى كنائس مستقلة خارجة تحمل أسماء
مثل الحارس ، وكنيسة قلب المسيح المقدس بالامبا ، وكنيسة بانثو الوطنية
وكنائس شاروويم وصاروفيم ، ومئات أخريات .

وفى حين أن إفريقيا ليست فريدة فى هذا — طوائف مشابهة قد تزايدت
فى بعض الأماكن مثل الصين الشيوعية وإندونيسيا — فإن تكاثر الكنائس
المستقلة فى إفريقيا له طابع خاص . فحديثاً ، مثلاً ، على جزيرة إيكوما
الصغيرة الحفيرة فى بحيرة نياسا ، أعلن أحد « المسيحيين » الخوارج
النياسلانديين أنه يعتزم أن يقيم مركز قيادته . وكان أكثر أبنية الجزيرة
مهابة كندرائية إنجيليكية بناها الأهالى المهتمون منذ حوالى قرن مضى ،
وطالما كانت مركزاً لأعمال الإرسالية الإنجيليكية ومظهراً من مظاهر غراس
المسيحية .

وقرر رهبان الإرسالية الذين كانوا قد أزعجتهم الردة فعلا ، القيام بحركة تمثيلية . قسموا ساحة الكتدرائية في الوسط بصف من المقاعد ، ثم تحدوا من يجرؤ على إنكار الكنيسة أن يمحث عند أقصى الحاجز . ولمدة طويلة لم يتحرك أحد ، وأخيراً سار بعض أعضاء الطائفة القدامى إلى الناحية الأخرى ، وتبعهم الآخرون ببطء ، ولكن كان واضحاً للقساوسة وضوحاً مشبطاً أن النبي الانفصالي قد وطد نفسه فعلا في ليكوما . وأية محاولة مهما بلغ من صغرها ، لشرح الكنائس الإفريقية المستقلة ، لا بد أن تحوم حول التوتر المحتوم بين الغرب الأبيض المسيحي والأهالي الإفريقيين السود ، الذين شرع الغرب يبشرهم ، ويستغلهم ، ويسيطر عليهم :

إن كنائس الأهالي المنشقة هي إحدى الوسائل التي يرد الإفريقيون بها على صدامهم مع المدنية المسيحية الغربية . فالمبشرون لم يستحضروا معهم ثروة الإنجيل الأزلية فحسب ، ولكنهم أحضروا أيضاً وسائل وقيماً مدنية كاملة . ولا شك في أن دفع الإرساليات في القرن التاسع عشر ، في نظر الإفريقي ، هو الجزء الروحي من الغزو الأوروبي العام لأفريقيا ، كان هذا هو الوضع الذي رآه الإفريقيون في مبدأ الأمر ، بل إنهم لا يزالون يرونه إلى حد كبير حتى الآن . فالأب الفرنسي الكاثوليكي الأبيض ، بالنسبة للإفريقيين ، هو أولا فرنسي ، والقسيس الإنجيليكي هو أولا إنجليزي ، فلكليهما الوجه الأبيض نفسه ، ويمتلكان القوة نفسها على الكلدنة المكتوبة ، ويمارسان وسائل العلاج نفسها ويحملان الأسلحة نفسها . والمبشر ، أياً كانت طائفته ، يمثل للإفريقي مدنية تفوق مدنيته قوة إلى حد بعيد ، مدنية قد تطفئ عليه . ولكنها من ناحية أخرى قد تشاطره قواها إذا أمكن تحقيق تحالف حكيم .

وبمعنى آخر ، أن المبشر مهما اعتقد أن هدفه مختلف عن المكشف والمستوطن والوكيل التجاري ، والموظف الإداري ، فإن الإفريقي رأى فيهم جميعاً مشروعاً مشتركاً واحداً . ولم يكن الإفريقي مخطئاً تماماً في تقديره .

ويؤكد ف. ب. وليبورن ، في دراسته عن الكنائس المنشقة في أوغندا وكنيا ، مشروعية وجهة النظر الإفريقية .

« على الرغم من أن المبشرين يختلفون عن الأوربيين الآخرين في تأكيد أنهم بداءة مرتبطون كلية بالمسيح ، فإن الأوائل منهم على الأقل ، كانوا مخلصين في تقديمهم المدنية الغربية فيما كانوا يعتقدون أنه أحسن مظهر لها . إن المبشرين الأكثر حداثة ، هم الذين تأثروا بعلم السلالات البشرية ، ولعل تأثرهم الأساسي كان بالشكوك في قيمة الحضارة الغربية وخلودها ، وهم الذين بدعوا يرون الفرق بين ما هو أصالة مسيحي ، وما هو مجرد غربي . وحتى هؤلاء لا يعرفون تماماً أين يضعون الحد الفاصل . »

وما يجب أن نتذكره إذاً ، هو أن الكثير من الإفريقيين كانت تنقصهم القدرة للاستجابة إلى مجهودات المبشرين كرسالة دينية خالصة . وقد حاولوا بطريقة مفهومة تماماً الخروج إلى حضارة مغايرة بالكلية . وليس إلى مجرد جزء منفرد يتسم بالمسيحية .

ولكن إذا كان المبشرون يقدمون مجموعة ثقافية كاملة ، وإن لم تكن دينية فحسب ، فإنهم أيضاً يتصرفون كمواطنين ذوي المهن والمصالح الأخرى في حجزهم أجزاء من هذه الثقافة .

جاءت الإرساليات بالتعليم ، وتلقاه الإفريقيون بحماس : ولكن الكثيرين من المبشرين شاطروا المستوطنين وموظفي الاستعمار رأيهم في أن الإفريقيين يجب أن ينالوا نصيباً من التعليم إلى الحد الذي يؤهلهم فقط لأن يأخذوا « مكانهم اللائق » في مجريات الأشياء ، ومن الواضح أن المكان اللائق « ليس مكاناً مساوياً » . وبالإضافة إلى هذا ، لم يحاول المبشرون قط مشاورة الإفريقيين في تطوير نوع من التعليم يدخل وجهة النظر والفلسفة الإفريقية في الاعتبار . وكان مما لا يمكن تلافيه أن يرى بعض الإفريقيين أن التعليم الإرسالي ليس منحة فحسب ، وإنما هو أيضاً نوع من الاستعباد .

ويشاطر المبشرون عامة الاعتقاد الغربي في حق تقرير المصير والانتخابات العامة الراشدة . والبروتستانتيون بالذات يتعلقون بالمثل الأعلى لكنائس إفريقية تمول مشاركت الكنائس الأوروبية والأمريكية مشاركة كاملة . وإذا كان الإفريقيون في مبدأ الأمر بطيئين في رغبتهم في الاستقلال الكنسي ، فإنهم مع الوقت ، حريون بأن يريدوا التحرك بسرعة كبيرة ، أسرع كثيراً جداً عما يستعد كثير من المبشرين لقبوله . وإن ما أبداه المبشرون من مقاومة في هذه النقطة جعل من المؤكد جداً أن بعض الإفريقيين سوف يطلب الاستقلال الذاتي بحماس أكبر .

كان على المبشرين ، أيّاً كانت نياتهم ، أن يكونوا أشخاصاً فوق مستوى البشر ليتغلبوا على العقيدة المغروسة في كيانه من أنهم يمثلون مدنية أرقى . وبديهي أن هذه الوجهة عكست ، وإن يكن خفية وبغير شعور ، عدم الاحترام لكل ما هو إفريقي — مع العلم بأن تصرفات المبشرين غالباً ما كانت واضحة وبشعور كامل . وسريعاً ما رأى بعض الإفريقيين العمد والحداع والنفاق في هذا . يتكلم المبشرون عن بركتهم على إفريقيا بإيقاف الحروب القبلية ، في حين أنهم يمثلون مدنية تعد فيها الحرب الآلية مؤسسة معترفاً بها لدمار مدهل . كان على المبشر أن يكون قديساً ليتغلب تماماً على روابط الجنس والمجتمع . إلى درجة يستطيع معها ألا ينجح عن الإفريقيين أعنى أجزاء روحه الحضرية .

كان هنالك بعض أمثلة لهؤلاء القديسين ، بل إن هنالك بعضاً منهم الآن ، ولكن من البديهي أنهم كانوا أقلية . لم ير ليفنجستون صعوبة في تقبل الأطباء القبليين كزملاء في المهنة ، لأنه كان يرغب في أن يقبلوه كزميل . ولكن هناك قلائل من أمثال ليفنجستون في عمليات الإرساليات . إننا نقول إن المبشرين آدميون حينما نصف إعطاءهم المتحيز . وإننا نقول إن الإفريقيين آدميون حينما نصف قبولهم المتحيز . ما من مدنية تستحق الكلمة . إذا لم تقاوم لدرجة معينة غزو مدنية أخرى مهما كثر

عدد الفوائد والمزايا التي قد يأتي بها الغزو . وربما يقدر الكثيرون من الإفريقيين ، وكثيرون فعلاً يفقدون ، قيمة الدين الغربي والتعاليم الغربي ، والمهارات الغربية ، ولكن كان إلزاماً أن يؤكد البعض سيطرتهم على كيفية تنظيم هذه القيم في الحياة الإفريقية .

إن الكنائس الانفصالية في إفريقيا ما هي إلا تضخم ملموس للقوى التي وصفناها ، إنها تعكس رد مدنية كاملة على أخرى ، لأنها تكشف ما جاء به المبشرون وما منعه ، كما توضح إجماع قبول الإفريقيين لما ورد إليهم ومقاومتهم لما منعوا منه . وهناك حركات تشابه الإرساليات ، ولكنها لا تخضع لسيطرة المبشرين ، وهي في بعض النواحي تعادى عداء سافراً الأفكار التي يؤكد بها المبشرون . لكل هذه الأسباب تكون الكنائس الانفصالية عادة معادية للرجل الأبيض عامة .

وفئات الخوارج متعددة ومتباينة حتى إنه من العسير وضع قاعدة عامة عنهم . كثيرون منهم كاثوليكيون متحمسون ، وكثيرون أصوليون في استعماهم للإنجيل ، والبعض أتباع مخلصون لكتاب دعاء الكنيسة الإنجليزية . وهناك فئات تجمع المزاوالات الوثنية أو الإسلامية بالمزاوالات المسيحية ، ولكن هؤلاء في حافة الانفصال وليسوا في قلبه .

والنظرية السائدة أن الخوارج إنما انفصلوا عن الطوائف التقليدية لمازعتهم في مسألة تعدد الزوجات ، ولكن هذا خطأ . كان تعدد الزوجات في بعض الحالات فعلاً السبب الرئيسي للانفصال ، ولكن لم يكن الأمر كذلك في الغالبية الساحقة منها . وعموماً تتساهل الكنائس الانفصالية في مبدأ تعدد الزوجات الدرجة أكثر من الكنائس الإرسالية ، ولكن هنالك فروقاً واسعة بينها في المزاوالات . ويمكن أن يقال إن البعض أكثر تشدداً في مبدأ وحدة الزواج عن زملائهم الإرساليين .

وشعر ستانديكار أن إخفاق الزعامة كان من أهم الأسباب القاطعة في الانفصال . ولا يوجد أدنى شك في أن الزعامة النبوية أو المسيحية تبرز

واضحة الصورة ، ومع هذا فإن هناك عدة كنائس انفصالية يشابه فيها القسيس مثيله في تلك التي أنشئت على أساس غربي .

ويميز ساندركلر في جنوب إفريقيا . بين فئتين أساسيتين من الحوارج أطلق عليهما « الأثوية » « والصهيونية » وتعارض الأولى أصالة التفرقة العنصرية ، في حين نشأت الثانية كنوع من النهوض النذوذجي تقليداً لطوائف وكنائس زواج أمريكا المستقلة ، على أنه من العسير جداً على أي الأحوال أن تحتفظ بتفرقة متميزة من هذا النوع .

خذ مثلاً حركة شرق إفريقيا المعروفة باسم « جمعية الإله الواحد القهار » التي بدأها في أواخر القرن الماضي جوسواكيث موجيما . كان هو زعيماً ذا قوة ونفوذ كبيرين ، وسعى إلى التعهد كـ مسيحي ، بالرغم ما في هذا من خطورة كبيرة جداً في أثناء بقائه بين عشيرته « أوجندا » . وبدأ يعلم الآخرين قراءة الإنجيل ، وبينما هو في دراساته المهمة ، ازداد تأثراً بقصة الأتون المتوقد الحارق . إذا كان في استطاعة الله أن ينقذ الرجال من النار ، ففي استطاعته أيضاً إنقاذهم من المرض . وبالبحث في الإنجيل عثر مرجيما على أمثلة عديدة من العقيدة الشافية .

ورأى الإرساليون رجلاً ذا ورع عميق وعقيدة ، فرخص له المجلس الكنسي الإفريقي كزعيم علماني . وكان من أوائل الزعماء الذين هدتهم الكنيسة الإنجليزية مطالبة بإلغاء الرق . وجهاز بعثات لتبشير القبائل في الداخل بالمسيحية ، واكتسب كزعيم شهرة واسعة في الكرم الشخصي ، كما كان رائداً في وضع شكاوى شعبه أمام إدارة الاستعمار . وظهر تحرره الفردي في رفضه أن يلبس غطاء للرأس لأن الرب قد أعطاه شعراً ، وأمر أيضاً أن يصنع سرير مربع له ، لأنه لم ير سبباً يرغبه على النوم في اتجاه معين .

ونما شعور موجيما عن الرب والإنجيل والدواء إلى درجة التسلط . وحينما أخفقت محاولاته في إقناع الإرساليين بأحقية وجهة نظره ، انفصل عن جمعية الكنائس الإرسالية وأنشأ فئة خاصة .

وكبرت الطائفة سريعاً ، سواء في العدد أو في التعاليم ، ولكن بقي أساس الدين الجديد في الاعتراض على التطبب للإنسان أو الحيوان . وفي سنة ١٩٣٠ كان هنالك تقدير قبيلة بامالا كى في بوغندا وحدها ٥٦٩٥٢ نسمة . وتجمع المهندون في مجالس محلية ، ومجالس قبلية ثم في مجلس شامل للكنائس . وكان الكهنة يعبثون رسمياً ، كما كان هنالك كتاب صلوات رسمى . وأنشئت بضع مدارس للأطفال البامالا كيين .

وقد فقدت الجمعية الآن نفوذها على الجيل الشاب ، ولا شك في أنها تنقرض ، ولكنها ما زالت تعطينا مثلاً تاريخياً لنهوض وانتشار ونهاية كنيسة إفريقية انفصالية .

والحركة الانفصالية التي لا يلوح عليها جليئاً أى علامة من اضمحلال القوى ، هي الكنيسة الميثوذكسية الإفريقية المتحدة التي يطلق عليها كنيسة السماكين ، لأن أول مبانيها كان قريباً من سرق السمك بلاجوس . وقد اكتشف زعماء هذه الجماعة أن السمك كان الرمز الأول للمسيحيين ، وبدون أى اعتراض على الاسم الذي شاع عنهم ، رسموا الشعار على رموزهم وأدبهم وعلى الصليب النحاسى الضخم الذى يتقدم دائماً موكب رئيس الأساقفة .

وقد نشأت الحركة في سنة ١٩١٧ ، حينما بدأ رئيس الإرسالية الميثوذكسية في لاجوس حملته ضد تعدد الزوجات . وكان هذا هو السبب الظاهر الوحيد . وإن لم يكن الحقيقى للثورة ، إذ أن الكنيسة الميثوذكسية الإفريقية تتطلب من كهنتها ألا يتزوجوا سوى واحدة فقط ، كما تشجع المبدأ بين مندينيها . إن الرغبة الحقيقية في الاستقلال هي الدافع الخفى . كانت الأحاسيس الوطنية منتعشة في نيجيريا حتى في هذا الوقت ، ولكن كانت الفرصة قليلة أو منعدمة للتعبير عنها في السياسة .

وقد احتفظ بالنظام الكنسى والطقوس الدينية الميثوذكسية طوال هذه السنين ،

فقرأ صلاة « ويزلى » للسحر كما أن الترانيم هي المألوفة لدى البروتستانت الغربيين .

ولكن دخلت الطبول والأناشيد الأهلية في الطقوس لتعطيها نكهة إفريقية براقه .

إن الكنيسة الميثودية الإفريقية المتحدة لا تنمو بدرجة كبيرة ، ولكن أتباعها نشطون ومخلصون كما أن لهم مراكز مرموقة في المجتمع الإفريقي . ولا يمكن لأى شخص أن يسافر كثيراً في غرب إفريقيا بدون أن يذهل من كثرة وجود « جمعيات الشاروبيمية والصيرافيمية » . وليست هذه الحركة المزدهرة في سبيلها إلى الموت ولا هي متجمدة بل إنها تنتعش بسرعة .

ومؤسسها الرئيس هو مرس ثانولاشي . من أبناء عائلة هامة في إيكار بغرب نيجيريا . وقد اكتسب مثل موجيا في أول عهده موقدة ضد التطب . ولكن على العكس من موجيا . لم يعرف عنه قط أنه تاق إلى أى اعتراف من أى الكنائس الإرسالية المعروفة . من البداءة كان مارقاً . إذ كان استعماله للإنجيل ذاتياً بحتاً .

وقد أخبر في رؤيا أولية أنه كان يجب أن يؤسس جمعية يطلق عليها اسم سيرافيم . « وفي رؤيا تالية أضيف لفظ شاروبيم . واجتذب أتباعاً من الكنائس المختلفة ، كما اجتذب أيضاً من بين الوثنيين التقليديين والمسامين ، وتابع طريقة مرغوبة للتبشير في الهواء الطلق ما زالت شائعة حتى الآن في الحركة . وظهرت رؤيا ثالثة لثانولاشي ، وهي أن السيرافيمي يجب أن يلبس بداء أبيض حيك على نمط خاص . وإحدى أمنيات أتباعه الملمحة هي القدرة على شراء ثوب كهانتهم الزاهى .

ونمت الجمعية سريعاً مما أربع الكنائس المستوطنة . وللجمعية خصيصة موضوعية متحررة . مع أقل ما يمكن من إدارة دينية وأكثر ما يمكن من مزاوالات كلية داخلية وإذا ما دخلوا الكنائس . يخلع السيرافيون والإسلامية أحديتهم . ويرسمون علامة الصليب « وهي عادات مختلفة من الإفريقية والإنجيلية ،

والكاثوليك الرومان . هنالك صليب في الكنيسة ولا يوجد مذبح . ويحمل الرؤساء ، وهم محاطون بالشموع والبخور ، صولجاناً من الخشب أو المعدن يستعمل حسب الحاجة في طهارة الماء واستبعاد الشياطين ، وقيادة الغناء . وتستعمل الطبول والأجراس بإفراط في القداس إلا في خلال الصوم الكبير فإنها محرمة بتاتاً . وتنقل العبادة من وقت لآخر من الكنيسة إلى قمم التلال . ويفخم الإنجيل ، ويعتبر الأسبوع المقدس وقت صوم شديد وصلوات ليلية ورعايات ، ولكن يراعى أيضاً مثلها الأحلام والرؤيا والإلهامات الغامضة ، وعلى قدر ما هي محيرة لهؤلاء الذين اعتادوا طرقهم الطائفية المعتادة فللشاروبيمية جاذبية عميقة للكثرة من الإفريقيين في أنها ليست من أحد العاملين - أعني أنها ليست إفريقية بحتة ، وليست غربية بحتة ، خاصة بالنسبة للجماهير الغفيرة التي تنزح إلى المدن وإلى حياة المدينة ، والذين لا يجدون سوى القليل من الإثارة في الكنائس الأكثر رسمية حتى التي يتولى قيادتها إفريقيون ، ولكنهم برغم ذلك يتأثرون بالمركز الرمزي للإنجيل والتعميد والصليب .

وبعد اتخاذ خطة حيال هذه الطوائف الانفصالية المتزايدة مشكلة رئيسية أمام الزعامة المسيحية التقليدية ، سواء منها الإرسالية أو الإفريقية . ويميل الكاثوليك إلى الاعتقاد بأن هذه مشكلة بروتستانتية ابتداء ، لأن الانشقاقات المنظمة كانت قليلة من الحظيرة الرومانية ، ولكن هذا يخفق في أن يأخذ في الحسبان آلاف الأفراد والعائلات الذين ينفصلون عن الكاثوليكية ليلتحقوا بطائفة انفصالية أو أخرى .

وكثير من الملل يأتي ويذهب بسرعة مذهلة . وربما كان هذا هو أكثر نقط الحركات الانفصالية ضعفاً . ومع ذلك فإنه دائماً ما يقوم أصحاب رؤيا جدد ليحلوا محل الذين اختفوا ، كما أن بعض الجمعيات تتمتع بقوة بقاء عجيبة ، كالشاروبيمية مثلاً . والجميع ، على أي حال ، قد انحرفوا عن المجرى الرئيسي للمسيحية . إنهم يتمسكون باسم المسيح ، ولكن نظراً

لتباينهم وانحرافهم عن المعايير الغربية ، لا يوجد لهم اعتراف خارج حيز أعدادهم .

ويجد الكثيرون من الإفريقيين في الكنائس الانفصالية طابعهم الخاص للحرية يتعبدون بها للمسيح . وفي بعض الأحيان . لا يكون قادتهم سوى أدعياء لا يبحثون عن أكثر من مجرد السلطة أو المركز - ولكن هذا يحدث أحياناً فقط . ويبحث أتباعهم عن شيء جوهري ونخالد - مجتمع ، وتعرف للشخصية في وضع يشعرون فيه أنهم حقاً في مكانهم . هل هنالك أى حل سوى الاعتراف بأن أى كنيسة ، إذا قامت . إنما تقوم اكل فئة متمسك مخلصه باسم المسيح مهما كان انحرافها عن الطرق الغربية المألوفة؟

المبشرون وكنيسة « مؤفرقة »

في السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩٦١ . أعلن الرئيس سيكوتورى أن حكومة غينيا تعتزم « أفرقة » الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . قال تورى : « لن يعتمد في غينيا أى أسقف كاثوليكي ما لم يكن إفريقيًا » . وقبل هذا الإعلان بما لا يزيد على أربع وعشرين ساعة . طرد من غينيا رئيس الأساقفة جيرارد دى ملفيل ، الكاثوليكي الفرنسي الذى عاش لمدة جيامين في البلد .

وما هذه إلا واحدة من خط مستمر من إشارات مشتتة ، توحى بأن عملية الإرساليات المسيحية في إفريقيا في اضطراب جدوى . بغض النظر . عن مدى الإعانات التى قدمتها الإرسالية لإفريقيا . والتى قد تستمر في تأديتها . فإن الشعور ينتشر بين الزعماء الإفريقيين بأن هذا المجهود لم يعد مناسباً لقارتهم .

ويقول الإفريقيون : « يجب ألا يشعر المبشرون بخيبة أمل . إن الغذاء العقلى والدينى اللذين القوهما في الماء قد عادا في صيغة وطنية وإصرار

على أن ندير أعمالنا بأنفسنا . وبهذا المعنى ، قد أدى المبشرون عملهم على ما يرام وإننا نشكرهم . إن إخلاصهم الذى تضمن فى كثير من الأحيان تضحياتهم بحياتهم ، قد بنى مدارس ومستشفيات ووسع أفق معتقداتنا الدينية . ومع هذا يجب أن يذهبوا ، ليس لأن احتياجات إفريقيا فى التعليم والطب والنمو الروحى قد أشيعت ، بل ما زال هنالك شوط بعيد . إن النقطة هى أن الإرساليات ، كمنشأ فى إفريقيا ، يجب أن تسلم الأعمال التى ابتدعتها إلى فئات أخرى ، إلى فرق الفنيين الدوليين الذين سوف يعملون مع الزعماء الإفريقيين ، وفيما يختص بالمسائل الروحية ، إلى كهنة وقسيسين إفريقيين . إن الإرساليات ، مثلها مثل الحكومات الاستعمارية يجب أن تفهم بجلاء أبعاد التغير فى القارة . يجب ألا يخطئوا فهم شعلة عملهم الماضى المقدس بالقدسية نفسها ، وإلا فإن أكثر الإرساليات سوف يكون فى خطر . سوف يكون مستقبل المسيحية الإفريقية عرضة للتهلكة .

وإن أحد طرق ترجمة هذا الشعور ، هو أن وقت الإرساليات قد انتهى . ولكن زمن الكنائس الإفريقية ما زال قائماً . إن المسيحية تلعب دوراً عالمياً فى حياة الأشخاص ، ولكن الكنائس تضرب جذورها فى المجتمعات والشعوب ، لأنها منبثة فيهم ، وسلطانها يقع على قلوب الشعوب التى هى حالة بين ظهرانيهم . لهذا السبب ، فإن الإرساليات مهما طال زمن بقائها ، يجب أن تكون مؤقتة . إن إيجاعها ينبع من أرض أجنبية . وعلى ذلك فهى « خارج النطاق » مع التطورات السائدة فى إفريقيا ، شأنها شأن الاستعمار . إنها على أى حال متصلة بالاستعمار فى النسق التاريخى نفسه ، أى الغزو الغربى لإفريقيا . ومن الجائز أن يكون صحيحاً أن المبشرين كانوا كثيراً ما يعارضون بمرارة سياسة الرسميين المستعمرين والمستوطنين ، ولكن الواقع يبقى أن مصاير الإرساليات والاستعمار ، كانت مرتبطة بعضها ببعض ، وأن نهاية أحدهما تستتبع نهاية الأخرى ، وأن مدى مستقبل الكنائس المسيحية فى إفريقيا ، هو مدى اهتمام الإفريقيين إلى المسيحية فى إفريقيا ، أو مدى رغبتهم فى

أن يكونوا مسيحيين . يجب أن يقرودوا هذه الكنائس على أى حال ، ويجب أن يقرروا بأنفسهم طبيعة علاقاتهم مع المسيحية العالمية ، ومع إخوانهم الإفريقيين . وقد حاول عالم سياسى ، دافيد ا . ابتر ، من جامعة شيكاغو ، أن يلخص الموقف بهذه الكلمات الممتازة .

إذا اضطلعت الحكومات الإفريقية بمهام التمير والتطوير . وإذا أصلحت القومية الاختلالات النفسية الناشئة عن تغير الثقافة ، بأن تحت ضرر جدتها ، وبأن ماحكتها بالمجتمع الأفريقى فما الذى يبقى للدين ؟

إن مجرد مجهودات الوطنية لإصلاح ميزان الماضى والقيام بمحاولات تغيير مجتمعاتهم ، يزيد من صعوبة تموين الاحتياجات الشخصية لكثيرين من الرجال والنساء فى إفريقيا . إن القومية عملية الشباب لا المسنين . إن الشباب فى الحركات القومية ، والقومية ظاهرة فى الشعوب الفتية . ولكن ماذا عن هؤلاء الذين يتصارعون فى حياتهم الخاصة مع معانى التغيرات الطارئة والتعديلات اللازم إجراؤها ؟ هؤلاء يمكن أن تكون الكنائس مراكز ضرورية للتفكير . يمكنها أن تساعد فى تحسين بعض آثار التغير السيئة . يمكنها أن تحتفظ بشخصية الناس وكرامة الإنسان كفرد . إن الخطر يكمن فى أن القيم الإنسانية يمكن أن تفقد فى المجهود الهائل لخلاص الإنسانية كمجموعة . فى هذا ، تستطيع الكنائس أن تشارك القوميين فى المهام المنتظرة مستقبلا ، من ناحية تزويد الفرد ومن ناحية . تزويد المجتمع كوحدة . ولكن هذه ليست مهمة المبشرين .

وتعرض مارجريت ج . فياد . فى دراستها الحديثة ١٩٦٠ ، عن غانا الريفية « البحث عن طمأنينة » بصيرة خلاصة عن المهام التى تواجه الكنائس الإفريقية ، إذا ما تضاعل نفوذ الإرساليات . وتصارعت الكنائس ، بدون معرفة خارجية ، مع المشاكل الروحية للإفريقيين العاديين .

وطبقاً لما ذهبت إليه الدكتور فيلد ، لن يكون لاختفاء المبشرين من المسرح تأثير مذكور على معتقدات الإفريقيين العاديين الدينية . لأن هذه المعتقدات لم تتأثر حقيقة تأثيراً عميقاً بالمبشرين على أى حال . وبينما كان من

الشائع في العالم أجمع لعلماء السلالات البشرية الرثاء لتحطيم الإرساليات المسيحية للنظام القبلي ، إذا بالدكتورة فيلد تعتقد أن هذا من قبيل الضرب في حصان مات منذ أمد بعيد . وتكتب :

« إن علماء السلالات البشرية ، الذين كانوا منذ ثلاثين عاماً ، ساخطين على جهل المبشرين في سوء تقديرهم الديانات الأهلية في بقاع العالم المختلفة ، يمكنهم الآن ، إذا ما نظروا في مناطق غانا ، أن يشاهدوا الموائد تقلب رأساً على عقب . إن الإفريقيين الجهلاء كانوا دائماً دهاة ومحافظين منتقلين أكثر مما ظن المبشرون أو علماء السلالات البشرية . إن الأجانب كانوا هم البسطاء ، وكانت المسيحية دائماً موضع الملاحظة ، ببغض من الوثنيين الإفريقيين ، وإن منع الأدب ، والمصاحبة الشخصية الثابتة ، الإفصاح عنه » .

ووجهة نظرها أن للكنائس المسيحية عملاً مرسومًا أمامها لا يمكن قياسه تمامًا ، حتى يكون لدى الإفريقي العادي الفرصة لتقدير المسيحية كإفريقية وليس كظاهرة معادية . وحاليًا يرتفع جدًا شك الوثنيين الإفريقيين في المسيحية . ومن الغريب أن نقطة الانتقاد الأساسية هو أن المسيحية ينقصها بخزى فضيلة الأخلاق ؛ وطالما بقيت المسيحية مشروعاً خاضعاً للسيطرة الأجنبية أساساً . فإنه يمكن طرحها جانباً كضلال غريب ولكنه وقفي . ولكن رجال كنيسة إفريقيين ، أحراراً من الإدارة الأجنبية . تكون لديهم كرامة مشوقة يمكن العمل فيها .

إن السنوات الطويلة التي قضتها الدكتورة فيلد في غانا قد أقنعتها بأنه إذا فكر الإفريقيون أصالة في المذاهب . . . فإنه لا مجال لمقارنة المسيحية بالوثنية.

« إن المسيحيين يدرسون أن لله ابناً واحداً ، وإن كان هذا الابن ما زال — يبراهين ضعيفة في نظر الوثنيين — يعمل لمصلحة مريديه — ويعتقد الوثنيون أن لله أبناء كثيرين — كل الأبوسوم (الآلهة) يعملون له بطريقة مؤثرة ومقنعة . . وإن الكثيرين من الأبوسومفو (القسيسون الوثنيون) الذين زرت

معابدهم قد عمدوا كمسيحيين . كان أحدهم يابس صليبا دائما . كما كان هناك صليب آخر معلق في سقف محرابه . وأول أوبوسمفوا . في مفراماسو ، لم يؤسس مدرسة مسيحية في قريته فمحبس ، بل اعتزم بناء كنيسة ليعبد الرب فيها صباح كل أحد ، في الفترة بين جلستيه بمعبد الأبرسوم . وأحد الشيوخ حالياً في معبد مفراماسو هو أيضاً أحد أعمدة الكنيسة المسيحية ، التي تقع على بضعة أميال — وهو الذي يقوم بمعظم التنظيمات حين يزورها رئيس الأساقفة . ويقدره كل من المجتمعين ، الوثني والمسيحي ، لرجاحة عقله ونشاطه وإخلاصه وكرمه ، وسألته مرة عن السبب في أنه ، وهو المعمد مسيحياً . أصبح شيخاً في معبد أوبوسوم ؟ فأجاب ببراعة جادة « إن أي شخص يمكنه أن يرى أن لأوبوسوم قوة » .

هذا ، وليس النطاق المختاط الذي يجب أن تعمل فيه الكنيسة الإفريقية ساحة محددة للصراع الفكري . وتبعاً لرأى الدكتور فيلد ، لا يعاني الإفريقيون العاديون ، حتى هؤلاء الذين تعلموا تعليماً سطحياً ، من انفصام العقلية مثل ما يعاني إخوانهم المتعلمون . لا يعانون من آلام الشعور بأنهم تتجاوزهم الآلهة القبلية من ناحية ، ومدركات المسيحية من ناحية أخرى . إن أسباب التحاقهم بالكنائس المسيحية متبانية ، ولكن الدكتور فيلد تقول : « حتى النسبة الضئيلة التي تؤمن عن اقتناع أكيد بتفوق العقيدة المسيحية ومواساتها ، لا تعتنق تبعاً لذلك ، الاعتقاد بعدم وجود الآلهة التي توقفوا عن عبادتها . والحقيقة أنه جرت عادة مثل هؤلاء المهتمين أن يأخذوا هدايا وداع إلى أماكن آلهتهم القدامى المندسة ، وأن يشرحوا أنهم لم يقصدوا أية إساءة . ويرجون ألا تعد هذه إساءة . وهذه الحفلات الصغيرة تنتهي عادة بوعد من المهتمين بأنه قد عمل ترتيبات مع أحد أقربائه المسئولين بأن يقوم نيابة عنه بتأدية التزاماته قبل الأوبوسوم .

وفي معظم الأحيان . يستمر المسيحيون الإفريقيون الجهلاء وأنصاف المتعلمين ، في أداء واجباتهم في المعابد الوثنية . وتدعى الدكتور فيلد أنها رأت حتى « أساتذة جامعات ، ومحامين وأعضاء في الجمعية

التشريعية ، وبعض الرجال المتعلمين تعليماً راقياً في القطر في طقوس أبوسوم
المدنية . وتختتم الدكتوراة فيلاد قائلة :

« إنه صحيح تماماً أن أعضاء الكنائس المسيحية الرسميين وموظفيها -
مثل شيوخ الكنيسة وأساتذة المدارس حينما يستنصحوون معابد ، يذهبون إلى
البعيدة منها ليخفوا زياراتهم عن رؤسائهم المسيحيين ، ولكن هذا لا يوحى
بوجود تعارض في عقولهم ، وإنما هو مجرد انتقاد لجهل المبشر العميق بأمور
ما فوق الطبيعة ، فهو لا ينقصه الفهم فقط ، ولكن تنقصه أيضاً الرغبة والقدرة عليه .
فيجب لذلك إرضاءه وخداعه . ولكن الإفريقي لا يخدع نفسه ؛ ولو أنه ،
لأسباب حكيمة ، يخدع هؤلاء الذين يستطيعون فصله أو سحب درجته
التعليمية ، ولا يحتاج ضميره إلى ترضية كما لا تحتاج أعماله إلى تعليل . »

إنه لمن الطريف أن نتصور مستقبل رجال الكنيسة الإفريقيين حينما
نتعرض لاحتياجات الإفريقيين بعد « استبعاد » وجود الرؤساء المبشرين . مما
يبدو مؤكداً أن رجال الكنيسة الإفريقيين سوف يستفيدون أكثر من بعض
نواحي الدين والثقافة الإفريقية ، ولن يترك هذا النوع من « الاغتناء » بعدها
إلى الهيئات الانفصالية . من الجائز مثلاً أن الإفريقيين . في دور الحوارين
المستقلين ، سوف يضعون تركيزاً على الله أكثر من المسيح ، كنقطة أولية
للتعاليم المسيحية . إن المسيح لا يتلاءم بسهولة مع النسق الإفريقي للأشياء ،
ولكنهم يطبقون فكرة الكائن الأعظم . ولا يعني هذا أن المسيح سوف ينسى .
ولكنه يعني أن تفهم المسيح سوف ينبع من تفهم الله وليس العكس .

وهناك تحول ثان محتمل في التركيز ؛ قد يحدث في تطوير فكرة الكائن
الأعظم ليشمل دين الأسلاف « إن الإرساليات المسيحية لم تظهر حتى أقل
تقدير لأهمية دين الساف الإفريقي ، ومع هذا فهو الرباط الذي لا ينقسم
لوحدة حياة الجماعة الإفريقية .

وكما قال شرويشاير في كتابه : « الكنيسة والشعوب البدائية » : « إذا
كانت المسيحية لا تستطيع أن تجد مكاناً لهذه العبادة ، فهي إذاً لم تجد

نفسها بعد . . . سوف يكون من الأيسر لرجال الكنيسة الإفريقيين الذين تحرروا من الإرساليات أن يجدوا مكاناً للقوة التي تغذى في الحياة الإفريقية الفضائل الأولية ، مثل الحب بين أعضاء العائلة ، والتصرف السليم قبل زملاء الشخص المباشرين .

واحتمال ثالث هو تركيز أكبر على الاحتفالات الزراعية داخل النطاق المسيحي . إن الإفريقيين ما يزالون أساساً شعباً ريفياً زراعياً ، وهم مدركون جداً أنه لنجاح المحصول لا يلزم فقط المهارات والصناعة البشرية ، ولكن يلزم أيضاً شعور من التوافق مع العالم غير المرئي . ويكاد يكون من المؤكد أن رجال الكنيسة الإفريقيين سوف يجدون مكاناً في التقويم المسيحي للاحتفالات — بما فيها الرقص ودق الطبول — التي تبارك الحب وقت الغراس والشكر على المحاصيل وقت الحصاد . وكما يصرح أحد زعماء الميثودستية الإفريقيين : يمكنهم أن يعرضوا بفائدة هذا البند ، الذي طالما أزعج تقويم الكنيسة الميثودستية أيام آحاد القيامة .

ويعطينا مؤتمر المسيحية والمدنية الإفريقية الذي انعقد في أكرا سنة ١٩٥٥ إرشاداً رابعاً . لقد تقرر فيه ، « أن الخسارة التي يتضمناها إلغاء الاحتفال (تسمية الطفل التقليدية) كانت كبيرة جداً ، وأنه يجب الإبقاء عليها ، على أن تعدل الصاوات الموجهة إلى الأسلاف باستبدالها بالصلوات المسيحية .

وفيما يتصل بحوادث الحياة العامة — الميلاد ، الزواج ، الموت — لا يوجد أدنى شك في أن المسيحية « المؤفرقة » سوف تزيد من اهتمامها بالطابع الإفريقي الطبيعي ، ومن الجائز ضم التعميد وتسمية الطفل التقليدية ، ومعها سوف تنتهي العادة الإرسالية في إعطاء الأطفال الأفريقيين أسماء « مسيحية » ، وعلى كل حال فإن كل ما فعلته هذه هو وضع المسيحية في طابق منفصل . إذا جمعنا التعميد والتسمية الإفريقية معاً ، فلا ثمة داع ألا يبدو طبيعياً جداً ودينياً أن نطلب من أحد الأسلاف أن « يعيش ثانية » في طفل ، وأن يهبه أحسن خصائصه . وهناك تعليق سديد على هذا قاله أحد أصدقائي

المسيحيين الإفريقيين؛ « إن هذا سوف يعطى الطفل مستوى فى حياته المستقبلية ليحاول الوصول إليه . إن تعميده وإدخاله إلى الحضيرة المسيحية وهو يدخل عالم أسلافه يكون لائقاً تماماً .

ويكاد يكون من المؤكد أن مزج العناصر الإفريقية فى حفلات الزواج والحناز سوف يحدث . لسنين عديدة كان المبشرون الحساسون متزعجين بما كانوا يعتقدون أنه التزامهم بمحدد حفلات الزواج والدفن الإفريقية إذا تما على الطريقة التقليدية . ولن يكون من المحتمل أن رجال الكنيسة الإفريقيين ، إذا تركوا لأنفسهم ، سوف يعاونون من الموانع التى يتميز بها مرشدوهم الإرساليون . ومن كلمات عالم لاهوت إفريقى مسيحى « أن إعداد المنظر ، الإطار الخارجى لهذه المناسبات ، يجب أن يؤخذ رأساً من الحضارة الإفريقية ، وأن يكون جلى التذكرة بها . ولكن المعنى المضمون ، خاصة ما يعبر عنه بالكلمات . يجب أن يخدم الأغراض المسيحية ويغذى الطبيعة المسيحية . . . إن الشيء المهم هو أنه فى كل مناسبة يرتفع فيها الشعور ، يلزم أن يوجد عادة امتزاج الشكل الإفريقى بالمضمون المسيحى .

استجابة الإرساليات الأمريكية

من الواضح أن تتابع الحوادث الإفريقية الكاسح قد وضع المبشرين فى مركز حرج فكيف كانت استجابة المبشرين الأمريكبين ؟
كتب جون ر. جيبسون ، أحد مراسلى جريدة والدستريت ، من روديسيا الجنوبية فى أغسطس سنة ١٩٦١ .

« سواء رغب المبشرون أو لم يرغبوا (وكثير منهم لم يرغبوا) ، فإن الضغط يقع عليهم لكى ينحازوا إلى أحد الجانبين فى المسألتين : العنصرية والسياسية . وبرسوخ فى أذهان الإفريقيين باطراد النظر إليهم كممثلين للولايات المتحدة الأمريكية بدلا من مجرد رجال دين مسيحيين يعلنون على السياسة . وشيئاً

فشيئا يترك الكثيرون منهم مراكزهم القديمة كمبشرين ومدرسين ورسلا سلام إلى مستشارين فنيين لرجال الكنيسة الإفريقيين وللمعلمين الذين يؤخذون من الأهالي ، وحتى يتكيفوا لهذه الظروف الجديدة امتحن المبشرون ومرنوا ، وأعيد تقديرهم كما لم يحدث قط قبل ذلك .

وطبقاً لتقدير يعتمد عليه ، يعمل في إفريقيا ١٥٩٧٠ مبشراً بروتستانتياً أوزهاء ٣٥ ٪ تقريباً من المجموع البالغ ٤٢٢٥٠ مبشراً . وبما أن كنائس أمريكا الشمالية هي التي تسيطر الآن على المسرح الإرسالي ، فإننا يمكننا أن نفترض أنها المسئولة عن نصيب الأسد في مصروفات الإرساليات . وتقرر مكتبة البحوث الإرسالية في نيويورك أن المصروفات التي تحملتها الولايات المتحدة للإرساليات في الخارج قد ارتفعت بنسبة ٣٢ ٪ في السنوات الأربعة الماضية . ومعظم هذا قد ذهب إلى إفريقيا . والمعدل الساري للمصروفات الخاصة بأعمال إرساليات الهيئات البروتستانتية الأمريكية وحدها حوالي ١٧٠ مليون دولار في السنة .

ومن الواضح أن إفريقيا . من وجهة النظر الإرسالية ، هي قلب العالم . ويرعى أكثر من أربعمئة منظمة كنسية أمريكية ، نوعاً أو آخر من المجهودات الإرسالية . في حين أنه بالمقارنة ، لا يعمل في كل سفارات وقنصليات وزارة الخارجية سوى سبعمئة مواطن أمريكي . وقد أفاد جون جيبسون أن عائد الإرساليات المختلفة في روديسيا الجنوبية كبير لدرجة أن الحكومة قد حاولت كبح المنافسة على البشر بتحريم إرسالية على بعد أقل من خمسة أميال من الأخرى .

وإذا كانت فكرة البعثات الإرسالية أصبحت حقيقة لا محل لها الآن في إفريقيا ، فإن مشروع الإرساليات الأمريكية لا يظهر أي علامات حالية لخفض درجة النشاط . على أن ما يجده الشخص ، هو نوع من البحث المضطرب عن الروح ، صوره الدكتور ثيودور تاكر السكرتير التنفيذي للجنة الإفريقية . قسم الإرساليات الأجنبية لمجلس الكنائس القوي في مؤتمر البحوث

العليا في جامعة شيكاغو ، عن أفريقيا المتغيرة وقوة المسيحية الدافعة « الذي انعقد في فبراير سنة ١٩٦٠ ، إذ تشكى الدكتور تاكر من أن الإرساليات والمبشرين في إفريقيا لا يكادون يعرفون من الأوصاف التي يسبغها عليهم كثير من الخطباء الإفريقيين ؛ ومع هذا فإنه اعترف بأن هذا في الواقع هو ما يعتقدونه بإخلاص ، وهو ما رأوه في أثناء مراقبتهم لنا في أثناء العمل » .

واستطرد تاكر : « إن الفكرة الشائعة ، وإن تكن غير دقيقة ، عن الإرساليات تلزمنا بأن نسائل أنفسنا هذا السؤال : أليس في مجرد كلمة "إرسالية" إيحاء بالتفوق والتدخل ؟ ومع هذا نذكر أن الكلمة تستعمل يومياً تقريباً في الجرائد الدنيوية . إن إهنالك إرساليات (بعثات) سياسية ، وإرساليات تجارية ، وإرساليات المعونة الفنية ، سواء من وطننا أو من الأمم المتحدة . إن ما يكون إرسالية ليس الأشخاص أو العمل أو المكان إنما واقعة الإرسال في أحد ذاتها . وإن أي مجموعة من الأشخاص تسيطر عليهم فكرة اعتقادهم بأنهم قوة دافعة ، لهم رسالة . ولا شك في أن القوتين العظيمنتين في عالمنا الحالي : الولايات المتحدة وروسيا ، لهما رسالة في هذا المعنى .

« ليس من غير المنطقي إذاً أن تكون للكنيسة المسيحية أيضاً رسالة في هذا المعنى . إننا نعتقد بأننا جزء من الكنيسة التي هي الآلة التي اختارها الرب لتخلص العالم ونفاد أغراضه . . .

« وكما قال إميل برونر : إن الكنيسة قائمة على رسالة كما تقوم النار على الاحتراق . فإذا ما تطلعت الكنيسة إلى العالم الخارجي . فليس لديها الخيار إلا في التنصير ، وهناك حقيقة دور للمبشرين في إفريقيا اليوم ، وهو العمل في نطاق مهمة الكنيسة الرئيسية في التبشير »

والرجال من أمثال تاكر ، مدركون تماماً أن مستقبل الإرساليات المسيحية غير مستقر في إفريقيا . إنهم واعون جداً للموقف الجديد وما يتطلبه من تعديل في التصرف والدور . هم ليسوا بأي حال واثقين ، ولكنهم مصرون على

استمرار المحاولة ، وما زالوا يضعون خاصتين في أول قائمة الخصائص المطلوب توافرها في المبشرين : اقتناع شخصي قرئ مع معرفة شخصية « بعمسى المسيح » ، ومقدرة فائقة في تفسير الإنجيل . ويتأو ذلك تقدير واضح للعالم الذى يعيش فيه المبشر . ويعنى هذا بالنسبة لإفريقيا ، الاعتراف بالقومية كهدف أسمى وقدرة على الاستجابة إيجابياً لصالح الإفريقيين السياسية ، والاستعداد للعمل تحت الإدارة الإفريقية ، ويعنى أيضاً تناو لا جريئاً مشاكل العلاقات العنصرية فى مناطق تتضخم فيها مشكاة العناصر .

ويقول الدكتور تاكر : « ويازمنا أيضاً أن نكون على بينة من التغيرات التى طرأت نتيجة نمو المدن والصناعة فى كل مكان بإفريقيا . وإذا كان معظم إفريقيا ما زال ريفياً ، فإن المناطق المتحضرة فى زيادة مستمرة ، وتزايد أهميتها ، وحيثما ينفذ نظام المحجرات العالمية ، فإن الكثيرين من الرجال البالغين يمضون معظم وقتهم بعيداً عن عائلاتهم وهم يعملون فى الصناعات . وحتى الآن فإن إرسالياتنا تملأت المناطق الريفية فقط ، ولم نقم بمجهود كاف لنتنيز الفرص الجديدة بارتياح المدن » :

وتشجع الإرساليات الإفريقية خصيصة أولية أخرى ، وهى تفهم الإسلام بعمق كما يزاول فى جنوب الصحراء ، ليس بروح مجاهد ، وإنما لتعرف المجهودات اللازمة لهداية الإفريقيين من الإسلام إلى المسيحية .

وباستثناء بعض الجماعات البروتستانتية ، فإن تجنيد المبشرين الآن يتضمن غربلة واختباراً نفسيين دقيقين للتأكد من أن المرشح يستطيع أن يصمد لصدمة ثقافية شديدة ، وأنه قادر على أن يكيف أحاسيسه للتعامل مع الإفريقيين . وهناك أيضاً طلب متزايد على المهارات الفنية الحقيقية ، مثل تلك التى لدى بروس ساملى من متشيجان ، الذى يتولى رئاسة برنامج المزرعة النموذجية بإرسالية « أولد أومتالى » بروديسيا الجنوبية ، ويعرف عن الجحارات وتربية الأرانب ، والدورات الزراعية على الأقل مثاماً يعرف عن الإنجيل . وهو يعلم أيضاً كيف يعمل تحت إمرة رئيسه الإفريقى المحترم

كينيث شوتو ، رئيس أولد أومتالي ، الذى يشارك ج . مبنين وليامز فى التحيز لرباط العنق .

وقد أوضح الدكتور أمورى روس ، تسانده أربعون سنة من الخبرة الإرسالية فى إفريقيا ، استجابة الإرسالية الأمريكية للاضطراب القومى الإفريقى فى هذه الكلمات الرنانة :

« إن المهمة الحقيقية الجوهرية الثقيلة لإفريقيا ، ولنا ، وللعالم ، هى خلق مجتمع مسيحى فى إفريقيا ، بمشاركتها هذا المجتمع المسيحى الذى لايعنى فقط بالشعوب ، وإنما يعنى أيضاً بكل ماله صلة بحياة الناس : الأرض ، الغذاء ، الكساء ، المأوى ، الصحة ، الدين . الجهل ، الأدب ، التعليم ، المواصلات ، الرياضة ، الاقتصاد ، العائلة ، المجتمع ، الحكومة - كل هذه الأشياء يهتم بها المسيحى ، أو يجب أن يهتم بها بالنسبة لكل المسحيين فى كل مكان ولكل الناس . . . للمسيحيين هى جزء من عملهم الدنيوى فى كل جيل . وقد ألزمتنا بهذا العمل تعاليم وهدى المسيح منذ ألفى عام مضت ... إنها خدمة « الوحدة » فيها أساس . لأنها يلزم أن تضم كل الإنسان ، وكل الحياة .

إنها خدمة لن تستطيع الحكومات أبداً أداءها كاملة . إنها خدمة أساساً من الشعوب ومع الشعوب ... إنها للمعلمين والمزارعين ، للاقتصاديين والمهندسين ، للأطباء والأدباء ، للفنانين والمحامين ، للنجارين والموسيقيين ، للبيطريين والقسيسين ، ولأصحاب المطابع ورجال السينما ومحرمى الجرائد . هذه أشياء يجب أن تعمل فى بلدنا ، وفى إفريقيا ، ويجب أن يقوم بها كل شخص . لأنها تتناول كل الحياة ، هى شعوب تعمل مع شعوب لمصلحة جميع الناس .

« ليس فى هذا شىء خيالى أو مثالى . إنه إحدى حقائق الحياة الأساسية الثابتة . هذا هو وقت التقدم » ، هذا هو التحدى لقوة المسيحية الجديدة

الدافعة . . . لإفريقيا كنز فطرى . إنه شعور بكجمال الحياة القادمة ، شعور لم يتعدل تقريباً منذ الأيام الأولى لخلق الإنسان . وللغرب أيضاً كنوزه ، بعضها مع ذكريات كبيرة من السرور والجمال ، حتى إن الروح لتتعذب لتصل إليها . ولكن الكمال فى الغرب قد ضاع تقريباً .

- ويستطيع المسيحيون أن يقولوا بحق إن إفريقيا لديها ، مباشرة من خالقنا ، بعض الكمال البدائى الذى نسعى إليه بشغف . فلننضم إليها ولنساعدوها جهدنا بما نعلم ، وبما نستطيع عماله معاً كرجال أحرار ، قد ينقذ العالم روحه » .

ويمكن تصوير بعض الدلالات على أن آمال الدكتور روسى العظيمة ليست على غير أساس تماماً بعشرات من الأمثلة المنتقاة : وإنى أختار مثلاً واحداً فقط ، وهو إليزابيث موفى مبشرة كيونويا ، التى ذهبت إلى كينيا لتبدأ مركزاً لمحو الأمية . وشعرت الآنسة موفى فى أسابيعها الأوائل فى نيروبي كما يشعر طبيب بدون مرضى .

فطبقاً لمنظمة الأمم المتحدة التعليمية ، (يونسكو) يوجد ثمانية من كل عشرة من البالغين فى كينيا لا يستطيعون القراءة أو الكتابة ، ولكنها ظلت تسأل نفسها ، أين هم الأميون ؟

إنها اختارت نيروبي لمجهودها الأساسى ، لأنها ظنت أنه يكون من الأسير فى عاصمة الاتصال بالطلبة المأموين ، ولكنها لم تعمل حساباً للريبة التى قابلت إعلانات عربات الدعاية الحكومية بأن الآنسة موفى مستعدة لإعطاء دروس فى القراءة والكتابة . واكتشفت ، مؤخراً ، أن الإفريقيين النيروبيين اعتقدوا أنها كانت خطة للحصول على مزيد من الضرائب ، أو على مبرر لنقلهم خارج المدينة إلى بعض المناطق الداخلية ، وإذ مرت الأسابيع ، حاولت الإعلانات اليدوية ، والملاصقة ، والراديو . وبالرغم من ذلك فلا طلبة هناك ولا مدرسون ، ولا موظفون .

وأخيراً - ونعتقد الآنسة مولي أنه استجابة لصلواتها - قابلت الدكتور جيكونبو كيانو ، وهو دكتور في الفلسفة من ستانفورد ، كان يلقي دروساً في الاقتصاد في الكلية الفنية الملكية بنيروبي . وكان قد سمع فرانك لوباخ يتكلم في الولايات المتحدة . أنصت باهتمام إلى الآنسة مولي ، ووافق على أن يجند لها مدرسين متطوعين . وقال : « لقد ساعدني كثير من المسنين لأتلقى تعليمي ، والآن سوف أساعد كثيراً من المسنين ليتلقوا تعليمهم » .

وأنفق الدكتور كيانو طوال شهر إجازته في التكلم مع جماعات إفريقية . ووجد أن الناس قد ظنوا أن برنامج تعليم محو الأمية سوف يطلب اعتمادات لازمة لبناء مدارس إضافية لأبنائهم . وشرح أن هذا برنامج قائم بذاته ، وأنه حينئذ سوف يكون أكثر قدرة على مساعدة أولاده ومجتمعه .

وقبلوا كلماته ووثقوا فيها ، وكسر الجليد بأن وجد أول عشرين من المدرسين . وفي بحر أربعة أشهر ، كان هنالك ثلثمائة طالب مقيد في فصول نيروبي . ثم أتى الحظ الحقيقي .

ذهبت الآنسة مولي إلى اجتماع سياسي إفريقي ، وأعطت وصفاً موجزاً عن برنامجها ، وأخبرتها إدارة التحقيقات الجنائية لحكومة كينيا الاستعمارية وقتئذ بحزم أنها قد اقترفت زلة . ولكن كان توم مبيويا نفسه هو الذي دعاها للكلام وعمل كترجم لها . وأوضحت « زلتها » أحسن خطوة قامت بها في إفريقيا . في بحر أسبوع ارتفع القيد في سجلات محو الأمية إلى ثلاثة أضعافه . وانتشر البرنامج - كالنار في الهشيم ، من نيروبي إلى القرى في كينيا حيث تعيش الأغلبية الساحقة من الأميين البالغ عددهم في الدولة مليونين ونصف المليون

إعادة التسليح الخلقى : هراء أو أمل ؟

بصراحة قد دهشت لعدد المرات التي سألني فيها الأمريكيون عما أظنه في « إعادة التسليح الخلقى » في إفريقيا . يلوح أن كثيراً من الأشخاص قد قرءوا النبذات والخطابات الإخبارية ، والمجلات ، والإعلانات ذات الصفحة الكاملة التي تدعى فيها قوات إعادة التسليح الخلقى التي تعمل بين الإفريقيين ، قيامها بأعمال تطويرية عظيمة وخيرة

وللذين لا يعلمون أذكر أن حركة « إعادة التسليح الخلقى » بدأت منذ عشرة عقود ، مؤسسها هو الدكتور فرانك ن . د . بوكمان القسيس الثوري . وقد توفي الدكتور بوكمان في أغسطس سنة ١٩٦١ . ومستقبل المنظمة التي أنشأها وسيطر عليها غير مؤكد ، ولكن ما إن حل موته حتى كانت مدت نشاطها الممول جيداً حول العالم . وعدد أتباع بوكمان غير معروف ، حيث لا توجد كشوف بالأعضاء أو الطوائف . وقد تمسك بوكمان بإصرار باسم مسيحي لحركته . ولكن كتابات « إعادة التسليح الخلقى » ، يلاحظ عليها نقص اللغة اللاهوتية . وبعض الأشخاص المهمون جداً الذين أشاروا إلى تأييدهم للحركة في الماضي والحاضر هم جنرال جون . ج . بيرشنج وهنري فورد والأدميرال وليام ه . ستانلي ، وكونرد أديناور ، ونورمان فنست بيل وريتشارد نيكسون وماي وست .

وبأساليب شخصية تعظ منظمة إعادة التسليح الخلقى بأربع فضائل مطلقة : الأمانة ، النقاء ، عدم الأنانية ، الحب . وفي برنامجها الإخباري للجمهور ، تؤكد الحركة بإصرار الفكرة بأن نظرية إعادة التسليح الخلقى وحدها هي القادرة على التصدي للشيوعية بفلاح .

« إن الخيار للعالم بين إعادة التسليح الخلقى والشيوعية » .

وفي السنوات القريبة ادعت كتابات إعادة التسليح الخلقى دوراً ضخماً في وقف امتداد الشيوعية بإفريقيا .

ولم أستطع أن اكتشف أيّاً من معجزات حركة إعادة التسليح الخلقى في إفريقيا، ولكنني اصطدمت بكثير من ردود الفعل، ومعظمها معاد . وقد بالغت المنشورات في تصريح نسبته إلى رئيس جمهورية الكونغو كاسافوبو أن تأثير حركة إعادة التسليح الخلقى قد « وجد سر التحرر لإفريقيا » ، وتكررت الاستفادة من خطبة ألقاها نمادى أزيكيوى سنة ١٩٤٩ . وكان مكان الخطبة في خليط « ل . ت . خ » الفخم من المنزل واللوكاندات بمدينة كوبسويسرا . وقد تكلم أزيكيوى بحرارة عن « تجربة كو المدهشة » ، وبالغ في مديح ل . ت . خ « كجزيرة من السلام والتوافق في بحر من النزاع » ، ولكن مهما كان التأثير الأولي الذي طبعته ل . ت . خ على هذا السياسي القومي النيجيري المحنك ، فإنه قد أودع شكوى أخيراً ضد استعمال اسمه بغير إذنه في كتابات ل . ت . خ . وتحمل نسخة ٣ يونيو من جريدة غرب إفريقيا هذا التقرير : لقد سرنى رؤية شكوى الدكتور أزيكيوى الوجيهة ضد سوء استعمال اسمه بواسطة إعادة التسليح الخلقى ، في إعلان على صفحة كاملة أرادت الحركة إيلاجه في كل الجرائد النيجيرية (وقد فطنت بعضها إلى هذا ورفضت الإعلان الذي كانت قيمته أقل قليلاً من الألف الجنيه أو أكثر التي تدفعها حركة ل . ت . خ في صفحة « بلندن تايمز ») ، وقد زعموا أن الحاكم العام الذي لم يستشر بأية طريقة ، قد صرح أنه قد وجد بمركز ل . ت . خ الرئيسي « بكو » فكرة أثبتت أنها لؤلؤة ذات قيمة كبيرة، ولكنه احتج على أن ل . ت . خ . كانت تستعمل اسمه لمصالحها الشخصية الأنانية ، وهي في الواقع كانت تفعل ذلك من سنين . وإني لأتساءل عما إذا كان نائب رئيس وزراء سيراليون ، الذي نسب إليه أيضاً مقال في إعلان ، قد استشير ؟

وليست الشكاوى من تصرفات ل . ت . خ دائماً بهذا الاعتدال أو الاتزان . ونورد هنا بعض ردود فعل إفريقيين أيّاً كانت قيمتها :

« إن إ. ت. خ ظاهرة عابرة في إفريقيا . ومثل أفكار أخرى تتدفق الآن إلى إفريقيا ، فإنها سوف تلقى التحدى من القومية ، وبخاصة من المشحازين " للأفرقة " . إن أيامهم معدودات ، وإن يمضي وقت طويل قبل أن تطرد من إفريقيا هذه المنظمة المزيفة . الخائنة ، والاستعمارية .

إن الأشخاص الذين يصرفون أموالهم على إ. ت. خ مغفلون ، ومغفلون أيضاً أولئك الإفريقيون الذين يتجهون إلى إ. ت. خ . إن كل العملية عمل مجاني . يجب أن تفيق الحكومات الغربية إلى نشاط إ. ت. خ . قد يفيقون متأخرين ليجدوا أن إ. ت. خ قد تسببت في أضرار أكثر مما تسببت في نفع . من المحتم أن إ. ت. خ سوف تسبب في اضطراب إدارة سياسة أمريكا الخارجية في إفريقيا . إنى دائماً أتعجب لماذا يكون أصحاب رؤوس الأموال الأمريكيون مغفلين إلى هذا الحد ! ألا يدركون أنهم يقدمون خيراً أكثر لشعوب البلاد المختلفة لو أنهم أنفقوا أموالهم في مشاريع راسخة للتطور الاقتصادي والاجتماعي عما لو أضععوها على الشبان مختلي الأعصاب الذين يحرون وراء المغامرة والإثارة تحت ستار إنقاذ الآخرين من الانحلال الأخلاقي والشيوعية ؟

إن الإفريقيين الذين يقبلون رعاية إ. ت. خ ، ويسمحون لأنفسهم بأن يطاف بهم . ويعرضون ، إنما هم نهازون للفرص . إن تصرفهم يمكن تعليله . إنه مفهوم ، وإن كانت الانتهازية بأى صورها يجب أساساً أن تتحدد . ولكن ما الذى يمكن أن يتوقعه الشخص عدا هذا إذا كانت إ. ت. خ نفسها مذنبه بالانتهازية ؟ وحينما تشجع هى نفسها الانتهازية وحينما يكون ظهراؤها أيضاً انتهازيين ؟

« أجل لقد أخذت مالا من إ. ت. خ ، لقد تركتهم يطيرون بي إلى اجتماعهم العالمى ، وإلى الولايات المتحدة . وقد ألقى كل الخطب الحميلة التى أرادونى أن ألقها ، إننى أتقدم فى السن . كيف يمكننى بغير هذا أن أرى العالم ؟ ولكننى أرجو ألا يسمح لشبابنا أن يندرجوا فى هذه

الفئة . إنها لا تبشر بأى خير . إنها تستطيع فقط أن تضيف إلى الاضطراب الذى تعانىة إفريقيا اليوم .» .

لقد قرأت ما استشهدت به إ . ت . خ فى كتاباتها ، مما قاله الرئيس وليام توبمان من أن « إ . ت . خ هى أحسن طريق للوصول إلى وحدة إفريقيا وحريتها . هل كان يتوقع منه أن يقول غير هذا ؟ ألا يعلن كل الرجال والنساء المحترمين هذه المبادئ العامة .

« إذا فإنهم يحاولون تسليح الإفريقيين خلقياً ؟ هل يعنى هذا أنهم يعتقدون أن الإفريقيين منحلون خلقياً ؟ هو تكرار لنفس الأشياء مرة ثانية . إذا كان هنالك أشخاص فى حاجة إلى إعادة تسليحهم خلقياً ، فهم أولئك الذين فى الغرب ماذا تفعل « إ . ت . خ فى ميسسبي وألاباما ؟ »

وتتوالى على قراء منشورات إ . ت . خ قذائف من القصص عن شخصيات إفريقية تقوم بالاشتراك مع قوات إ . ت . خ « العاملة ، بالمعجزات عن التطهير والأعمال المضادة للشيوعية . وتذكر أسماء هذه الشخصيات وتنشر صورها وتوصف بأنها « زعيم سابق لماوماو » ، و « عقيد غانى » ، و « الزعيم القومى النيجيرى » ، « ووطنى كونغولى شهير » ... إلخ ، وببساطة ، من المستحيل تأكيد هذه الأوصاف أو إثباتها . « فالزعيم السابق لماوماو ليس معروفاً للكينيين كزعيم سابق على أى وضع » . والزعيم القومى النيجيرى ليس معروفاً بهذه الصفة بين النيجريين . وهكذا بالنسبة للباقيين .

وتعرض خيالة (سينما) « إ . ت . خ » بعض الأفلام من وقت إلى أخرى على نظارة إفريقيين ، كما تذاع بعض برامج إ . ت . خ على بعض محطات الإذاعة الإفريقية . وتقيم وتقطع ، بعض جماعات من الإفريقيين علاقات مع « مبشرى إ . ت . خ » ومصوريها ، وقد عمل أحد رجال إ . ت . خ ، الدكتور وليم . ت . كلوز ، وهو جراح أمريكى ، بإخلاص وبدون أجر فى مستشفى بشرى ليرلدفيل ، وقد كتب ، عملاً ، كل نشرة من كتابات جماعة إ . ت . خ .

ولكن يلوح أنه الوحيد من هذا النوع لأنه لا توجد قصص مشابهة .
ولقد كان ادعاء فرانك بوكمان أن حركته كانت « احتساباً لوجه الله » .
وبغير أن تنازع هذا . ما زالت هنالك ضرورة للقول بأن إفريقية ليست
في جانب إعادة التسليح الخلقى . أما كنفوذ مسيحى في إفريقية لإعادة التسليح
الخلقى مهمة في أحسن أحوالها . وهى مصدر مضايقة في أسوأها .

هل ستكون « نشكركم » ، والآن « الوداع » ؟

إن أى شخص يحاول أن يتنبأ بمستقبل المسيحية في إفريقيا يجاوز
قدراته . إن المبشرين يطردون من غينيا والسرديان والصومال ، ولكن هذه
ثلاث دول فقط من دول حاضرة ومستقبل كثيرة في إفريقيا . ولا يمكن
التنبؤ بما إذا كانت القرمية الجديدة سوف تكتسح المبشرين من بلاد أخرى
أم لا ، ولكن الحال الذى سوف تكشف عنه في الفصل اللاحق يوضح
الاحتياج الشديد إلى تعرف عميق لبعض التاريخ الذى يسطر الآن ، والذى
غالباً ما نتجاهله .

إن جريدة القرن المسيحى الصادرة في ٤ يناير سنة ١٩٦١ تحمل هذه
التأملات المتزنة السيدة الصادرة من ج . ماكليرد برايان عالم ويك فورست
الدينى .

« ربما يكون من الجائز جداً أنه فيما يتعلق بنفوذ المسيحية الغربية على
ما يحدث بإفريقيا ، سوف نضطر لأن نقنع بالدنو غير المباشر الذى تم عن
طريق جلبنا للإنجيل وزرعنا لفكرة الحرية وبتعليمنا زعماءهم . ويلوح
أن عهد تشكيل الحوادث السياسية الإفريقية بطرق مباشرة قد انتهى . ومن
الشعور الذى سبق وصفه ، وهو شعور يكون جزءاً من المنظر الجارى يضاهى
اشتراك العم توم في الإرساليات ، يمكننا أن نتوقع عاملاً هاماً في المسيحية
الوطنية وهو أن تشارك في صيغة تأميم المؤسسات ، بما فيها الكنائس .
وهذا قديعنى أن كل ما سوف تتلقاه الإرساليات سراء من أصدقائها ذوى
الرب والله وجوجو

النوايا الحسنة أو من الزعماء الوطنيين الواثقين من أنفسهم هو مجرد « نشكركم »
والآن الوداع .

ونحن نرغب بلهفة أن نستمع إلى أصوات الأمل فيما يختص بمستقبل
الإرساليات في إفريقيا . ولسوء الحظ . قد تكون هذه الأصوات هي شكاوى
رؤساء الكنائس والمجتمعات المحلية . خلقتها نسبياً تصرفات المبشرين . أكثر
مما تكون أصوات صانعي سياسة الدول القومية الجديدة . وليس هذا تحذيراً
مرتعباً . ولكنه تذكير متزن بأننا لا نستطيع أن نتجاهل ما وراء تأخر الكنيسة
الحالي في إفريقيا .

مواقف النخبة الإفريقية تجاه الدين

« في المستقبل لقریب جداً ، سوف تخسر المسيحية نهائياً في إفريقيا .
لأنها تخسر نهائياً فعلاً . هل تظن أنني عائد إلى إفريقيا لأظل مسيحياً ؟
كلا : إن كارل ماركس كان على حق حين قال : « الدين هو مخدر الشعوب » .
إن الدين يمنعنا من التقدم إن شعبنا يستمر في الغناء . والتصفيق للعبادة ،
ولكن المسيحية تخسر لأنها عكاز ، وحينما لا يستطيع العكاز أن يتحملك ،
فيجب عليك أن تضعه جانباً . بداهة ، قد تستمر المسيحية في أن تعجب
الطبقات الفقيرة التي تجدد الرقت للإغراق في الخيالات . وليس لديهم منافسة
فعالة ، وليس لهم حياة عقلية ، أو ثروة مادية تمكنهم من تسلية مشمرة كالترحال .
أو الذهاب إلى الخيالة أو المسارح ، أو إقامة حفلات ، أو أن يستضيفهم
آخرون . الدين هو مصدر التأمل الوحيد لهم . أما بالنسبة للطبقة المتعلمة
فالدين لا قيمة له . »

جاءت هذه التأكيدات القاطعة ردّاً على سؤال بسيط : ماذا ترى
مستقبل المسيحية كالتزام الديني لنخبة إفريقيا الناهضة ؟ المتكلم نيجيري
في أواخر عقده الرابع ، متزوج وأب لاثنين . كان لميثودستياً منذ أن بدأت
ذاكرته تعي . وقد قام بمهمة التدريس لبضع سنوات في مدرسة إرسالية
قبل المجيء إلى الولايات المتحدة ليقوم بعمل جامعي . وكان في بلده واعظاً
مخصصاً له ، وشغل عدة منابر للاوعظ ، وقد أجاب عن السؤال بدون أدنى
تردد . بالرغم من أنه كان يدرك أن إجابته تسجل كلمة فكلمة كما أنني
لم أعط أي تفسير للغرض من السؤال .

وبابتسامة عريضة ، استمر في قوله إنه لم يفته قداس أحد واحد
في أثناء إقامته في الولايات المتحدة حيث كان يحضر كلية للزواج في مدينة

بشرق بنسلفانيا . وقبل رحيله إلى الولايات المتحدة ، أعطاه رؤساء ميثودستيون في نيجيريا خطابات توصية إلى رؤساء ميثودستيين هنا ، وقد حاول أولا الحضور في الكنيسة الميثودستية في المدينة التي بها الكلية . وثبطه المتعصبون للجنس الأبيض من فعل ذلك . وأشاروا إلى أنه لن يرحب به كعضو . وبفضل بديع ، بحث في الموضوع واكتشف أن بنسلفانيا هي الولاية التي تأسست فيها الكنيسة الأسقفية الإفريقية الميثودستية في سنة ١٧٨٦ بواسطة ريتشارد ألان وشركائه . والسبب : النفور والإذلال الدينيين اللذين وقعا نتيجة للفرقة العنصرية في كنيسة ميثودستية بفيلادلفيا . والنتيجة : انتشار كنائس منفصلة للزواج في الولايات المتحدة .

وبعد أن تعالوا عليه في الكنيسة المحلية ، كان يسافر كل يوم أحد مسافة طويلة ليحضر في أقرب كنيسة ميثودستية للزواج . وقال إن هذه الكنيسة كانت على بعد تسعة وثلاثين ميلا ، وكانت رحلة السيارة تكلفه كل يوم أربعة دولارات في المتوسط وذلك بخلاف الهبات للكنيسة . وكان من ناحية مخلصاً للكنيسة الميثودستية بالرغم من اتجاهه العدائي نحو مستقبل الكنيسة في إفريقيا . وعلى أي حال فإن تفرقة رجال الدين الأمريكيين العنصرية كانت مريرة ، ولم يكن هو يفرق من وجهة نظره العامة للمسيحية بين البروتستانتية والكاثوليكية ، وإن كان يفضل الميثودستية .

وحينما ضغطت عليه لشرح لماذا يظن أن للمسيحية مثل هذا المستقبل الضئيل في إفريقيا ، انتقم المبشرين وقادة الكنيسة الإفريقية . قائلا : إن المبشرين البيض جاءوا إلى إفريقيا للتبشير بالإنجيل لم ينصروا شعبهم بعد . يجب عليهم أن يروا الرمد الذي في عيونهم قبل عيون جيرانهم . أنا لا أستطيع أن أفهم لماذا يجب أن تكون هناك تفرقة عنصرية في الكنيسة . إن الكنيسة مشروع تجارى ، وليس من المشجع رؤية المبشرين الأغنياء المتخمين . ولا عني أحذيتهم القسيسين الإفريقيين وهم يجمعون المال من الفقراء . ولعل الكنائس التي يتولى الإفريقيون إدارتها أسوأ من ذلك ، إنها

بلا شك منظمات لغلّ النقود لمصلحة قادتها .

وإذا تابعت أفكاره أصبح أكثر تعارضاً : « إننى أفضل الميثودستية . لأنها بالنسبة لى ناد آخر أنتمى إليه . إننى أومن براحة العقل . وفى الكنيسة أجده الفرصة للتأمل . وأشعر بالراحة كلما استطعت أن أناقش مشاكل مع قسيس . إننى أومن بوجود الله . ولا أعتقد فى الجنة أو النار ، فلا علم لى بوجود أيهما . إن القسيسين والمبشرين يضحكون النار جداً . إننى أومن بوجود كائن يستجيب لدعواتنا ولا أعتقد فى الأرواح ولا معنى لها لدى » .

لقد طرح ، ظاهرياً نغم ، « التيم » روح العالم غير المرئية ، التى لها كما سبق أن قررنا أهمية قاطعة فى معتقدات إفريقيا التقليدية .

وكان هذا النيجيرى يتكلم بحماسة واقتناع عميقين حينما هاجم الكنيسة ، والمنظمات الإرسالية والدين عامة . ومع هذا فمن الواضح أنه متناقض وجدانياً . من جهة كانت هنالك رغبة حاول عبثاً أن يخفيها ، هى أن يرى تصفية حركة المسيحية جمعاء فى أفريقيا ، ومن جهة أخرى كانت هنالك مشاركات شخصية ناضجة مع العبادة المسيحية والكهنوت .

هل لهذه الأحاسيس أى مغزى ؟ إننى أسجلها لأنها مثالية لجزء ضخم من النخبة الإفريقية الناهضة ، طبقة تتكون من نساء ورجال متعلمين ذوى مهنة ، مدرسين ومثقفين . إنها ما زالت طبقة صغيرة فى معظم بلاد إفريقيا ، وهى تضم الذين أتموا الدراسة الثانوية فقط ، والذين لديهم التدريب الجامعى ، وأخذ بعض أعضائها تعليماً أقل رسمية ، ومن بينهم محررو الجرائد ، ورؤساء النقابات العمالية ، وسياسيون مشهورون ، ولكن بسبب مجهوداتهم الشخصية ينتمون بحق للنخبة المثقفة . إنهم صانعو آراء إفريقيا . وجه إفريقيا للعالم .

وبين النخبة كثير من ممتنى ومزاولى المسيحية ، ولكن حينما يواجهون بمثل وجهات النظر التى صرح بها النيجيرى يبدعون يعتذرون ويدافعون . تراهم يدافعون عن المثل المسيحية . ولكن من غير المحتمل أن يدافعوا عن

الكنيسة والمبشرين بحرارة تماثل حرارة المهاجمين . وهذا ضعف خطير للمؤمنين المسيحيين في نخبة إفريقيا الصاعدة . وهو من بعض النواحي أكثر إيذاءً لرسالة المسيحية في إفريقيا من مهاجمة المنتقسين .

إن كانت هذه هي القاعدة العامة ، فإن هناك استثناءات هامة . كتب ندا بانيني سيثول ، وهو وطني من روديسيا الجنوبية . عن دور المسيحية في إفريقيا : « إن الكنيسة المسيحية بإرسالها البعثات الإرسالية الدينية والتعليمية والصناعية إلى إفريقيا قد وسعت أفق كثير من الإفريقيين ، منحت فرصاً لكثيرين منهم ليطوروا سجايهم الدفينة ، كما ثبتت الكراهية القبلية وشجعت بدلاً عنها الأخوة العالمية . ومن نواحي كثيرة أعطت الكنيسة المسيحية إفريقيا قادة سياسيين متزنين . إن القيادة السياسية الحالية المستنيرة لإفريقيا كانت تبدو شبه مستحيلة لولا الكنيسة التي نشرت التعليم في أجزاء كثيرة من إفريقيا . وبين النخبة الإفريقية من يشارك سيثول رأيه . وقد يكون آخرون أكثر تحفظاً . وفئة ثالثة قد ترى في كلمات سيثول « دفاعاً عاطفياً من عميل » . ومنذ سنوات قليلة ماضية نظمت مؤسسة العلاقات الإفريقية الأمريكية « وهي الآن شركة المؤسسة الإفريقية الأمريكية » منافسة كتابية بين الطلبة الإفريقيين في الولايات المتحدة . وكان الغرض من هذا المشروع الحصول على وجهة نظر الشباب الإفريقي عن تقوية العلاقات الإفريقية الأمريكية ، وتقرر أن أربعين طالباً ، في التعليم الثانوي والعالي ، قد دخلوا المنافسة . وكان الطلبة موزعين جغرافياً كما يلي : نيجيريا ٢٥ ، ليبيريا ٤ ، غانا ٣ . جنوب إفريقيا ٢ ، أفريقيا الجنوبية الغربية ١ ، الكامرون ١ ، روديسيا الشمالية ١ ، كينيا ١ . أوغندا ٢ .

ولأن الطلبة كانت لديهم أقوال كثيرة عن التبشير المسيحي ، فإن أوراقهم تمثل مسحةً واسعةً يندر وجود مثيله ، لعواطف النخبة الإفريقية الدينية . وكتب ليبيري : « إن من أعظم الفوائد ، إن لم يكن أعظمها ، التي تلقتها إفريقيا من الولايات المتحدة هو عمل مبشريها . لقد ذهبوا

إلى جميع أصقاع القارة وأنشأوا كنائس ومدارس ومستشفيات . لولا هؤلاء المبشرون ، ما تقدم التعليم في أجزاء كثيرة من القارة كما هو الآن .

وصرح طالب من أوغندا بالفكرة نفسها : « لعل أكثر العلاقات بين إفريقيا والولايات المتحدة توافقا وفاعلية قد تم خلال عمل المنظمات غير الحكومية كالإرساليات ومعاهد التعليم والمؤسسات الخيرية . . . وليس في عقولنا أدنى شك في إخلاص الأمريكيين ووفائهم لإفريقيا ، وأجزاء أخرى من العالم بهذا الصدد » . ولكن البعض كان مستعداً تماماً لأن يدين معاونات المبشرين بانتقاد شديد . وقد كتب طالب نيجيرى : « إن المبشرين حسنى الطوية الذين يذهبون إلى إفريقيا يؤكدون حقيقة أن الإفريقيين فقراء ، وبالتالي فهم يحاولون جمع المال من وطنهم لمساعدة إفريقيا . . . وقد يكون من الأفضل جداً لو أنهم أكدوا الواقع بحق بأن الإفريقيين فقراء لأن الاستغلال والسيطرة حرمتهم من مواردهم الطبيعية وثروة قارتهم » .

ووصف طالب آخر المبشرين بأنهم « وكلاء لسوء التمثيل الخارجى » ، وقال إنهم « كانوا ذئاباً فى جلود نعاج » ، وعلى المنهج السليط نفسه كتب طالب : « إن المبشرين مذبذبون بأكبر خداع حماسى لجذب الناس للعمل الإرسالى » .

وإنهم نيجيرى ، يسير على النمط نفسه ، المبشرين بأنهم يشبطون المنظمات الأخرى على العمل فى إفريقيا : « إن الإرساليات الأجنبية التى ساهمت فى التطور فى إفريقيا كثيراً ما تقف فى سبيل منظمات أخرى تود أن ترد إفريقيا . إنه من المؤلم أن بعض المبشرين يعودون إلى بلادهم ويقصون قصصاً مرعبة بغرض جمع التبرعات لإطالة عملهم فى إفريقيا . وبالرغم من أنهم يحصلون عادة على استجابة الشعب مالياً ، فإن الانعكاسات التى تنتج من مثل هذا القصص تشوه صورة الإفريقيين بين شعوب البلاد الأجنبية . وبالتالي تثبط عزيمة بعض المنظمات الأخرى بصورة غير مباشرة عن الذهاب إلى الخارج . ويكون الوضع أكثر تقديراً لو أن مثل هؤلاء المبشرين كانوا أكثر كياسة فى اختلاق قصصهم .

ولا مشاحة في أن التشويه قد أصاب صورة إفريقيا لدى الأمريكيين
للأسباب التي ذكرها هؤلاء الطلبة . إن العنف ، والبؤس والبدائية مغريات
يصعب على بعض المبشرين مقاومتها في تقاريرهم المرفوعة إلى طوائفهم في
بلادهم ، ولو أنها تتضمن التضحية السالفة . وللوضوع أهمية لأن بعض
الإفريقيين يتوسعون في تفسيره إلى ذلك الحد . إنهم يرون فيه كشفاً عن
كيفية أن بعض الأشخاص ذوي النوايا الحسنة أساساً - وهم في هذه
الحالة المبشرون - يمكن أن يقعوا في أحبولة تجاهل علاقة الوسائل بالنتائج
التي يتطلعون إليها .

وتتبع المناقشة الإفريقية هذه الخطوات : إن مبالغة المبشرين الكبيرة
في أحوال الحياة الإفريقية محسوبة لكسب الطوائف في أوطانهم لاستمرار
أعمال التبشير ، وطريقة تحقير الشعوب الإفريقية مؤسفة ، وإن تكن تبرر
مساعدة كثير من أعمال الإصلاح الضرورية . ولكن هذه الطريقة نفسها
تعمل على مستوى سخيف . يفترض المبشر ، بناء على معتقداته الدينية .
تفوقه على هؤلاء الذين لا يشاطرونه معتقداته .

ويدعم الافتراض عينه في علاقات المبشر مع الإفريقيين نتيجة لعمل
التبشير نفسه . إنه يسره أن يستحضر إلى إفريقيا ما اعتاده لشعوره بأنه
أسمى عما لدى الإفريقيين . والشعور بالسمو يخفى بهذا تحت رداء من
الإحساسات الخلقية والقوامة الدينية .

ومن الإفريقيين من هو صريح بقسوة عن هذا . قال أحدهم :
« لست متأكداً من أن معظم المبشرين يمكنهم أن يفرقوا بتعقل بين هدفهم
المزدوجين ، ولا يبعد أن يكشف التحليل النفسي أكثر مما هم مستعدون
للاعتراف به . لقد اعتاد مساعدوهم وكفلائهم في أوطانهم منذ أمد
طويل المؤثرات المسيحية الواردة في تقارير ميدان التبشير الإفريقي . سوف
يذكر لك أكثر من طالب إفريقي في الولايات المتحدة وأوروبا ما رآه في
الكنائس بهذا الخصوص . وإلى أنذكر شخصياً بعض حوادث . منذ أمد

ليس بالبعيد جداً ، حضرت إلى نثاتان نيجيريتان تدرسان في مدرسة تكفلها كنيسة ، والدموع تملأ أعينهما . وقالتا إنني يلزم أن أفعل شيئاً في هذا الموضوع . (كنت السكرتير التنفيذي لاتحاد الطلبة الإفريقيين في الأمريكتين) . كانت الفتاتان قد ذهبتا إلى برنامج كنسي حيث عرضت صور عن نيجيريا . وقدم المبشر نيجيرياً لنظارته بصورة فيها قرد . وكانت هذه أول صورة . طبقاً لفكرة الفتاتين . كانت تساعد على تمثيل أصل الشعب النيجيري . والصور اللاحقة وصفت الحياة بين شعوب تيفا في نيجيريا الشمالية . وحتى هذا اليوم لا يرتدى كثير من التيفيين سرى ملابس قليلة جداً . وهي فيما أعتقد من جلود الحيوان وأوراق الشجر . وقالت لى الفتاتان إنه لم يعرض شيئاً آخر عن نيجيريا ورأتا أنه يجب أن أحتج رسمياً إلى الهيئة . وكانت هذه التجربة كافية لأن توغر قلبيهما ضد المبشرين ، بل أيضاً ضد الإرساليات المسيحية في إفريقيا .

وفي الأوراق المكتوبة للمؤسسة ، انتقد عدة طلبة المبشرين لاتخاذهم دور الشهداء الذين تركوا راحتهم الدنيوية في أوطانهم ليعيشوا ويعملوا بين متوحشين حقيقيين . وقد علق أحد الطلبة من كينيا على ذلك بقوله : « لقد تأثر كثير من الأهالي حين سمعوا عن البلاد الجميلة وتسهيلات المعيشة الكثيرة التي ضحى بها هؤلاء المبشرون في أمريكا ليذهبوا ويعيشوا معهم » . ومن الواضح أن هنالك عنصراً من الصحة في هذا . إن المبشرين يقدمون فعلاً كثيراً من التضحيات الشخصية ، ولكن المفكر الإفريقي يفترض أنهم كانوا يعلمون ما يفعلون حين قبلوا هذه المهمة . وبمعنى آخر ، إن الادعاء بالتضحيات هو مثار تسلية بين الإفريقيين . ومن موضوعات الحديث المفضلة بين الإفريقيين بعد أن بدأت الكونغو تستقر أن نفس المبشرين الذين فروا وهم يصرخون من الاغتصاب والقتل كانوا أكثر تلهفاً على الرجوع » . وكتب طالب نيجيري : « أتذكر أن إحدى الإرساليات الأمريكية كان المرظفون البريطانيون دائمو الشكوى منها . كان للإرسالية الأمريكية مستعمرتها

الخاصة . مقاطعة متميزة ومكتفية ذاتياً . وكانوا يعيشون فى منازل بديعة ، وكانت لديهم أكبر السيارات وأحدثها . وإذا ما قورنوا بالإفريقيين فالمبشرون كانوا يعيشون فى الخنة . وفى كل الأشياء كانوا يعيشون فى سعة من جميع النواحي . وكانت أماكهم لا يمكن لأى رسول إفريقى غير متعلم أن يدخلها ، كما لو كانت ثكنات جيش ونسبياً كان الإداريون الإنجليز غريباً . ومن ناحية أخرى فإنى أعتقد أنهم كانوا يرددون نقداً مشروعاً . وفى رأى أن الإداريين الذين عمات معهم كانوا من سلالة كائنات بشرية أحسن من كثير من المبشرين الذين عرفتهم . هذا حكم قاس . ولكنى سمعت كثيرين من الإفريقيين الذين كانت لهم صلات قوية مع المبشرين البيض يتدمرون بمرارة من قصورهم وغرورهم .

تشكى طالب آخر من الطريقة التى يشجع بها المبشرون أفراد طائفتهم على تقديم الهدايا من الفاكهة واللحم وغيرها من الأشياء ويقبلونها منهم . كتب :

فى الواقع أن الإفريقيين شعوب كريمة وأنا نعتبر عن كرمنا بتقديم الهدايا . ولسوء الحظ قد حول المبشرون هذه العادة إلى التزام ، بل إن هذه العادة قد امتدت إلى مدارس الإرسالية الابتدائية . وإنى أذكر أن أخى حينما كان يعود من المدرسة كان يسأل أهلينا أن يشتروا له بعض البيض ليستطيع أخذه إلى المدرسة لأن بعض الكنسيين الرسميين سيزورهم . وقد امثل والدى فى أكثر من مناسبة ثم اضطر لأن يضع حداً لهذا . وأعتقد أن العادة توقفت فى هذه المدرسة بالذات ، على أنه كان من النتائج بعيدة المدى لهذه العادة أن الطبقات الصغيرة من الكهنة الإفريقيين والعمال الدينيين قد خطوا خطوة أبعد من المبشرين وحوارها إلى رشوة سافرة لأداء نوع أو آخر من الخدمات .

وحنى هؤلاء الذين مدحوا عمل المبشرين كثيراً ما نقدوا تصرفاتهم حيال الحضارة الإفريقية ، وعلق على هذا طالب من أوغندا : « لقد

طالبوا المهتدين بأن يتركوا العادات والتقاليد التي تصبح الحياة بدونها لا قيمة لها . كانوا مذبذبين بغرور حضري ، بتصرف أناني حيال الإفريقيين الذين عدوهم وثنيين ملعونين . وقد انتصر على المبشرين حين قرر أنهم لا يفرقون في تدريسهم بين ما هو « أفكار دينية خالصة » وما هو « مجرد تصرفات اجتماعية » .

ولما نوقشت هذه النقطة مع الإفريقي المتفلسف ، قرر أن المبشرين كانوا حقيقة يتصرفون كأنما يطيعون رأى الأستاذ ديتريتشى وسترمان عالم السلالات الألماني المسيحي الذي حذر : « مهما كان البشر متلهفاً لتقدير القيم الاجتماعية والأخلاقية للأهالي والحفاظ عليها ، فعليه أن يكون عديم الرأفة في مسألة الدين . . . عليه أن يعترف ، بل يؤكد أن الدين الذي يعلمه يعارض الدين القائم وأن على أحدهما أن يسلم للآخر » .

والصعوبة هنا أن قليلا من الغربيين من يمكنه التأكد من أى الأفكار الإفريقية ديني ، في المفهوم الغربي ، وأياها يكون تصرفاً اجتماعياً وحضرياً ؟ وكما وضع إفريقي قادر على التمييز : « إن النزاع بين المسيحية والحياة الاجتماعية والحضرية الإفريقية ربما يكون أكثر المسائل خطورة على الكنيسة في إفريقيا . إنه لهذا النقطة بالتحديد يلزم قيادة إفريقية للكنيسة ، لأنهم يجب أن يكونوا مستعدين للمنافسة سواء مع التقليديين أو مع النخبة الصاعدة والمتقنين ، ليوضحوا السبب الذي من أجله يجب علينا أن نهجر طريقتنا في الحياة لمصلحة المسيحية . هنا تواجه المسيحية ، وسوف تستمر في هذه المواجهة ، صعوبات جدية ، في حين تنمي الوطنية الإفريقية أساطيرها وأفكارها الخاصة عن طبيعة الأشياء ، والمجتمع ، وعن الطبيعة نفسها .

وإنه لذو مغزى أن بضعة من الطلبة الذين دخلوا مسابقة في المؤسسة طالبوا بنقل سريع للقيادة الإرسالية إلى أيد إفريقية إذا أريد تفادي ريب إضافية . وجاهر مساهم ليبيري بموافقه على الإنحاء إلى هذا الاتجاه ، وذكر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية « كالأولى التي تلقت الرؤيا ووضعت

في حيز العمل قيادة إفريقية للكنيسة .

ولكن حينما جوبه إفريقي آخر بهذا التصريح قال : « من الواضح أن هذا الشخص لا يدرك الخصيصة الانفرادية للقيادة الكاثوليكية والصعوبات التي لاقتها دول كثيرة في علاقتها مع السلطة الكهنوتية في روما . والحقيقة ، أن هذه الصعوبة قد ظهرت بشكل ملموس . وإني أذكر ، على مستوى شخصي جداً ، أنني قد فقتد صديقاً إفريقياً عزيزاً . وقد أكمل منذئذ تمرينه لكهانة الكاثوليكية . لأننا لم نتفق على مسائل سياسية وعلى الوسائل التي تتبعها الكنيسة الكاثوليكية . وابتدأت مشادتنا حينما كتب لي صديق مثنياً على أعمال جمعية الشبان الكاثوليك الذين كانوا أداة في أعمال عددتها من أعمال الغوغاء ، وهي تفريق اجتماع لمرشح لم يوافق عليه الكهنة الكاثوليك . وكتبت إليه مقررأ ومذكراً بمدى خطورة هذا على ذات بقاء الكنيسة في إفريقيا إذا التحم قادتها في معارضاات سياسية . ولم أسمع من صديقي شيئاً إطلاقاً بعد ذلك . على أنني قد نمت إلى علمي أنه هو نفسه قد أضحي متألماً من نشاط الكهنة الكاثوليك السياسي » .

وأعضاء النخبة الإفريقية عموماً صارمون في المناداة بفصل الدين المنظم عن السياسة ، ويقول البعض إن سجل الإرساليات المسيحية ، في معاملاتها السياسية « وما يتضمنه من خيانات صريحة للحقوق الإفريقية » قد جعلهم متلهفين جداً الآن يفصلوا بين الساططين . وهناك مثلاً شعور سائد بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت مشتركة في مؤامرات ضد حكومة الكونغو التي كانت تحت رئاسة باتريس لومومبا . ويعم الشعور بأن التعدد الديني كبير جداً في بلاد إفريقية كثيرة حتى إن الفصل بين الدين الرسمي عن أعمال الدولة ضرورة عملية . ويخشى - حينما يصبح الدين مسألة سياسية أن تزداد قوة الشبح القديم لإفريقيا المنقسمة المهلهلة . وكان شيء من هذا النوع في ذهن القائد السياسي لنيجيريا الغربية . الرئيس أوبافى أولوا ، حينما كتب في سنة ١٩٤٧ : « . . . إن حكومة نيجيريا (الإدارة البريطانية)

قد ساعدت على طول الخط على أن يحتفظ لهاب هذا (الدين الإسلامى) المتعصب مشتعلًا بيهاء وبقوة . . .

وكان هنالك وقت حرمت فيه الحكومة على الإرساليات المسيحية إذاعة الإنجيل فى المقاطعات الشمالية . وحتى الآن تعمل الإرساليات فى مناطق محدودة . وكان التفسير الظاهرى لهذه السياسة أنها قد تخرج الأحاسيس الدينية للشمال الإسلامى . واحتج بأن هذا قد يكون له رد فعل سبى - على سير المسائل السياسية هنا . ويرى الشماليون أن هؤلاء الذين يعيشون فى نيجيريا الجنوبية . إذا لم يكونوا مساهمين ، فما هم إلا كفرة وثنيون . حتى لو كانوا مسيحيين . ولأنهم كافرون ، ينظر إليهم باحتقار واشتمزاز . وفى مؤتمر للزعماء الشماليين فى سنة ١٩٤٢ برز للمناقشة خطاب ورد من اتحاد طلبة إفريقيا الغربية بلندن . . . والتمس الكاتبون من الأمراء الشماليين وشعوبهم التعاون مع الجنوبيين فى حل هذه المشاكل . وكان تعليق الأمراء على هذا الالتماس بالتعاون كما هو منصوص عليه فى التقرير الرسمى للمؤتمر كما يلى : « إن الحفاظ على ترابط هذا القطر غير ممكن إلا عن طريق دين النبى . . . إذا أرادوا وحدة سياسية فعليهم أن يتبعوا ديننا » .

ومع بروز حقائق الاستقلال أمامهم غير الأمراء وشعوب نيجيريا الشمالية خططهم السياسية وإن لم يغيروا فاسفهم الدينية . إنهم الآن يعيشون سويًا مع كافرين فى نيجيريا متحدة حرة . ولكنه ليس من العسير تصور النزاع الذى ينتظر نيجيريا إذا نشدت هيئات دينية فعلا نفوذًا ومميزات خاصة .

إن هذا الاحتمال هو الذى دعا طالباً نيجيريًا بالمطالبة بإلغاء كل المدارس الدينية . قال : « لست أوافق على وجود مدارس يكفلها الدين فى نيجيريا . لا يمكن أن يكون لك سيدان . إن كل الأديان تنشد مهتدين . وتجد المدارس ممرًا حسنًا لتجنيد أعضاء جدد . يجب أن يكون

الفصل تاماً . يجب ألا يتدخلوا في تعليم الشباب . لماذا نتحمل ضرائب مزدوجة .
ضرائب الدولة للتعليم وضرائب الهيئات الدينية التي تفرضها على أعضاء طوائفها
للمدارس الخاصة . وبالإضافة إلى هذا فإن إدارة معظم المدارس التي تكتفلها
الكنيسة سيئة . هنالك طوائف أكثر من اللازم وفلسفات تعليمية أكثر من
اللازم . وبالذات مبادئ تعليمية أكثر من اللازم . إننا نحتاج إلى إدارة
حكومية كاملة لتعليم شبابنا . وإذ لم نفعل ذلك فإننا سوف نستمر في تقديم
شباب تعلم في خيال أوربا أو العالم الأبيض . إن هنالك أخطاء كثيرة في
التعليم كما هو الآن . ويجب علينا أن نعيد صقل كل الموضوع إذ أردنا أن
نتج « الشخصية الإفريقية » .

وأعطى طالب آخر النقطة نفسها تشويهاً أكثر عنفاً : « إن الشر الأساسي
للتبشير المسيحي في إفريقيا هو تراثها النفساني . المسيحية هي دين أسيادنا
الجانبيين الأجانب . وقد ينظر إلى زيادة انتشارها بين شعب يحاول أن ينفذ
عنه آثار أسياده الأجانب نظرة ريبة . وليست فكرة إقناع الرجل الأسود
بقبول رب الرجل الأبيض سوى ترادف لإقناعه بقبول دوره الأدنى » .

وهذا التعبير الأخير . على قدر ما يبدو مذهباً ، أساسى في تفهم المرارة التي ،
تسببها الفئة الصاعدة في إفريقيا حين تتطلع إلى المسيحية كالتزام ديني محتمل .
وتشكل هذه المشكلة نفسها بالنسبة لعضو من النخبة بهذه الطريقة : إنه
صحيح جداً أن يقال إن نفوذ المسيحية أدخل العنن ، بدرجات متفاوتة ،
في تفكير رعييل القادة الإفريقيين الأول . إن جيلهم قد اعتمد كلية تقريباً
على المدارس الإرسالية في التعليم على كل المستويات عملاً ، وقد بقي فيهم
فضالة من النوايا الطيبة تجاه مشروع الإرساليات . وعلى هذا فالجيل الذي
كان أول من تولى زمام السياسة الإفريقية في يديه انتقد الكنيسة وبعض
المزاوالت المسيحية . ولكن بشعور ميل خفيف وشعور بالتزام أدبي شخصي .

في الخطبة التي ألقاها الدكتور أزيكيوى سنة ١٩٥٧ في الاحتفالات
المئوية لإرسالية النيجر التابعة لجمعية الكنيسة الإرسالية ، أظهر الوطني

المنتهب الذي كان زعيماً وقتئذ . شعوره بتجربته في تقديم هذا الاعتراف الرائع بالجميل :

« يا صاحب النياقة . إن واجبي الرئيسي أن أؤكد لكم ولضيوفنا المحترمين أن هدف جمعية الكنيسة الإرسالية في هذه الأسقفية قد تحقق . إن الجمعية كانت ترسل المبشرين . والمدرسين . والأطباء لتعليمنا وتبشيرنا وشفاء أراضنا البدنية . ولتعميدنا حتى يمكننا أن نمارس حياة جديدة في مجتمع جديد يقوم أساساً على المسيحية . هذه البذرة التي غرسها هؤلاء المبشرون ذوى الرسالة قد آتت ثماراً يجب أن يفخر بها المجتمع . . . يا صاحب النياقة ، إنني سعيد أن أشارك في إسهاب وإعلان هذا الإنجاز التاريخي بعد مائة عام من التضحية . والشهادة والثقة في مستقبل الإنسانية . هذه معجزة حديثة . حقاً إن المجتمع المسيحي زواله للأبطال الذين يعيشون بالعقيدة . هل كان يمكن بغير هذا لستة عشر قسيساً وللتسعة العلمانيين الذين أسسوا جمعية الكنيسة الإرسالية منذ مائة وخمسين وثمان سنين مضت ، أن يحاموا أحلاماً وأن يروا خيالاً لنيجيريا متحررة من نير الخرافات ومتحولة إلى قلعة للمسيحية ، ولم يكدهم يمضي قرن على رسوداي سبرنج « في أونيتشا » يا صاحب النياقة إن هذا من عمل الرب ، ولأنه لرائع في أعيننا .

هنالك الكثيرون من جيل أزيكيوى . ولكنهم أنل جداً في الجيل اللاحق . مستعدون لأن يشهدوا بمثل هذه الصيغ الباهرة على « معجزة » المسيحية في إفريقيا . على أن الزعماء والمثقفين الأصغر سنّاً أكثر إحجاماً عن المدح واستعداداً للنقد . ولأنه من المرجح أن يتكلموا بطريقة محايدة عن فرص المسيحية المستقبلية في إفريقيا ، قائلين إن هذا سوف يتوقف على حكمة قيادة المؤمنين المسيحيين الإفريقيين . « وعلى تصرفاتهم واستقامتهم ككائنات بشرية طيبة » .

ويصرّ الشباب الإفريقي المثقف على أن المسيحية لم تعد تستطيع أن تضع في سجل الأعمال أو التصرفات مبشرين أجانب لبيع دينهم للنخبة الصاعدة . وأحد

أسباب هذا الاعتقاد السائد بين كثير من المثقفين بأن في مكنتهم اكتشاف مصادر بديلة لحياة ثقافية . وأخلاقية ، وفلسفية مستقلة عن الأساس المسيحي الغربي . وإن شاركت هذه المصادر كثيراً من المسيحيين في أنحاء كثيرة من العالم في مثل هذه القيم .

وليس من المحتمل أن تقودهم مثل هذه الترضيات البديلة إلى ارتباطات مسيحية لها نفس معنى ارتباطات نيريرو وأزيكيرو . وطالما كان للكنيسة المسيحية شبه احتكار لتعليم الإفريقيين ، فإن الرجال والنساء الذين تمرنوا ، أو الذين تمتعوا بهذه الخدمات ، كانوا مستعدين لرد فعل كريم تجاه العقيدة المسيحية ، على أنه ما دامت هذه الخدمات الآن تزداد إمكانية إدراكها خارج المجتمع الديني فهناك موقف نفساني مختلف .

شعور النخبة بالتاريخ

« نحيا أعمال الشريرين بعدهم . وغالباً ما يثوى العمل الطيب مع العظام » يصف هذا المثل السائر عن طريق المبالغة ما يحدث في التفكير الديني لكثير من النخبة الشابة . من الجائز ألا يكون هذا سوى مجرد رد فعل وقى ، ولكنه السائد الآن . إن سجل الاتصال بالأوروبيين هو أكثر تاريخ حيّ وحال يملكه المثقفين . وهذا السجل هو نقطة بدئهم في محاولتهم تفهم موقفهم الخاص في العالم المعاصر ، وتكاد تكون اجتماعات الشباب الإفريقي طقوسية فيما يتسلط عليهم من شعور بأن الإفريقيين كانوا آخر الشعوب المستعبدة في التاريخ الحديث . وإن الكنيسة المسيحية في أعلى مستوياتها لم تر أى تعارض في أعمال مواطنهم الصارخة ، وإن استمرار الضغط على الزوج في الولايات المتحدة باق كدليل ورمز ممقوتين لهذا الإذلال .

وقد أفصح أوبو أوجانشاي مدير الدراسات الحرة في كلية الجامعة بعبدان،

هذه الفكرة المتسلطة « كتركب نقص عبودية » . وينصح بالتخلص منها بأسرع ما يمكن . ولكنه يصارع تياراً قوياً لايجرى إطلاقاً في مهده :
وفي مؤتمر للطلبة الإفريقيين في الولايات المتحدة عقد في جامعة شيكاغو سنة ١٩٥٨ قال الدكتور أوهين من توجولانده للمندوبين :

« إن اكتشاف واستعمار الإسبان الأمريكيين . وافق عصر النهضة حين كانت قوة المال حقيقة فوق كل شيء . ولم يستطع المبشرون الذين تابعوا الغزاة أن يحموا السكان الأصليين من قسوة الاستغلال . وقد سافر لاس كاساس ، وهو أشهر المبشرين ، عدة مرات إلى أوروبا ليفضح لمديره سوء تصرفات المستعمرين . وقد كاد مواطنوه أن يشنقوه ، كما أنهم بأنه كان لوثرياً مستتراً » .

ومن جهة أخرى . تمت محاولات نشيطة لاستعمال المبشرين . لا لمصلحة المسيحية . وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية . واسجلات المستعمرات مغزى واضح جداً في هذه النقطة بالذات . . . وقال ملك فرنسا : « الدين ضروري لكل الناس . ولكنه أكثر ضرورة في المستعمرات الآهلة بالعبيد التي لا يمكن أن تحوى أملاً في سوى حياة أفضل . . . بعد الموت » . وفي عصر النهضة ، كتب وزير البحرية إلى حاكم المارتينيك : « يجب على المبشرين أن يلاحظوا مدى خطورة الوعظ في أثناء شرحهم المستفيض لقواعد الإنجيل الحكيمة ، بالمساواة التي تتعارض مع مبدأ الاستعمار المحكم » . وقال نابليون الأول في جلسة مجلس الدولة في الثاني والعشرين من مايو سنة ألف وثمانمائة وأربع : إن في فيتي إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية ، فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عوناً كبيراً لي في آسيا . وإفريقيا ، وأمريكا . سأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار . إن ملابسهم تحميمهم وتخفي أية نوايا اقتصادية أو سياسية » .

وقد أوضح للدكتور أوهين للطلبة أنه كان يعرف شخصياً كثيراً من المبشرين البروتستانت . والكاثوليك الذين لم يتنازلوا عن مبادئهم . إن بحثه

لم يكن شخصياً وإنما كان تاريخياً . وهذا البحث يؤثر الآن في الشباب الإفريقي تأثيراً أقوى من كل ما حققه الأفراد المبشرون من خير . ربما يكون قد تناول التاريخ بعقلية « رجل مستعبد » . ولكن التأثير حقيقى فى عقول النخبة الإفريقية الناهضة . هذا هو الميراث المرير حالياً . ومن المحتمل أن يزداد إحكامه فى المناهج الدراسية للبلاد المستقلة .

كانت لندن سنة ١٩٦٠ مسرحاً لمؤتمر لجميع الطلبة الإفريقيين فى المملكة المتحدة وشرق وغرب أوربا . والولايات المتحدة وإفريقيا . وثار هذا البحث بمرارة عن علاقة المسيحية التاريخية بالاستعباد والاستعمار والإمبريالية والعنصرية فى كل خطب المندوبين . وكان خطاب ب . شانجو ماكيو . الذى مثل اتحاد طلبة شرق ووسط إفريقيا فى المملكة المتحدة من أكثر الخطب حماسة :

« إن كل أمة فى العالم قد ضحكت علينا فعلاً . لقد سخرت منا الأمم . صغیرها وكبیرها ، كنا موضع احتقار . وعلمنا كل نوع من الإساءة . والإذلال ، وسوء المعاملة الوحشى مما يطلق علیه اسم العالم المسيحى المتمدن . « أصدقائى » بعد بهيمة الأحمال . الإفريقى هو أكثر الحيوانات صبراً . لقد أدركنا خدنا الآخر ولكن هذا لم يكن قط موضع تقدير .. غنينا . وصفرنا ، وضحكنا فى أحزاننا . ولكن التصرف الإنسانى لم يكن له قط أى أثر على معذبينا ؛ إن الأرباح من العبيد الإفريقيين بنت قصوراً . وكنائس ومدناً . . . قد يبدو هذا كأنه تاريخ ، ولكن الاستعباد ما زال بين ظهرانينا حتى هذا اليوم : إن نصيب الرجل الأسود فى جنوب إفريقيا ، وفى روديسيا الجنوبية ، وأنجولا ووزنبىق . ما زال آلاماً نهائية وبؤساً غير محدود . إننا جميعاً عبيد لأن الملايين من شعوبنا ما زالت تنألم من إذلال السيطرة السياسية والاقتصادية والروحية . »

إن الزعماء والمثقفين الإفريقيين ، على النقيض من أسلافهم بلحيل مضى ، تهاجمهم دوافع متسعة النطاق من طرق متعددة . فهناك ادعاءات باطلة كثيرة عن إساءة المعاملة . كما أن تصرفات الدول المسيحية فى إفريقيا ما هى إلا مسائل نظرية محاية وشخصية . وتهاجم المسيحية لهذه الإساءات بتعبيرات

نظرية ، ويساند الهجوم إسهابات عن المداهنات . وقد أعطى ج . م . كايرال
طلبة في مؤتمر لندن هذا البيان المصوم عن النشاطات الإرسالية في ممتلكات
البرتغال الأفريقية .

« ليست هالك بالذات أية مدارس . أو على الأصح توجد بعض مدارس
تحت سيطرة الكنيسة الكاثوليكية ، هل تعلمون ماذا تدرس ؟ ليس حب
الرب ، ولكن حب البرتغال . إن كل المبشرين الكاثوليكين ، وإن لم يسموا
موظفين رسميين . . فإنهم يعدون موظفين في الخدمة الخاصة للمصالح
الوطنية والمدنية . هذه هي الكلمات الفعلية لوصف مركز المبشر سنة ١٩٤١ .
إن الأعمال الإرسالية في المستعمرات تكفلها الحكومة » . واعتلى المنصة لويس
دالميدا ، من الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ، ليضيف بيانه السليط عن
الأحوال في أنجولا :

« كثيراً ما تكون الحالة أنه بدلا من أن يحضر الأطفال الإفريقيين دراساتهم
أن يؤخذوا للعمل من الضيعات أو المزارع الإرسالية دون أن يعرفوا أى شيء
عن القراءة أو الكتابة . . . ويجب أن يلاحظ أن تعاليم السكان الوطنيين تقوم
به الإرساليات الكاثوليكية ، وذلك تنفيذاً لاتفاق تم توقيعه من عشرين سنة
خلت بين البرتغال والبابا . وطبقاً لهذه الاتفاقية تلزم الإرساليات الكاثوليكية
« بتعليم اللغة البرتغالية خاصة في المدارس . . . ويجب أن يتبع التعليم الأهداف
التي ينص عليها الدستور البرتغالي » .

« . . . واسمحوا لي أن أنقل حرفياً فقرة من مقالة حديثة للكردينال
رئيس أساقفة لورنزو ماركس ظهرت في مجلة البرتغال في إفريقيا ، العدد
الصادر في مايو سنة ١٩٦٠ ، تتناول المقالة : « إن ما يأمل المبشرون تحقيقه
من تعليم وتهذيب الشباب الوطنى هو أن يحتفظ بكنيسة موزمبيق باستمرار
إلى جانب البرتغال » ، وفي فقرة أخرى : « إن النشاط الإرسالي يمنح البرتغال
فخراً في المنظمات العالمية السامية ، ويكون سنداً قوياً للسيادة البرتغالية »

..... » هذه يا أصحابي هي المهمة المتحدية المسيحية التي يقوم بها البرتغال . كونوا أنتم قضاة . »

وتناول النخبة الإفريقية الناهضة أساساً للموضوع من الناحية النظرية . هو أن تستنكر بتضرر مشاركة المسيحية للاستعمار . ومن المستحيل التنبؤ بما إذا كان هذا يعوق في المدى الطويل الارتباطات الشخصية بالعقيدة المسيحية أم لا . ويسيطر على التفكير في الوقت الحالي شك متناه . مهمة المسيحية في أفريقيا .

التراث النفساني للمسيحية

تالباً ما يقوم الادعاء في أوساط النخبة أن مجرد قبول الإفريقيين للمسيحية يكون نوعاً من التحول الثقافي والنفساني . فالمسيحية جاءت ، ليس فقط كنظرية دينية بسيطة ، ولكن كمدعوة من القيم والقواعد الاجتماعية والحضرية رأت أنها أرقى من أي شيء قدمته الحضارة الإفريقية . ليس غريباً إذاً أن ينتج من ازدياد الشعور بالذات بين المثقفين الإفريقيين رد فعل عدائي بين الكثير منهم .

وقد قيل لي في هذا في المناقشة مع عالم إفريقي إنه « في الحقيقة ، قد أظهر لنا كثير جداً من المسيحيين غروراً حضرياً فيه من قصر النظر ما في نظرية السيادة العنصرية الغربية . في كثير من الأحيان ، كان يطلب من المؤسسات المسيحية مساندة كل من السيادة العنصرية والاستعمار الحضري ، وقد قدمه والنا الرب في النظرية المسيحية أبيض ، كما أن كل الفضائل ، بما فيها مقاييس الجمال . كانت بيضاء . وإن الضرر النفساني الذي أحدثه هذا للزوج في العالم الجديد معروف لنا تماماً . على أن الممتع أن المثقفين الزوج في العالم الجديد لم يكن رد فعلهم لهذا الموقف في مثل شدة ما حدث في إفريقيا . »

وبدلاً من ذلك لم نجد النظريات التي تبحث في دفع تأثير هذه التلامات النفسية بين الزوج الغربيين سبباً إلا بين الطبقات الدنيا مثل حركة جارفى . أو الحركة الإسلامية السوداء . أما في إفريقيا ، باستثناء حركة الطبقات الدنيا في « الكنائس الانفصالية الاستقلالية » . فبالعكس هو الصحيح . وقد اعترف الزعيم أولوا . في كتاباته عن تاريخ حياته ، أنه كان يعتقد في صباه أن الرجل الأبيض رجل متفوق . وأن لونه يمثل « الرقة والبراءة » والطهارة لكم ظننت أنه كان رجلاً عظيماً . كم حابه الرب بهذا الجلد الأبيض وبأن يشغل مركزاً من الرفعة المبهجة » .

. إن رد فعل الإفريقي المثقف على هذا التدرج في التحول النفسى يدفعه إلى وجهة نظر تشابه مثيلتها في الطبقات الدنيا الوطنية السوداء في الولايات المتحدة . هنالك إنكار أن مرجع هذا إنما يعود إلى التفوق الأسود . ولكن هذه التفرقة ليس من اليسير الدفاع عنها في بعض الأحيان . على الأقل أنه نظر للأشياء ، بما في ذلك الرب . خلال عين الرجل الأسود . ونجد تعبيراً لذلك في الأدب الإفريقي كما كتب المرحوم . ر . ج أراماتوا :

إن ربنا أسود

أسود من سواد دائم

بشفاه كبيرة فاجرة

يشعر متلبد وعينين عسليتين صافيتين

إنه ذو جسد جميل

لأن على صورته قد صنعنا

إن ربنا أسود !

وفي « اللجنة السوداء » كتب نفس المؤلف :

والملائكة سود كالحبر الهندي

وغنى قديسون أحلك سواداً

إن هنالك أكثر من محاولة « لأفرقة » المسيحية . إنه نوع من رؤية العالم

كله خلال عين الرجل الأسود . وقد أدلى ملفين ج . لاسكى . وهو بريطاني بدلوه فى التفسير : « ما هو لون الرب ؟ إذا كانت المسيحية الأوروبية قد توصلت إلى إقناع الإفريقيين بأنه كان أبيض . وخرجت الوطنية الإفريقية لتقنعهم بأنه كان حقيقة أسود . إن هذا تحول طبيعى جداً لتقدير القيم اللونية . وإنى أجد فى دراسة صان كلر (أنبياء بانتو) صفات لما يمكن أن تكون عليه جنة التفرقة العنصرية : هنالك علامة على هذه الأبواب اللؤلؤية مكتوب عليها « للرجال السود فقط » بدأ التحرر الإفريقى تحت سحر المبادئ البيضاء . ولكن الكفاح الإفريقى انتصر بعكسها » .

وقد تخلل تحول التيم هذا الحياة السياسية للزعماء الوطنيين الإفريقيين . ويذكر توماس هود كنز فى كتابه « الوطنية فى إفريقيا المستعيرة : أنه حتى فى غانا ، مع مستواها المرتفع نسبياً فى التطور الاقتصادى والتعليق تضمنت مجهودات حزب مؤتمر الشعب لخلق حركة جماهيرية سياسية استعمال طقوس دينية معروفة : غناء « قدنى أيها الضوء الخافى » . ، وإنشاد الصلوات القومية ، ومذهب أخذ فيه كوامى نكروما مكان الرب . فى حين لعب سيرارون كالارك (حاكم غانا وقتئذ) دور لونتويوس بيلات . وأبلغت عن ظاهرة مشابهة فيما يتعاقب بقومية كيكير فى كينيا ، حيث تعرفوا على جومو كنياتا فى ترنيمة عيسى المسيح . وحديثاً ظهرت مقالة فى جريدة « أكرا إيفننج نيوز » تقرر أن النكرومانية هى أرق أشكال المسيحية ، وأفادت المقالة قراءها بجديّة أن الطنل المسيح قد لجأ إلى إفريقيا . وأنه حينما اقتيد المسيح إلى الجلجثة تقدم متطوع إفريقى لمساعدته فى حمل حملاه الثقيل » .

واستمرت المقالة : إن المدنية المسيحية اليوم مشغولة بحجر المسيح إلى جلجثة (الاختبارات الذرية فى الصحراء) ومرة ثانية يحمل إفريقى الصليب عن ابن الإنسان . هذا الإفريقى هو كوامى نكروما . أجل أيها الرجال ضعيفى الإيمان ، أيها الفريسيون . أيها الأصدقاء والأنبياء المدعوون ، انظروا ها هو ذا يأتى

متخفياً . إنه مسيح ثان لإفريقيا وللعالم : يأتي حينما تتعذب الأطفال في الأرحام من معدن سترنتيم ٩٠

وهناك بعض الشطط المزعج في أطراف النهضة الحضرية في إفريقية . ولا يبدو جلياً كيف قد يؤدي هذا إلى نوع ما من نهضة إفريقية متميزة . أما فيما يختص بالدين . فإن مجتمع النخبة ما زال في حالة جحد ، وليس بعد في حالة إنشائية . إن النهضة الحضرية عدائية جداً - الزنجية ، والشخصية الإفريقية - وإن لم يكن هنالك اتفاق محدد على مضمون النهضة الحضرية . وما يوجد هو اتفاق على مبدأ وجوب وجود شخصية إفريقية متميزة . وذلك بدون افتراض الأفضل من حياة العالم السياسية ، والاقتصادية ، والحضرية ، والدينية .

إن النزاع والاضطراب الانفعاليين اللذين ينتجان من هذا المجهود للحفاظ على شخصية حضرية ، والاقتراض في الوقت نفسه مما هو أفضل في مدنيات الآخرين ، قد التقطه كان ثيمبا في كتابه « صلاة الجناز على مدينة صوفيا » .

« لأخبرنكم . في عالم اليوم تجابه قوتان لنظريتين جماهيريتين كل منهما الأخرى ، قوة الشرق . وقوة الغرب . وتمارس كلتاهما السياسة العالمية .

كأنما يلزمنا أن نختار بينهما ، بين كل منهما فقط . وبدأنا نكتشف أننا نستطيع أن نختار كما نشاء ، إذا نمت أخلاقنا بقوة كافية . ولكن هنالك ما هو أكثر من هذا . كان لدى الغرب وقت طويل جداً . ليكسبنا . ليكسبنا للتفكير الغربي ، طريقة الحياة المسيحية الغربية . إن أفكارهم عن الديمقراطية وقيمهم المسيحية كانت بدیعة ، ولكنهم لم يكونوا يعنونها .

دعوني أشرح . إننا شعب متدين جداً . ونحن نقبل المثل المسيحية . ولكننا نؤمن بالحقيقة بإصرار وبشعور عملي . يجب أن تكون الأخوة المسيحية حقيقية .

الديمقراطية يجب أن تكون حكم الشعب فعلاً : ليست صعاكة بيضاء على أكتاف أستاذ فن أسود .

بالنسبة لنا ، إذا قال طبيب ساحر إنه سوف يستمطر ، فإننا لا نريد فقط أن نرى الأمطار تهطل . وإنما نريد أن نرى المحاصيل تبزغ من الأرض . أليس لهذا يوجد صانع الأمطار ؟ . . . وعليه إذا قال القسيس إن الرب إلى جانبي . فإنني أريد رؤية فرص أكثر . ولعنات أقل من الرجل الأبيض .

ولكن المسيحية الآن على أى الأحوال دين قد أصابه فقر الدم . إنها لا يمكن أن تحرك الماضى فى - خاصة غريزة (التشاك) الوثنية التى ما زالت لدى . والآن . أنت وأنا متعلمون . لأننا خذيان السحر . ولا نريد أن ننحاز إلى الأعياب الغرب . لكن مهما أنكرنا ، فإننا نريد الإثارة التى كانت فى دماء أسلافنا البرية . يقول البيض عنها إنها وحشية . بربرية متغلغلة . ولكننا جميعاً بدرجات متفاوتة « نريد لونها ونداءها المذبذب » .

وتجذب النهضة الثقافية الشباب الإفريقي المثقف إلى ناحية . فى حين تجذبه المثل والمركز المسيحى إلى ناحية أخرى . إن هنالك من الأحاسيس الشخصية أكثر كثيراً مما يمكن التعبير عنه فى تقرير هادئ من أجنبي .

ويقص بىترابراهامز ، الكاتب من الهند الغربية ، حادثة وقعت فى لندن . وفى الأيام الحالية حينما كانت أحلام الاستقلال الإفريقى ما زالت تخيلات رعناء لبعض الطلبة « اقترح نكروما إنشاء الحلقة (جمعية سياسية سرية) . وطلب من كل منا أن يهرق بعض نقط من دمه فى طاس . وأن نقسم قسماً دمويّاً بالسرية ، ووقف الجهود لتحرير إفريقيا . وضحك جونستون كينيا تا من الفكرة ، وسخر منها كعبث صغار ، جوجو . وتصور فضالنا على أسس حديثة للقرن العشرين بلا طقوس وخزعبلات . وفى النهاية ابتعد فرانسيس نكروما عنا وبدأ ينشئ جماعة غرب إفريقيا . . . »

ومع هذا فإن صفحات كتاب كينيا تا « فى مواجهة جبل كينيا » تضع سافرة حاجته المجردة لأن يكون جزءاً من تراث كيكويو الروحى . وقد

أهدى كتابه إلى « ميوجوى ووامبوى وإلى كل شباب إفريقيا المتحرر : إلى تأييد أرواح أسلافنا ومخالطتها بالنضال للحرية الإفريقية ، وباعتقاد أكيد فى أن الأموات ، والأحياء ، والذين لم يولدوا ، سوف يتحدثون ليعيدوا بناء الكعبة المهدمة . » إن المشكلة الرئيسية لأى عضو من الصفرة الإفريقية هى أن يفكر خلال وجهة نظره الدينية بأوضاع تقابل خبرته . وللزعماء الأكبر سنًا ، مثل كينياتا ونكروما . عقول تتجه بطبيعتها إلى المسائل الدينية . كان لهما فى سنواتهما الأولى كلف شديد بتعاليم المسيحية ، ولكنهما سرعان ما وجدا أن الأشكال الأوربية المختلفة للمسيحية باهنة ومحدودة جدًا أمام احتياجاتهما النفسية . ومهما كانت المسيحية بالنسبة لهما فإن مظهرها لن يكون طائفيًا . حتى بهذا الوضع لن تكون أبدًا كافية لتدفئة الدم العجوز الذى يجرى فى عروقهما . وقد بحث كلاهما عن تركيب يجمع الأوضاع القديمة مع الاحتياجات العصرية . وأفصح كينياتا عن هذا فى كتابه « فى مواجهة جبل كينيا » ولما عاد نكروما إلى غانا بعد نفيه الطويل كطالب ، سرعان ما تضخمت عاطفته « لمثل إفريقيا » بإشاعة شعبية . وكتب بيترابراهامز : « نمت الأساطير القبلية حوله . كان فى استطاعته أن يستمر بدون طعام أو شراب أو نوم لمدة أطول من الأشخاص العاديين . كان فى الحقيقة ، إعادة تجسد لبعض أرواح الأسلاف القوية جدًا » .

وفى السنرات القريبة استمر كل من كينياتا ونكروما ، وإن اختلفت مراكزهما جدًا . فى البحث عن إدراكات دينية توافق خبرتهما . وقد اشترى كينياتا فى أثناء وجوده فى سجنه بكينيا مجموعة ضخمة من الكتب فى الدين المقارن . وأتم دراسة جديده عن العقائد الشرقية . ويقول إنه قد تأثر بالذات بجافاد جيتا .

وفى الوقت نفسه قرأ نكروما باتساع عن الهندوسانية ، والبوذية . والكونفوشيسية والإسلام . وله اهتمام سفسطائى بالمشاكل النظرية فى المصادر الدينية لفلسفة عدم استعمال العنف . وحينما حادثه فى مقر رياسته فى أكرا ،

تناول محفظة قديمة الأوراق وأخرج منها دعوات قال إنه كتبها حديثاً لتأملاته الصباحية .

ويظن رجال الكنيسة الأرثوذكسيون في غانا أن نكروما قد انفصل عن عقيدته . حقيقة أن الدعوات التي أطلعني عليها لم تكن صياغتها مطابقة للأشكال المسيحية المتعارف عليها ؛ ولكنها لم تكن أبداً تهكمية أو انفصالية . وكان من الواضح أنه كتبها على الآلة الكاتبة بنفسه ثم صححها مرات كثيرة بخط يده . كانت مرجحة إلى « رب جميع الناس الخالد » ولكن بدلاً من إنهاؤها بالصيغة المسيحية المعتادة انتهت بمجموعة من التسيبحات والتبركات الإفريقية التقليدية . إن محاولة تزوير مرسى روحى للسياسة القومية ، يتحدى النخبة الإفريقية ويحيرها ؛ ويقدر كل من كينيانا ونكروما ، مع ميولهما الفلاسفية الطبيعية ، المثل المسيحية غير الطائفية . ولكن ليست لهما رغبة في الالتحاق بأى أشكال المسيحية المتنافسة .

هذا ويرتبط كلاهما بالنهضة الحضرية ، بمعنى اهتمام زائد بالقالب الإفريقي التقايدى وإن كان قد انجذب عقلاهما المتسعا الأفق إلى اكتشاف البيانات العالمية العظيمة .

وهناك رحلة دينية فلسفية أخرى بين الزعماء الأكبر سنًا . وهي رحلة الرئيس أوولو . الذى يوضح تاريخ حياته الحديث « أوا : تاريخ حياة الزعيم أوباقيمي أوولو » كثيراً من دخائل نوع تقديسه الخاص .

كان والد أوولو من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية بعد مجيء المبشرين إلى إكيبه سنة ١٨٩٦ . ولم يحضر الوالد عائلته فقط لاعتناق المسيحية ، بل أحضر كثيرين غيرهم من خارج نطاق العائلة . وبصفه أوواو بأنه كان « مسيحياً » مخلصاً ومراظباً بلا انقطاع على الذهاب إلى الكنيسة . وأنه كان « ينقت الوثنية وطقوسها المتعددة وشعائرها وأعيادها . وقد ضغط على لكى أنخاش كل ماله علاقة بالوثنية . كان يكن احتقاراً للطبيب الساحر كما سخر علناً بالسحر والسحرة » .

وينظر « أولولو » خلفه إلى النشاط الإرسالي في هذه السنين المبكرة بإعجاب عميق . وهو يشير إلى المبشرين « كرواد بسلاء » « عكسار روح المسيحية وتعليماتها بقدر ما يستطيع أى مخلوق بشرى ، في اتصالاتهم اليومية مع عشيرتهم الجديدة » . وهو يتذكر أنهم قد أكدوا عليه - وهو ما زال حدثاً - إدراك أن « المسيحية كانت بالتأكيد أسمى من الوثنية من نواح كثيرة » .

ومنحت الكنيسة أولولو تعليمًا ، وأضحى هو قارئاً مشغوقاً . « وفي أثناء غزوى لماكة الآداب المتسعة ، عرض لى جزء كبير من كتاب كان مجموعة من رسالات ومحاضرات روبرت ج . أنجرسون . وفن « أولولو » تماماً ، وجد نفسه يتسابق لاهثاً مع هذا الرجل العجيب ، وما جاء الوقت الذى انتهى فيه من غزوته الأدبية مع أنجرسون ، حتى ملأ إعجاب قلبه بذهب اللاإرادية . وقفز إلى أعمال ملحد آخر ، توم باين ون . هـ . هكسلى وأمثالها . « منذ معرفتى العقلية والمالية لأنجرسون ، كنت أحضر الكنيسة من وقت لآخر حينما يكون هناك حفل زواج ، أو جناز ، أو حينما تفلح زوجتى فى إصرارها على أن أرافقها ، وقد وجدت أنه من العسير على ألا أومن أو أشاك فى وجود الله . ولكنى أنكرت بشدة الأساطير والخيالات التى حاكها الإسرائيليين وخلفاؤهم فى العقيدة حوله . وقد تمسكت قطعاً برجوة نظر أنه خلال القرون ، خلقت جماعات مختلفة . فى أزمنة مختلفة . إلههم الخاص فى خيالهم المعوج ، وأنه إذا استمر هؤلاء المتعصبون العقائديون فى إبراز الإله الذى خلقه بأنفسهم بدلاً من الإله الحقيقى . فإنه سيكون هنالك دائماً مكان للرجال الحكماء ذوى الشجاعة فى اقتناعهم أن يشعروا بأنهم مضطرون لمحمد الإله الذى صنعه الإنسان » .

ومن ١٩٤٤ إلى ١٩٤٦ كان « أولولو » فى إنجلترا حيث لم يجتز برا به كنيسة وستمنستر وكتيدراثة سانت بول . على أنه قد حضر بعض

اجتماعات الآحاد « للجمعية سوت بلاس الأخلاقية » بكونواى هول . ويتذكر أنه كل مرة حضر فيها الاجتماع « كنت دائماً أخرج بأسئلة فى عقلى : لماذا هذا التقليد المسوخ وغير الحكيم لطريقة العبادة المسيحية ؟ وقد لاح لى أكثر من ذى قبل أن الكائنات البشرية تحب بطبيعتها الطقوس والاحتفالات . وسواء آمنوا بالله أم لم يؤمنوا فإنهم دائماً يرغبون فى عبادة شىء وتقديسه : علم أو معبد ، قبر . أو صورة لبطل توفى . أو شخص حتى حاضر ، أو غائب وظننت مخلصاً أن شيئاً ما كان ناقصاً فى اجتماعات كونواى هول وبدأت أعيد تقدير المثل والمزاوالات المسيحية ، ومقارنتها بالمدرجات اللا إرادية ، والتجريد والإلحاد (وأخيراً عدت إلى الإنجيل المقدس وإلى حظيرة المسيحية) . [ما بين القوسين من كتابتى] وإبان فترة التذبذب بين اللاإرادية والمسيحية وقفت زوجتى بلا ترحيح مع الأخيرة . وقد فعلت عظاتها كما فعل رسوخ عقيدتها أكثر من أى شىء آخر لمنعى من الوصول إلى نقطة اللاعودة .

ومغزى رحلة « أوولو » مختلف عن رحلتى نكروما وكينياتا . لقد وفق بين ارتباطاته المسيحية الشخصية وتجاربه وسياسة انقومية ، ولكن ليس بغير التحذير الجدى التالى :

« من وجهة نظرى المخلصة . . . أن الأغلبية الساحقة من المسيحيين بما فيهم رجال الكهنوت . غير مهئين جدلياً ليتصارعوا بنجاح مع المنتقصين والمغتربين الديننا العظيم » .

وإن الحفرة الفاعرة فى طريق النخبة الشابة . التى قد تحتذى حذو أوولو . لهى الشاك المطلق فى أن المتكلمين بلسان المسيحية ليسوا فقط غير مهئين جدلياً ، ولكنهم أيضاً غير قادرين على التخلص من أرجحة الغرب . ووقعت حادثة فى ضحى الاضطرابات بالكونغو تصور مدى هذه الحساسية . دعيت مجموعة من الكونغوليين الذين لم يجاوزوا العقد الثانى من العمر إلى الولايات المتحدة للاشتراك فى برنامج خاص للجمعية الشبان

المسيحيين في صيف سنة ١٩٦١ . وقد أنتجت تجربتهم هذا الخطاب الحارق المفتوح الموجه إلى جمعية الشبان المسيحيين في بترسبورج :

« لقد خاب جداً أمل اتحاد الطلبة الكونغوليين بالولايات المتحدة الأمريكية في أهداف سياستكم الخاصة بجمهورية الكونغو والتي وضحت خلال معاملتكم لمواطنيها الشبان .

« إن التصريحات التي أدلى بها المستر أدوين م . بودنوف (جريدة نيويورك تايمز أول يونيو سنة ١٩٦١ ص ٣) ؛ صاحب المصانع بترسبورج ومدير جمعية الشبان المسيحيين تبرهن بجلاء على وجهة نظركم الضيقة . الأناية والاستعمارية تجاه الكونغو الذي دعوتهم أبنائه إلى هذا البلد . بغية تثقيفهم ، أساساً سياسياً وفكرياً .

« وطبقاً لصاحب المصانع المذكور اسمه آنفاً : فإن الرحلات السابقة كانت تشمل طلبة الجامعات الذين قد تبلورت أفكارهم فعلاً . أما طلبة المدارس العليا فإن احتمال وجود أفكار محددة لديهم أقل . »

يستطرد مدير جمعية الشبان المسيحيين في بترسبورج من أجل الديمقراطية الأمريكية . التي أصابها العفن فعلاً ، فيقول : « وكنتيجة للرحلة سوف يتعرض الكونغوليون للمثل الديمقراطية الأمريكية » . أي عار ومذلة لنا حين نتحقق من أن هذه الضيافة التي تقدمها جمعية الشبان المسيحيين لم يكفلها الكرم المسيحي وإنما كان هدفها السياسة . (هذا ما يسوغ ريب الإفريقيين في المنشآت المسيحية في إفريقيا) [وما بين القوسين من كتابتي] .

« وإن جمعية الطلبة الكونغوليين بالولايات المتحدة الأمريكية المدركة للناورات المؤثرة في القلائل الموجودة بالكونغو . وما دامت سياسة جمعيتكم المسيحية موجهة إلى إذلال جمهورية الكونغو بالتسلط على عقول أبنائها فكرياً ، فإننا ننصحكم بإرسال هؤلاء الشبان الصغار إلى أوطانهم . . . »

وإن أي شخص يستفسر في هذه الأيام عن الحالة الدينية لطبقة شباب إفريقيا المثقف سوف يجد عقدة الريبة هذه قريبة من سطح الجلد . وبقدر

ما يستطيع « غير الإفريقي » أن يقترب من فهم الميراث النفساني المسيحي
 لنخبة إفريقيا يكون تقديره للحدة التي ترفض بها فكرة أن يكونوا « مسيحيين
 أوروبيين سوداً » . ولا يجوز زيادة تبسيط الفكرة بأن نقرر أنهم يرفضون
 المسيحية . إنما لا تعني هذا إطلاقاً - ليس حتى الآن على الأقل . إذ أن
 النخبة الإفريقية الآن في وسط معركة حضرية تولد رغبة . وحساسية .
 وتتطلب معرفة الذاتية . قبل عمل أي ارتباطات روحية إضافية .

الأسس الأخلاقية للمجتمعات الإفريقية « الجديدة »

هذا موضوع حساس من أكثر من ناحية إذ لا يوجد حتى الآن هيكل كبير لمجموعة أفكار متماسكة بين الإفريقيين المثقفين لمغربي « الخير » مما قد يبرز إجحافات بالأفراد أو الجماعات . ولكن قد قام ج . ب . دانكو ، الفيلسوف الغاني ، بمحاولة منظمة لاستخلاص ما هو حقيقة — إفريقي (على الأقل من الناحية الجغرافية) في الفلسفة الأخلاقية . وقد حاول في كتابه « نظرية آكان في الله » أن يعرف أسس الأخلاق في مجتمع إفريقي تقليدي . ويقول إن تصور الخير في الحياة الإفريقية إنما ينبع من معرفة الإفريقي « لله » على أنه « السلف العظيم » . ويسطر دانكو : « أنه رب حقيقي عال ، وهو سلف للرجل الأول وشبيهه بالإنسان . وبصفته هذا السلف ، يستحق أن يعبد ، وهو يعبد فعلاً في الرئيس السلفي الظاهر أي الزعيم الطيب للمجتمع (أياً كان حجم هذا المجتمع) . وكل الأسلاف الذين يكرمون هكذا هم من سلالة السلف الأعظم . وكل رئيس لمجتمع ، لأنه من هذه السلالة ، يجب أن يعيش طبقاً لكرامة الأول » .

والهبوط إلى ما دون الكرامة هو هبوط دون كرامة الرب . وأكبر العائلة سنّاً أو رئيسها هو الأقرب لمثل هؤلاء الأسلاف .

ويشرح دانكو أن رئيس عائلة الآكانية يطلق عليه « نانا » ، تماماً كما يطلق على الله ، السلف الأول ، نانا . ويطلق على زعيم القبيلة ، أو الجنس ، أو الأمة اسم « نانا » لأنه هو أيضاً يسير في خطى « السلف الأعظم » .

وكل يعبد ، تماماً كما يعبد السلف الأعظم . كيف تستخرج من هذا

فلسفة أخلاقية ؟ ويجب دانكو « إن السلف الأعظم هو الأب الأعظم ، وكل الناس الذين من دماء هذا السلف ، هم منه ، وهم من دم واحد يشتركون فيه مع جميع الناس الذين خلقهم من دمه ونفسه . والحياة ، الحياة الإنسانية ، هي استمرار لدم واحد يخرج من الدم الأصلي للمنبع العظيم لهذا الدم . وإن استمرار هذا الدم في المجتمع الأزل هو العامل الهام الوحيد في الكون . إنها فكرة تستحق العبادة في حد ذاتها ، وإن الهدف من المجتمع هو أن قيمة هذه الحياة يجب أن يحافظ عليها باستمرار جنباً إلى جنب مع كرامة السلف . وأى شيء أقل من هذا الكمال يجعل الحياة انحلالاً ، وتضارباً فيما يجب أن يستوحى منه أناس من دماء الأسلاف ، ذلك الدم الذى يجرى فى السلف الأعظم » .

ويدعى دانكو أن للمفهوم الأكاني للرب نتيجة أخلاقية مباشرة ، أو على الأصح ، مجموعة من النتائج الأخلاقية المتشابكة تتطلب شرائع أدبية .

وليست هذه الشرائع ، من وجهة نظر دانكو مجرد شرائع تقليدية بل إنها يمكنها أن تساير الأساليب الجارية للتفكير في قيمة مركز الإنسان كتركيب عضوى حتى في مجتمع عالمي . « وبالاختصار . يمكنها أن تعطينا أساساً أخلاقياً لمجتمعات إفريقية الحديثة » .

وتقرر الشريعة الأولى أن كل مجهود نحو الخير يحتفظ به كحسنة للروح ، ويساعد تقدم وصول الفرد إلى مكانته . ويقول دانكو : « إن سيادتنا أو تساطدا على النظام الطبيعي أو الطبيعة المادية . . . يسجل لنا أول نصر للروحانية . وعاليه فإن المعرفة التقليدية أو العلمية . التي يكتسبها المجتمع النامي ، أو يمتلكها على تقدمات الطبيعة مصيرها أن يستعملها المجتمع لزيادة خيره لكي يعيش الإنسان في المجتمع حياة أفضل » .

ويقول داكو : « إن ما هو واضح أن تجربة المجتمع المتراكمة ، تجربته أو مجهوده في الخير . ومعرفته بقوانين الحياة ، وكفاحه ضد المرض والجهل

ومجهوده لاستئصال الألم ، كلا بل حتى تحكمه في العلاقات البشرية بواسطة قوانين المجتمع — هي كلها أساليب للتراث التقليدي الذي يهدف إلى إنجاز أعظم وأكثر رسوخاً ، وإلى ارتباط أكبر وأكثر واقعية لكل مجهودات الناس الفضلاء مع الخير الخالص .

وتؤكد الشريعة الثانية أن التقدم الأخلاقي راسخ ومستمر بالنسبة لمكاسب الفرد أو استحقاقاته من الماضي التي تسلم إليه كتقليد ليكون الأساس للتجربة العنصرية . « ويؤكد دانكوا هنا أن دور التقاليد الإيجابي في الحياة الإفريقية هو القدرة ليس فقط على إعطاء المعرفة والفضيلة المجتمعين ، ولكن أيضاً لنقل حكمة استمرار المقاومات .

وتقرر الشريعة الثالثة مبادئ القيادة كما تضع أساساً أخلاقياً للدراسة : « إن التقدم العنصري يسهل تطور الخصائص الفطرية في الأفراد البارزين الذين يطلقون مثل هذه الخصائص عامدين لتقوية التقاليد المتوارثة .

وهكذا ، كما يعبر عنها دانكوا : « . . . إن أيقن الطرق إلى الخير والله هو التعليم » . أما عن الأفراد البارزين — المحاربين العظام ، رجال الدولة ، القادة الدينيين ، المفكرين إلخ — فهم القناطر التي يمكن بها للمثل العليا أن تنتقل من العائلة إلى القبيلة أو الجنس ، إلى البطن أو الأمة ، وأخيراً إلى البشرية كوحدة — إلى التعرف على عائلة لإنسان الحقيقية الوحيدة ، البشرية نفسها كالهدف الوحيد الكامل الذي يقبله العقل ، العائلة الوحيدة لكل خير الله . وهذا يتضمن :

الشريعة الرابعة — إن التحرير المتعمد لخصائص بارزة تتطلب مجالات متجاوبة للتوسع يؤدي إلى تفهم مجتمعات أكثر تكاملاً وإلى الاعتراف المنطقي بالبشرية كالمثل الأعلى الشامل لتحقيق وتطويع التجربة العنصرية .

ولا توجد حكمة أسمى من معرفة أن معاني الحياة وقيدتها وتوافقاتها إنما تكون أغنى وأوسع بالمشاركة . وإن حالة اتحاد جميع الأجناس البشرية هي أعظم الإيماءات الإلهية ، وأسمى المثل العليا . ولكن نظراً لعنت الإنسان المتزايد فإنه من الصعب التنبؤ كيف يشكل هذا التندم الأخلاقي نفسه . على أن احتمالات التقدم المستقبلية مشار إليها في :

الشرعية الخامسة - « إن التجربة الكاملة ، أو تحقق الكل ، يبقى بعيد المنال طالما أن التجربة العنصرية تستبعد جزءاً من الكل ، وطالما أن قوة البشر الأخلاقية لا تستطيع بلوغ الشيء المتكامل » .
 إن تحجر قلوب الأجناس البشرية المستمر يجعل أى تفاؤل ميسور غير معقول ، ومع هذا فإن الحياة « يلوح أنها تحمل الإنسان في تيارها ، بالرغم من المقاومة التي تبديها إرادته الأنانية ضد فائدته الشخصية . »
 « إن الإنسان ليتجنب بها طريقة لبضع العراقيل أمام طريقه نفسه ، فهو يقيم نظاماً وسلطات لا معنى لها . وهو يكلف بميزات جماعية لا داعى لها . وهو يخترع القوى وآلات التدمير . وبهذا فهو يولد . وينشر كذلاً ضخمة من الشر الأخلاقي والجسماني . . . » .

وبالرغم من هذا كله فإن التقدم ما زال مستمرا « كما أن تحقق الوحدة أكثر من مجرد أمل مثالي . . . إنه مصير البشرية » .

وبناقش دانكوا في أن شرائع آكان الأخلاقية يمكنها أن تسحق إلى الأبد كل تصور بأن الأجناس غير الأوروبية ليست لها أية قدرة على الابتكار تنعدي القدرة البدائية ، إن الأدوات العامة لمزاوالات آكان الأخلاقية والدينية ، إذ هي متميزة عن التفكير الآكاني ، توضح أن المدركات الأفريقية التقليدية « تتحول بسهولة إلى الأوضاع المستقرة فعلا في المجموعة المتعارف عليها من المعلومات الإنسانية » ، وبمعنى آخر ، يوجد لدى الإفريقيين في داخل حضارتهم الخاصة ، صنع خميرة أساس أخلاقي لمجتمعات إفريقية جديدة . ويدعى أن هذه الأفكار ليست مع

المسيحية ولا ضدها . ونراه يرسم في شعر ، كتبه أيام دراسته ، خطوط النتائج النظرية الملائمة :

إن الإله الكامل هو الرب

والله ليس مسيحياً

ولا هو بمسلم

ليس ملكاً

ولا هو ثلاثة

وليس واحداً

ولا كثيرين

ولكنه الكل

والكل هو كل الكل

الكل شامل

كل الكل هو الله

الله شامل .

ومن المبالغة الكبيرة أن ندعى أن شعور النخبة الإفريقية يتكأكؤ لأى مدى ضخيم حول أعمال دانكوا ، ولكن المثقفين كثيراً ما يشيرون إليها . وهى مرجع هام فى إجابتهم على الاستطلاعات عن ماهية اقتراح الإفريقيين فى إحاطة مجتمعاتهم الناهضة بأخلاق مشتركة .

وقد أدلى آخرون بدلوهم ، مستعملين إطاراً سياسياً وهو الذى يفضل هذه الأيام معظم النخبة على النظريات . ويتصور ليبولد سنجهور أن « الأمة الزنجية الإفريقية » ، كنوع من المجتمعات الإفريقية الاشتراكية ومجتمع تعاونى ، أو أفضل من ذلك ، « شراكه أرواح » . وتعد - بالنسبة له - كلدبتا الشعب ، والمجتمع تعبيرين مترادفين . وإن المثل الأعلى لمجتمع جديد هو جماعة « حيث يتعرف كل فرد فيها على موضعه من المجموع ، والعكس صحيح . ولكن الوحدة ، شركة الأرواح ليست الرب والله وجود

كافية ، لكي يصبح شعب ما أمة ، يجب أن ينمو الفرد . . . يجب أن نؤكد أساساً ثقافياً للأمة المستقبلية ، وذلك بتحديد الخصائص الجوهرية للمدنية التقليدية الزنجية الإفريقية التي بامتزاجها مع المساهمات الأوروبية سوف تندرج إلى نهضة .

ويشير سنجهور في رسالته المسماة « الاشتراكية الإفريقية » ؛ بإصبع الاتهام إلى الشيوعية السوفيتية :

« إن الجزع على كرامة الإنسان ، والاحتياج إلى الحرية — حريات الإنسان وحريات الاجتماعات — التي تغذى أفكار ماركس وتمنحها كيانها الثوري — هذا الجزع وهذا الاحتياج غير معروفين للشيوعية . . . إن دكتاتورية البروليتاريا (الطليعة العمالية) التي كان يجب أصالة أن تكون مؤقتة فقط ، أصبحت دكتاتورية الحزب والدولة حين جعلت نفسها دائمة . ويقول ما نادوريا (بالسنغالية) حين عاد من موسكو : إن الاتحاد السوفيتي قد نجح في بناء اشتراكية ، ولكن بتضحية الدين والروح » .

ولكن لسنجهور أيضاً كلمات حادة عن النظام الرأسمالي بالولايات المتحدة الأمريكية ، عن طريقة الحياة الأمريكية ، بأجورها المرتفعة ، والتلجج الكهربائي وآلات الغسيل وأجهزة التلفاز . وهو يتنبأ « أن المجتمعات الإفريقية الجديدة سوف تنحاز إلى رأس المال الحر ، والمنشآت الحرة . إننا لا نستطيع أن نغض أعيننا عن التمييز العنصري على الرغم من أن الحكومة الاتحادية تحاربه ، كما أننا لا نستطيع أن نقبل (تغلب نجاح مادي على طريقه في الحياة) [الكتابة بين قوسين مني] » .

ويقول : إن الاشتراكية الإفريقية تقف في طريق متوسط . « إنها دفعة ثورية تخالط القيم الأخلاقية والدينية بمقابلاتها السياسية والاقتصادية . وفي هذه الثورة ، يجب أن يؤدي الزنجي الإفريقي دوراً حاسماً ، يجب

أن يهب بإسهامه الفريد في نوعه لإنشاء مدنية عالمية جديدة . ثم يختتم
سنجهور .

« إن الإنسان يستمر في اعتبارنا الأول : إنه يكون "ميزاننا" وهذا
هو ما يمثل الإنسان في علم مالى ، يجذوره في الأرض ، وعينه تجاه
السما . وسوف أختتم بشرح دوستوفسكى ، الروسى ، إن الأمة التى ترفض
أن تحتفظ بموعدها مع التاريخ ، والتى لا تعتقد فى نفسها أنها حاملة لرسالة
فريدة — هذه الأمة قد انتهت ، ومستعدة لأن توضع فى متحف . إن
الزنجى الإفريقى لا يمكن أن ينتهى قبل أن يبدأ . فليتكلم ، وفوق
كل شىء فليفعل . دعه يأتى ، كخميرة ، برسالته إلى العالم لكى يبنى
مدنية عالمية . »

وليوبولد سنجهور كاثوليكي روماني . والبلد الذى يرأسه ، السنغال ،
يسيطر عليه الإسلام . وهو يفخر بهذه الحقيقة . وفى سنة ١٩٦٠ حينما
سحب السنغال من اتحاد مالى ولم تعترف به الولايات المتحدة فوراً ، أنب
إدارة أيزنهاور مقررأ أن السنغال كانت أكثر ديمقراطية من الولايات
المتحدة فى ناحية واحدة على الأقل ، هى أنه لم يؤخذ عليه دينه فى
السنغال كما يلوح أنه أخذ على كندى فى الولايات المتحدة ، وقد أثبتت
الانتخابات الأمريكية أن سنجهور كان مخطئاً ، ولكن الجدل حول
الموضوع أثر فيه .

ولا يعنى شيئاً أن نظرة سنجهور إلى المجتمعات الإفريقية الحديثة هى
نظرة أخلاقية روحية ، وليست من وجهة نظر مسيحية . فلدى كثير من
الزعماء الإفريقيين آثار قوية من تنور القرن الثامن عشر ، وإنسانية القرن
العشرين . وحينما امتطت « الزيكية »^(١) متن الكفاح النيجيرى للاستقلال ،

(١) حركة زيك كانت بمثابة منظمة الشباب غير الرسمية لحزب المجلس الوطنى
بنيجيريا والكاميرون ، وهو أقدم الأحزاب السياسية بنيجيريا إذ تأسس سنة ١٩٤٤
برئاسة هربرت ماكيولى والدكتور ناماي أزيويكى السكرتير العام للحزب وهو يطالب =

حلل المؤلف الإفريقي ، أوريثو ، عناصرها ، واستنتج أن الدكتور أزيوكي كان إنسانياً ينبوعه الروحي جيفرسون وتوم باين . وكانت خطبته في حفلة مبايعته كأول حاكم عام لإفريقي لنيجيريا ذات مغزى واضح عن « توسع المراكز الإنسانية » .

وكنت حاضراً شخصياً في قصر الشعب الكثير الزخرف بليوبولدفيل حينما تولى سيي* المصير باتريس لومومبا رئاسة وزراء الكونغو ووعده قائلاً : « سوف نضع حداً للضغط على الفكر الحر ، وسنجهل في إمكان كل المواطنين أن يتمتعوا تمتعاً كاملاً بالحريات الأساسية التي نص عليها إعلان حقوق الإنسان . سوف ننجح في الضغط على كل التمييزات أيضاً كان نوعها - وسنعطي كل فرد مكانه العادل الذي تؤهله له كرامته الإنسانية ، وعمله وإخلاصه لوطنه .

وقد تحادثت بعدئذ مع السيد / لومومبا النحيل الماتحي . ولاح لي أنه أصغر حتى من سنيه الأربع والثلاثين حين وصف تخلصه من وهم العقيدة الكاثوليكية الرومانية التي نشأ فيها . وقال إنه كان مقتنعاً بأن يكون دنيوياً . وكان يشعر بأن الكنيسة لم تكن أهلاً لتفهم المجتمع الإنساني الذي يرغب الوطنيون الإفريقيون في بنائه .

وبعد سيكوتوري ، رئيس غينيا ذو الأربعين عاماً ، زعيماً آخر

= بوحدة نيجيريا دون تفرقة لقبيلة أو إقليم . وكان من أثر حركة زيك أن ولدت دعوة جديدة سنة ١٩٤٨ في مدينة أبا لإنشاء كنيسة وطنية لنيجيريا . وقد باغ من تطرف هذه الحركة أن أعلنت أنها قامت بخلق كنيسة تخدم الشعب ، وليس الاستعمار . كما ، أعلنوا عداؤهم للبعثات التبشيرية الأجنبية ، لأنها لم تعمل يوماً من أجل حرية نيجيريا بقدر ما عملت من أجل أعداء الحرية . وما يجوز ذكره أن هذه الحركة تعد امتداداً لحركة زيك من الناحية الدينية ، وأنها كانت تعمل بتأييد الدكتور أزيوكي . (المترجم)

يتكلم بلسان الإنسانية . وحين وجه خطابه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٩ قال : « إن صعوبات الحياة العملية قد لقنت الإفريقي فضائل يمارسها أحقر هؤلاء الأشخاص يومياً . هذه هي فضائل التضامن ، وحب العدالة ، والثقة في الإنسان ، الشعور بالأخوة ، وأخيراً الاحترام للمجتمع . وتعني إفريقيا بزراعة هذه الفضائل وتعهدها وإهدائها للعالم كأول دلالة على مشاركتها في حياة عالمية وإني لأعتقد مخلصاً أن هذه الحقبة من التاريخ سوف تشهد بداية طور جديد من التطور الإنساني ، حقبة سوف تستمر ، بدون أن يقلب الأساس العالمي الحالي أو نظام قيم الأمم والشعوب . وأعتقد مخلصاً أن مصير الأمم سوف يتوقف أساساً على طبيعة ارتباطاتها وهدى المسؤوليات التي سوف تضطلع بها في بناء المجتمع العالمي وفي بناء العالم الجديد وإني لأبتهل إلى الأمم وإلى كل الشعوب المستعدة للاشتراك في العالم الجديد ، عالم انتصار العقل والقيم الإنسانية » .

ونأمل أن يكون الدكتور دانكوا مدركاً لاستعمال سيكوتوري للشريعة الرابعة من الآداب الآكانية في خطابه إلى الهيئة العالمية .

وخطط توماس ديوب - السنغالي ، في مؤتمر عالمي عن « الحكومات النيابية والتقدم الوطني » في جامعة كلية عبدان ، المنعقد تحت رعاية « مجلس الحرية الثقافية » ، ما عدّه التركيبات الطبيعية للشخصية الإفريقية التي ستبنى حولها المجتمعان الجديدة . وقد عدد :

- ١ - إرادة لا تلين في أن تكون ذاتها كاملة وحرّة في كل الأيادين .
 - ٢ - إرادة مصرة على إعادة القيم الحضريّة الإفريقية إلى مكانها المناسب .
 - ٣ - الإصرار على تحسين مدينتها للشخصية بإدخال عناصر المدينيات الأخرى التي يلوح أنها تستحق الاشتراك في خلق مدينة عالمية .
 - ٤ - تكيف غير عادي واضح في كل مراحل تاريخ إفريقيا .
 - ٥ - شعور دقيق بالعدالة في العلاقات الإنسانية .
 - ٦ - روح كبيرة وأمينّة للأخوة التضامنية يمتد إلى جميع شعوب الأرض .
- الرب والله وجوو

٧ - إصرار عميق على الاسهام الكامل فى التغييرات العالمية .

ويؤكد ديوب بعد ذلك الجزأين الأخلاقيين الآخرين من « الشخصية الإفريقية بهذا التعليق الإعلاني » . . إن روح التضامن الإفريقية لا تتحدد بأبناء إفريقيا ، إنما تمتد إلى كل الشعوب . حيث إن هذه الشعوب تنتمى أيضاً إلى العائلة الإنسانية الكبيرة التى يجب أن تخدمها لمصلحة المجموع .

وعلى الرغم من أن دانكوا ، وسنجهور وأزيويكى . ولاموهيا وتورى وديوب ، يتكلمون بلهجات مختلفة فإنهم يضغطون على نظرية التضامن والتعاون والمجتمع . وهم فى هذا متساوون فى إخلاصهم للمعتقد الروحي التقليدى الإفريقي الذى يقرر أن المجتمع أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد . وسراء أنشأ هذا عن حنين إلى الوطن . أم عن شعور بالواقع . فإن تطلعاتهم إلى الأخلاق السياسية الحديثة يساندها يقين بأن النظم التقليدية للعلاقات الاجتماعية استطاعت أن توفق بين كفاح الأفراد وتطلبات الحياة الاجتماعية . وإن اهتمامهم الآن لينتجه إلى إيجاد توازن مماثل بين احتياجات الدولة الحديثة وتعبير قوى عن شخصية الفرد . ومع ذلك ليس فيهم من هو محدود فى قوميته بوطنه . كلهم تجذبهم العالمية بقوة ، بغض النظر عن الجنس ، أو اللون ، أو الدين .

ومما يلفت النظر أيضاً تفاؤلهم الواضح بالإنسان ومصيره فى العالم . ومهما كانت تأثيرات المسيحية الأخرى على أفكار النخبة . فإنها لم تفلح فى إقناع المثقفين بالخطيئة الأولى . إنهم مخلصون « لنمو » قوة الرجل على الكرامة . إنهم مقتنعون بالانتصار النهائى للعقل والقيم الإنسانية . ويصف دانكا المعتقد الآكانى التقليدى فى إعادة التجسد كإيمان بمصير الروح العفيف النهائى . تعود الروح إلى الأرض « غير كاملة طبعاً » . وإلا لما كانت فى حاجة إلى العودة . ولكن لتكمل . . وقلائل من المثقفين هم الذين قد يعترفون بالاعتقاد فى إعادة التسجد ولكنهم يتمسكون جداً

بإيمانهم في مصير منتصر الإنسانية ناضجه متكاملة تماماً .

ويسود الرأي أنه مهما كانت الاعتقادات النظرية الشخصية . فإن أفراد النخبة الإفريقية يتخيلون أن الأساس الخلقى لكل مجتمعاتهم التقليدية والناهضة إنسانى التركيز أو بشرى . وحينما يلجئون إلى القيم الروحية الإفريقية التقليدية فإنه لا يكون في ذهنهم أى خيال عن إله أو أرواح . ولكن ذكريات مثالية عما وصفه أحد أصدقائى الإفريقيين " بالأيام الخوالى الطيبة . حين كان من الممكن الاتصال الشخصى . وحين كانت الأواصر العائلية قوية بقوة كافية لتمنح اطمئناناً شخصياً غير محدد ، حتى لو لم يكن هناك حسابات في البنوك . حين كان أمثال فرويد وجينج لا يمكنهم أن يجادلوا وظيفة . في مجتمعات لم يكن في استطاعة أى من آدم سميث أو كارل ماركس أن يكسبوا مناقشة . وإن كان يستمع لكليهما ، ويقال لكل منهما أين أخطأ .

وتنظر النخبة الإفريقية إلى الأساس الأخلاقى للمجتمعات الإفريقية الجديدة على أنها قد رست على أفضل ما في القيم التقليدية . من عواطف مشاركة عن أولوية الحياة الإنسانية في مجتمع أو شركة أرواح ، شعوراً دقيقاً بالعدالة في الصلات الإنسانية ، والروح الكبيرة الآمنة للأخرة التضامنية :

التدريب الأخلاقى والدينى فى التعليم الإفريقى

إن السنرات القلائل القادمة غالباً ما سوف تقدم فيضاً من الأخبار من المثقفين الإفريقيين عن هذا الموضوع . ولا يوجد ، في أثناء كتابتى ، سوى القليل من الإرشادات المنظمة من المصادر الإفريقية : وإن الاحتياج الحالى للتعليم من أى نوع ضرورى لدرجة أنه يفوق جميع الاعتبارات الأخرى . ولكن هنالك دلائل على مناقشات مستقبلية ضخمة عن الفلسفة

الروحية للتعليم الإفريقي .

وقد قامت المدرسة الإرسالية^١ ، كخادمة للدين . بتعليم معتقدات ومدرجات المسيحية طبقاً لأضواء الطوائف والملل المتكفلة المختلفة التي تقوم بكفالة المدرسة نفسها . وقد كانت المسيحية الطائفية في أثناء فترة الاستعمار . هي جوهر التعليم الديني عملاً في كل المدارس الابتدائية والثانوية وعلى المستوى الجامعي . وعلى الأرجح سوف يستمر هذا الطابع حينما تشجع الكنائس أو يسبح لها بإدارة نظام تعليمي . ولا داعي للقول بأنه في المناطق التي يسود الإسلام فيها . يكون هو أساس التدريب الأخلاقي في معظم المدارس .

وهناك دفع الآن في كل المناطق المستقلة إلى نظم دراسية تديرها الدولة . كما أنه ليس هنالك أدنى شك في أن مسألة التعليم الديني في المدارس العامة سوف يصبح موضوع جدال . وقد ألغت حكومة غانا فور تسلمها الكليات الجامعية ، تعليم اللاهوت من المنهاج . ونظراً للشعور القوي بالابتعاد بالتعليم عن الاستعمار . بتأكيد القيم الإفريقية ، فإنه من المحتمل أن جزءاً كبيراً من الرأي المثقف سوف يعضد إلغاء التعليم الديني من المدارس . وهذا رأى يتلاءم مع النظر الغالب من أنه يجب أن تبقى الهيئات الدينية المنظمة منفصلة عن الدولة .

وقد سجلت بعض الأحاديث عن هذا الموضوع مع طلبة إفريقيين جامعيين . وكانت تعليقاتهم ذات قيمة . أساساً من ناحية اقتناعهم العاطفي . ومن المقطوع به أن أحداً لن يتأثر من منطقهم . ولكن مثل هذه العواطف هي مهد بدور للقضايا المستقبلية . وقد قال أحد الطلبة : قسماً لن أسمح لابني أن يعاني من العقلية الدينية التي خالطت تفكيري ونظري طوال هذه المدة . وإنني حينما أنظر ورأى إلى الماضي ، وماضي عائلتي ، أعتقد أن النتيجة الأساسية لتدريبنا المسيحي هي أننا صرنا ساذجين لدرجة مذهلة . إن كل ما عليك أن تفعله هو أن تذهب

إلى إنجلترا أو أمريكا لتجد حقيقة أنهم لا يتقنون أى اهتمام بالدين .
انظر أين هم الآن ؟ إن الدين يجب أن يلقى به بعيداً عن كل المدارس
إذ كنا سوف نقدم لأى مدى . لا تظن أننى قاس ، أو أننى غير شاكر
للتعليم الذى تنقيته من المبشرين ، ولكن التعليم ، فيما يتعلق بالناحية
الدينية ، كان لا فائدة منه .

وتشكى طالب آخر من أن التدريب الدينى فى المدرسة كان تهديداً للأخلاق
أكثر من مساعدتها . قل : « إنك لا تعلم الآداب فى المدرسة ، فإن
هذا شئ - تتعمده فى المنزل . وإبنى أعتقد أن الإفريقى له وجهة نظر
أخرى عن التدريب الأخلاقى . فلتقم المدرسة بتعليم الحساب والعلوم
والفنون ، وتدع للأهل تعليم الأخلاق ، فإنهم يعلمون ما هو أفضل
لأبنائهم أحسن من أى مدرس . هل تحب أن يعلم مدرس ، وجودى
المذهب . أولادك الأسس الأخلاقية ؟ تصور كل هذه التهمسات النفسية
السارية فى هذه الأيام ! أهذا هو الذى تريده ؟ هل تريد أن يخبر
أولادك بعض هؤلاء المذهبيين النبهاء أنه لا يوجد شئ مقدس فى الجنس ؟
أو هذا الغث عن التعبيرات النفسية المنطقية ؟ لا . لا . لا ؛ إن الآداب
هى ما تكتسبه فى عائلتك وفى مجتمعك . إنك تراقب حياة الراشدين وتحذو
حذوهم ؛ وعلى الراشدين فى المجتمع أن يظهروا مثالا طيباً ، وعلى الأطفال
أن يتابعوهم . »

وإذا كان الاحتجاج الساخط هو طريق بعض شباب المثقفين حين
يفكرون فى الناحية الروحية فى التعليم ، فهناك آخرون ذوو عقول أرضى ،
وتفكير أكثر اتزاناً . وقد قال لى عالم سياسة إفريقى « إن شعورى الشخصى
أنه من المحتم أننا سوف نصادف لباساً كاملاً من اختلاط الشخصية ،
فهناك تغيرات كثيرة جداً فى وقت واحد . تكاد هذه التفاعلات تكون
بدأت ، وسوف تزداد فى السنين القادمة . وهى ليست من نوع المشاكل
التي يمكن للمجتمع أن يشرع لها ، كما لا يمكن أخذ منها بالانتجاع

إلى فرض هذا النظام الدينى أو ذاك فى المدارس . وإننى لا أعتقد أن الحياة الأخلاقية لأى شعب يمكن أن تغذى بإضافة القواعد المذهبية أو اللاهوتية إلى المهارج الدراسى . ومن ناحية أخرى فإن هنالك مكاناً لإنماء مثل هذه القيم الأخلاقية إذا اعتقد مجتمع معين . بالتجربة والتقدير ، أن هذا يستحق العناية من أجل سعادة أفرادهِ . مثل هذه القيم يجب أن تُغذى فى المدارس . وعلى أى حال ، فما تحتاج إليه المدارس الإفريقية هو نوع من التدريب يستطيع الفرد بمقتضاه أن يكون شخصية مع مجتمعه ، ومع ثقافته . ومع المجموعات البشرية الراقية . وإننى أشاطر آراء الذين يعتقدون أن تنمية النظام والأخلاق أجزاء مهمة فى التعليم . على أن أى نظام للتدريب الخلقى للإفريقى إذا ما تضمنه التعليم ، ليس إلا حلاً جزئياً لمشاكل الحياة . أعتقد أنه ليس فى استطاعة الإفريقى أن يكتشف مستوياته الأخلاقية وقيمته النفسية ، حتى دينه ، إلا حين يتداخل فى مصير شعبه وقدره ، وحين يستطيع أن يشارك الذين من حوله أفراحهم وآلامهم ، وحين يستطيع أن يشاطر كلية فى التجربة الجماعية للبشرية جمعاء . إن المشكلة الضخمة بالنسبة لى هى هل يمكن تعليم النخبة بدون أن يفقدوا شخصياتهم كإفريقيين؟ يجب علينا أن نتعلم كيف نبني مجتمعات جديدة يستفاد فيها من القيم التقليدية . هذه هى المشكلة الروحية الحاسمة فى التعليم الإفريقى . إننا نتكلم عنها كثيراً . ولكن كل ما توصلنا إليه هو الحاجة إلى حل . »

هنالك نوع من الإجماع الواضح بين النخبة على المهام الجوهرية للحكومات الإفريقية المستقلة . وليس هنالك مثل هذا الإجماع حينما نأتى إلى إيضاح أشكال للتدريب الأخلاقى والروحى فى التعليم . وقد سئل آيو أوجو نشاي . ذو اللسان الحاد . والذي ينفذ صبره إذا ما تعلق الموضوع بغوامض « الشخصية الإفريقية » . عن حل للموضوع ، فكتب « أوه . أظن أنه سوف يكون شيئاً كهذا . كونوا أنفسكم . اعرفوا

ماضيكم وحضارتكم ، إذ أن شعباً بدون إحساس بالقيم وبالماضى ليشبه سفينة بلا سكان . ولا ترددوا في أن تضيفوا إلى تراثكم الحضري من الحضارات الأخرى بعض الأفكار والمهارات ترددون التحية إلى العالم الغربي الذى لم يتردد في أن ينهل من فنكم وموسيقاكم لإنعاش مالدية في عالم الحضارات ، كلنا بناءون وكلنا مقترضون ومقرضون .

إن الأساس الأخلاقى للتعليم في أفريقيا لم يزل في طور البزوغ ، كما يصفه هربرت ياسين ، « إلى نتائج التحليلات المنطقية المتشابكة بين أفكار نخبها (أى النخبة الإفريقية) ، والحقائق المتغيرة التى يطلب منهم التصرف فيها » .

هل الشيوعية بديل روحى ؟

فجأة أصبحت الشيوعية في إفريقيا موضوعاً عالمياً بجوهرياً . ولم يكن هنالك داع منذ ما لا يزيد على خمس سنوات مضت لأن نشير إليه في هذا الكتاب . أما الآن فإن الكتلة السوفييتية والصين الشيوعية قد نجحتا في كسب مواطني أقدام هامة في إفريقيا . إن مبعوثيهما الثقافيين ، وبعثاتهما التجارية ، وفنيهما يتحركون بسرعة . هنالك وطنيون يميلون إلى الشيوعية ، وهنالك فئات شيوعية قليلة ولكنها متحمسة . ويكون من العسى أن نتجاهل التحدى الشيوعى في إفريقيا ، ولكننا نميل ، في الجزء الخاص بنا من العالم إلى الخطأ في أقصى الاتجاه العكسى . وفى رأي أن أحسن معالجة سياسية لهذه المشكلة هى مقالة والترز لأكير الصادرة في نسخة « الشؤون الخارجية » في يوليو سنة ١٩٦١ . أما السؤال الذى يعنى به هذا الكتاب ، فهو مدى قوة أو ضعف ميل النخبة الإفريقية الروحية إلى الاشتراكية .

ويدعى رينتر في « موت إفريقيا » أن نهاية إفريقيا مؤكدة ما لم تكن هناك مساعدة خارجية حالة .

ويدعى رينتر أن إفريقيا لا يمكن أن تنقذ نفسها ، ولكن يمكن إنقاذها ، وطالب بمساعدة أمريكية ضخمة . فكان رد فعل النخبة الإفريقية على نظرية رينتر مسلياً . فالنخبة تستنكر تحليله وعلاجه . ويتهمون رينتر بأنه يتبع خطى " واجبات الرجل الأبيض " وأنه يقترح أن ثمار الرأسمالية هي البديل الوحيد أمام إفريقيا من كارثة الانحدار إلى الشيوعية . ويحق لرينتر أن يتألم لكلا الادعاءين . وإذا كانت هنالك أية راحة للغرب من الإجابات العاصفة عن مثل مجهودات رينتر ، وجب البحث عنها في الإنكار المنفعل لمعظم النخبة ، من أنها يجب أن تختار بين الشيوعية والغرب .

وكثيراً ما أعلن الرئيس نكروما أن « إفريقيا لا تتوجه إلى أى من الغرب أو الشرق وإنما إلى الأمام » ، وينطبق هذا النداء على أكثر من مجرد التخطيطات السياسية أو الحربية . إنها تمثل كل نطاق التطور العمدى الإفريقى . إنها تشير إلى مواضع الروح .

إن الإجماع بين المثقفين على أن الشيوعية ليست لها جاذبية روحية للإفريقيين . وقد رفض سيكوتورى مراراً وبشدة الشيوعية كطريقة للحياة الإفريقية مع أن كثيرين من الغرب يعدونه متأثراً بنفوذ الكتلة الشرقية :

« لئننى أرفض أن أسمع لحزبى أن يتبع طريق الشيوعية النظرى . إذا أراد بعض الأشخاص أن يفعلوا ذلك ، فليؤسسوا الحزب الشيوعى الغينى ، ولكن يجب أن يدركوا أن ب . د . ج . (حزب سيكوتورى) سوف يعارضهم تحت رئاستى ، فالشيوعية ليست طريقاً لإفريقيا . إن النزاع الطبقي هنا مستحيل . لأنه لا توجد طبقات ولكن مراكز اجتماعية فقط . إن الأساس الجوهرى لمجتمعنا هو التضامن العائلى والقروى » . وأجاب تورى حينما سئل عما إذا كانت بلاده تعدل نفسها لتتابع الصين :

« لماذا يلزمنا فعل ذلك ؟ إننى جئت لتوى من الصين . لأنها بلد مغاير تماماً لبلدنا . ولم أجد شيئاً فى تجربة الصين يمكن أن يثير اهتمامنا » .

وقد زار توماس ميلادى - فى أثناء جمع معلومات لكتابه « صور لازعماء الإفريقيين » - مكتبة فى كوناكرى عاصمة غينيا لها شهرة فى عرض الكتابات الشيوعية . وقد وجد هناك عدداً كبيراً من هواة القراءة من الشباب الغينى . وحينما ترك ميلادى المكتبة تبعه شاب كان من الواضح أنه يريد أن يخاطبه . ودعاه ميلادى إلى قهوة ، وبعد محادثة ودية قال الغينى : « لا تنزعج كثيراً من المكتبة الشيوعية . لقد أخطأ الشيوعيون خطأ واحداً . إن عدداً كبيراً من كتبهم أساء إلى الرب وقالوا أشياء سيئة عنه . ونحن الإفريقيين فى طبيعتنا الاعتقاد بكائن أعظم - إننا نعتقد فى نوع من الإله ، ربما فى رب المسيحين ، أو إله المسلمين ، أو ربما إله فى الجبال ، ولكننا نؤمن بالله ، وقليل منا من يستطيع أن يحتضن ، إذا تكلمنا من الناحية الفلسفية . شيوعية ماركس » . ويؤكد نابابانى هذا وإن يكن عن طريق آخر :

« إذا ما نظرنا إلى موضوعنا (إفريقيا والشيوعية) ، فلن نجد علاقة بين القومية الإفريقية والشيوعية . إن القومية الإفريقية تنبع من إفريقيا ؛ وليس من موسكو . إذا أمكن أن يستمر الإفريقى فى كراهية الشيوعية من كل قلبه . وروحه . وقوته . كما يكره الاستعمار الأوروبى الآن ، فيها ونعمت . لأن تفضيل نوع من الاستعمار على آخر هو متهى الغباء ، وسوء تقدير قاتل . إن إفريقيا لا تستطيع أن تستفيد من الشيوعية أكثر أو أقل مما استفادته من الاستعمار . وإن رفايتها الحقيقية ليست فى تفضيل أى منهما ، وإنما فى رفضهما جميعاً . إذ أنها ، تحت سيطرة أيهما ، سوف تستمر فى أن تشغل مركزاً ثانوياً وتحمل بالتالى الإذلال الذى يستتبع هذا المركز » .

ويعزز عمق إحساسات النخبة ، العوائق الهائلة التى تقف فى سبيل

التوافق ، على القوى الحيوية في داخلى . لقد حاول الاستعمار أن يفعل الشيء نفسه ، وكذلك حاولت المسيحية ، ولم تفلح . وسوف تحقق الشيوعية أيضاً . إن هنالك شيئاً في أعماق يمتق الظلام ، وللشيوعية نصيب الأسد فيه . كيف يتسنى في البقاء بغير التوافق والقوة الحيوية ، وبغير وجود « شاكا » في ؟ كيف يمكن للجنس أن يبقى ؟ أجب أنت عن هذه الأسئلة ثم أخبرني عن الشيوعية . إن ما نريده هو « الأفرقة » ، النظام الذي يسمح للعقل أن يندس ويتداخل من الشعور والغرائز . إن هؤلاء البيض الأذكاء لا يعرفون أن التوافق هو أيضاً جزء من الحياة .

ووضع الثالث الموضوع كما يلي : « أنت تعلم ماذا فعل نكروما . قد طارد الشيوعيين . وفعل ناصر الشيء نفسه . وقال كل من تورى ومبويا إنه لا الصين ولا روسيا تتكلم عنا ؛ إن هذا يوم جديد ، يوم إفريقيا ، ليس بيوم روسيا . بل ليس أيضاً يوم واشنطن . فلتخلص واشنطن من جمعية كلوكاوكس كلان واستعمارها الحديث . هذه هي إفريقيا ، إفريقيا » . على أنه يكون من الغباء أن نعد الموضوع قد انتهى . إن الشيوعيين المخلصين قلانل الآن في إفريقيا ، ولكن صبرهم طويل ، كما أن ثقتهم في النجاح النهائي غير محدودة ، وكانوا مقتنعين حتى الآن بمسايرة الزعماء الوطنيين حتى وإن كانوا مسيحيين مخلصين مثل مبويا ونيريري ، أو مسيحيين غير طائفيين مثل نكروما ، أو مساحين مثل تورى . إن القومية الإفريقية كانت تنظر إلى الغرب كالعدو الأول للحرية . وقد ساعد الزعماء القوميون ، سواء بإرادتهم أو بغير إرادتهم على بناء جبهة معادية للغرب .

وهناك تشدد حديث في الخط الشيوعي ، وقد وصحت نشرات الاشتراكية الإفريقية الزعماء الوطنيين المعروفين بالرأسمالية الوطنية . وتهموا بأنهم قادة غير أكفيا للحركات الوطنية نحو اشتراكية صحيحة . وحدد العالم النظرى ف . كوماو الطريق الجديد في مقالة ظهرت في عدد الاشتراكي الإفريقي « الصادر في يناير سنة ١٩٦١ » . كتب : « إنهم (القادة

توغل الشيوعية في الروح الإفريقية .

فالبلاذ الإفريقية المتحررة حديثاً غيرة جداً على استقلالها . وإن المتعصبين للإفريقية قد اكتشفوا فعلاً أن كثيراً من التيارات التحتية سوف تتدفق قبل تحقق أى نظام لوحدة الدول الإفريقية . ولا مفر من صدام بين الشيوعية والقومية سواء فى صيغتها المحلية أو المتعصبة للوحدة الإفريقية . وهى ترتطم أيضاً مع الاشتراكية الإفريقية . ومع كل المجهودات الإفريقية لتكوين شخصية ووسائل أهلية للسياسة ، والاقتصاد والثقافة والدين .

وترتطم الشيوعية بالإضافة إلى حواجز القومية والتطلعات الإفريقية الأخرى نحو الشخصية والوحدة ، بالمقاومة القبلية نفسها المركزة فى التقاليد التى تسأم الحركات القومية . وبالإضافة إلى ذلك ، فعلى الشيوعية أن تجعل نفسها مقبولة للروابط العائلية القوية والأحاسيس الأهلية التى هى أساس بناء حياة المجتمع الإفريقى ، إنه تحدى قوى جداً لعلماء النظريتين الماركسية واللينينية .

وعلى الرغم من أننى لا أستطيع أن أوصى بها كتقديرات موضوعية متزنة فإننى أعرض ثلاثة تقارير لأفراد من النخبة كردود فعل مثالية لاتخاذ الشيوعية بديلاً للروحية الإفريقية .

قال أولهم : « هل تصدق أننا سوف نستبدل بكين وموسكو بروما ومكة ؟ هذا هو الطريق لفقد الشخصية . إن الاستعمار والاستغلال قد لقنانا أهم درس . لن نتأبنا الغفلة . . لن نقبل تفوقاً سواء أكان أبيض أم أصفر » .

وقرر الثانى : « يلوح لى مما سمعت عن البلاذ الشيوعية أنها قائمة ، ربما قد تحمينا الاستعمار المدة الطويلة التى قد تحملناها لأنه لم يفاجئ فى الإخلال برتبة حياتنا . نست أعنى أننى أوافق على الاستعمار بأى أشكاله ، إننى أعد الاستعمار شراً ، هو شر الرجل الأبيض . ولكن الشيوعية سوف ترغب فى الضغط على

الإفريقيين الحاليين) يملكون غالباً لأن يكونوا ضيق الأفق والعقل ومحافظين ، وهم معرضون لأن يتبعوا هدى مصالح طبقة الأقلية . وليس مصالح الطبقات جميعها . وهم غالباً محددون . وذوو نعة وطنية : كما ينقصهم بعد النظر . وغالباً ما يكونون انتهازيين ومياليين إلى مهادنة الاستعماريين مقابل مكاسب ضئيلة ولو بتضحية المبدأ ، لأنهم يخشون النشاط الثوري لجاهل العمال والزراع » .

ووسعت طبعة أخرى من المجلة نفسها في هجومها على القادة السياسيين لتشمل جميع النخبة الإفريقية : « يحتل المثقفون في ظروف المجتمع الحديث مركزاً وسطاً بين الحكام والمحكومين . الرأسمالية والبروليتاريا ويتذبذب كثير من هؤلاء المثقفين من معسكر إلى آخر . وهم بهذا يتأرجحون بلا أدنى حول بين الظالمين والمظلومين ... يجب أن نتذكر أن النخبة كمجموعة توارثت عدم الاتزان وهي بالتالي غير جديرة بالقيادة » .

ومن البديهي أن معنى هذا أن النخبة لا يمكن الوثوق بها إلا إذا انضمت إلى الحركة الشيوعية . وعلى الرغم من أن الحركة الشيوعية في إفريقيا صغيرة لدرجة أنها لا قيمة لها . فإنها تظاهرها شبكة أيديولوجية عالمية تولد صدمة نفسية ضخمة لشعوب تشق طريقها بصعوبة للتخلص من الذل ، والبؤس ، وعلى الرغم من ضآلة النفوذ اللينيني حالياً في إفريقيا ، فإنه يستدر في غرس بذور ينتج عنها إخفاق الأنظمة الوطنية الحالية في النمو . وإن جزءاً من المشاكل الروحية التي تقابلنا في إفريقيا . هو أننا يجب أن نعامل بلا تفرقة ، المعادين للغرب . وهم غالباً يعادون المسيحية أيضاً ، وإنصاف اللينيين من النخبة نفسها التي يهاجمها اللينينيون المخلصون . أضيف إلى هذا الاستعداد المتطرف (وإن لم يكن شيوعياً) للقادة الوطنيين الإفريقيين للتعامل مع موسكو وبراغ وبكين تماماً كعاملهم مع واشنطن وباريس ولندن . ويمكنك بعد هذا أن تتصور الإغراء الشديد الذي يجب أن تقاومه بشكل ما ، في أن نمزج الوطنيين المتطرفين لنعدهم معاً أعداء للمؤمنين بالرب . وليس

المدى الرجال الذين يقرعون طبول نغم الحياة الإفريقية اليوم ، أى نية فى أن يسمحوا للعالم الشيوعى بأن يكون مصدر هذه الموسيقى ، ولهم شعور مطابق تماماً بالنسبة للغرب ، ولكن مع فارق ، إن تجربة جرح الروح كانت مع الغرب . مع الرجل المسيحى الأبيض ، ولم تكن هناك تجارب مماثلة مع الروسين أو الشيوعيين . وبينما لا يرجد تجاذب قاطع نحو الغرب أو الشرق فإن رد الفعل عكسى (وأكثر شخصية) ضد الغرب .

إن مستقبل الشيوعية كنوع من الالتزام الروحى فى إفريقيا ما زال طى المجهول ويتضمن مقاومة انتشار الشيوعية ، المساعدات المادية الغربية للتطور الاقتصادى . ولكن يحتاج الأمر إلى شىء آخر ، هو التعاون الثقافى والروحى الذى يمنح بصفة أخوية بين متعادلين .

هذا تحد يجب على الغرب إن يبرهن على أن فى مكنته أن يقابله تماماً .

فى سبيل البحث عن ذات

تكلمت كثيراً عن انزعاش « القيم الإفريقية » وعن « سبر القومية » ومن السهل أن نفترض هنا أنه لا يوجد سوى علاقة « السبب والنتيجة » البسيطة ، كانت الحضارة الغربية إبان فترة الاستعمار تطغى على الشخصية الإفريقية وعلى الأديان الإفريقية : أما الآن وقد زال ثقل سيطرة الغرب ، فإن الروح الإفريقية تستعيد نفسها — تساندها الانفعالات القومية ، وبالرغم من أن هذا التفسير منطقي فى تعليل الموقف السطحي ، فإننى متأكد أنه يخفق فى موافقة النزاع النفسى الأعمق النخبة الإفريقية ، أعنى البحث عن النفس .

وفى رأي أن التعرف على الشخصية أصبح المشكلة الحقيقية المؤلمة للنخبة الإفريقية ، ومن العجيب أنها مشكلة علاقتها ضئيلة حالياً مع وصف أحد أعضائها نفسه بأنه مسيحى أو مسلم ، وجودى أو دنيوى .

إن المثقف الإفريقي ، أولاً وقبل كل شيء إفريقي.. لو أنه بقي على حالته التقليدية . ولو أن هذه الحالة التقليدية لم يصيبها اضطراب ؛ لما أصبح تعرفه على شخصيته مشكاة . ولكان إذاً مكانه في العالم محددًا ودقيقاً . وحتى لو كان قد انتابه الفضول للبحث عن أسرار الحياة لظل ينهل من ثقته الأساسية بمن هو . وماهيته . ومكانه اللائق في نظام الأشياء ، ولكانت حيويته قد روضت . ومرنت : ومهدت ونسقت مع حياة عائلته العادية : وعشيرته وقبيلته . لكان إذاً قد وقف . ليس كفرد ، في سلسلة الحياة المكونة من أعضاء سابقين هم « تيم » ، وأعضاء حاليين يمكن رؤيتهم . وأعضاء مستقبل هم الذين سوف يولدون .

إن الصدام بين إفريقيا والغرب موضوع معقد للغاية . ولكن أحد نتائجه هو خلق القائد الحديد - الإفريقي ذى التعليم الغربي . الرجل القادر على ترجمة تجارب شعبه . ليس فقط من خلال حكمة التقاليد الإفريقية المتجمعة وقيمها . ولكن أكثر من ذلك - من خلال قيم الغرب الثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

كان الإفريقيون المتعلمون تعليماً غربياً يصبحون في الأيام الخوالي مهتدين متحمسين للمدنية الغربية بما فيها من قوة وما تعده من خلاص . اعتنقوا المسيحية . وهاجموا العادات والمعتقدات القديمة ، وتغنوا بمبادئ الديمقراطية والعلم . وليس معنى هذا القول بأنهم تنكروا لتراثهم الإفريقي ، أو سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا دعاة للمبشرين والمديرين المستعمرين : قطعاً كان بعضهم قد خدع . وباع قليلون أنفسهم . ولكن معظمهم كان مؤمناً في إخلاصه لقضية إصلاح مجتمعاتهم الإفريقية المنحلة والمغلوبة على أمرها عن طريق إنجيل المسيحية والديمقراطية والتسدين . وقد روعوا من هذه الهوة التي تفرق بين شعوبهم والغرب . وسخروا من تخطيط العادات القديمة . ليس لأنهم محطمو أصنام لا عقل لهم . ولكن لأنهم رغبوا مخلصين في أن ينزعوا اليد الميتة من رقبة حضارتهم . وكان الميل نحو المسيحية ثقافياً

أكثر منه لاهوتياً . نظروا إليها على أنها وسيلة لإعادة الإنشاء . أكثر من وسيلة لنزع الشخصية الإفريقية .

وكانت مأساة العدل التبشيري المسيحي في إفريقيا هي في إخفاقها رؤية هذا التطلع في ضوءه الحقيقي . وفي أغلب الأحيان ، كان ينظر إلى هؤلاء الإفريقيين الذين يمثلون بخنوع لطلبات المزيج الإرسالي . على أنهم مهتمون ممتازون في حين أنه كثيراً ما كان يحكم على الإفريقيين الأكثر قدرة ونشاطاً - هؤلاء الذين يريدون ربط المسيحية مع الحضارة والتاريخ الإفريقيين - بأنهم ما زالوا يتعلقون بالماضي الوثني .

إن هؤلاء المتعلقين بالماضي الوثني « هم الذين قدر لهم أن يحملوا قضية العدل السياسي العظيمة لشعبهم . وبهذه المناسبة أخطأت الإرساليات خطأها الفاحش الثاني : بذلوا قصارى جهدهم للبعد بالمنشآت الإرسالية الإفريقية عن السياسة . كان النشاط السياسي ينظر إليه كخطيئة لا تقل فحشاً عن تعدد الزوجات أو ختان البنات .

وابتدأ كثير من النخبة الإفريقية يجد شعوراً جديداً يقيم حضارة أسلافهم . وقال كينيئاتا حين استجوب سنة ١٩٤٨ في مدرسة جيثونجوري التي كان ناظرها : « تدألني أى طريق سوف أسلك حسناً . أعتقد أن أحسن طريقة أوضح بها هذا أن أقول أقطع خشباً ميتاً من كثير من معتقداتنا الإفريقية القديمة . وأقوم بتقوية ما أظن أنه أحسن الأشياء في طريقة حياتنا الإفريقية . وإنني أرسلهم إلى المدرسة بشيء أرجو أن ينجح . أريد أن يفخروا بأنهم إفريقيون : لا أريد أن أصنع عدداً كبيراً من البريطانيين السود ! »

إن ما بدا كحماس للبشارة الغربية تحول إلى معاداة للغربية ، وأصبح الإنجيل الحديث (. وإن المساوى الجوهرية للحياة الإفريقية قد أثبت أمام باب الاستعمار الغربي .

ولمّت قادة النخبة ، وأقدامها تسير الآن على طول القومية ، شعث الجماهير وراءها كمجسومة الخلد المعذبة من الاستعمار ، والتي قدر لها أن

تحميل إلى النصر بشارة الأفرقة . ليس لخلاص أبنائهم وأحفادهم الإفريقيين ، فحسب . ولكن أيضاً للقصاص العادل . والخلاص من الرجل الأبيض ، هذا الرجل المادى المقاتل .

إن فترة الكفاح للاستقلال هي فترة بطولية وقد اتحد في المجهود المشترك كل المسيحيين والمسلمين ، وزعماء الوثنيين ، والاشتراكيين ، والشيوعيين والديمقراطيين . والمثقفين القوميين . ولكن تحقق الاستقلال يشابه من بعض الوجوه انتهاء حلم . إنه شيء أن يصور أنبياء في وسط فترة بطولية ، رؤيا القدس الجديدة ، وشيء آخر يختلف تماماً ، أن تعالج ضغوطاً داخلية وخارجية نفسية وسياسية . اقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية لدولة استردت سيادتها واستقلالها حديثاً .

وبدأ دور النخبة في التغير فوراً في المناطق المستقلة . كانوا في السير إلى الحرية الأقلية المبدعة . كانوا « النقيسين » الحديثين ، سبأ كى ومشكلى الحضارة الإفريقية ومحبيها ولكن ما إن يتم تسلق جدران الحرية حتى يجب أن تصبح النخبة هم الفنيين في النظام الجديد . يجب أن يقبلوا تعيينهم في الوظائف الحكومية أو كرجال أعمال أو كمدرسين في المدارس . ويصبح الحر العقلي للكفاح القومي . جواً عابساً لإصدار مئات القرارات اليومية ، وبعضها حقير وبطلى ، لدرجة مذهلة .

وتعد الشخصية الإفريقية صبيحة بديعة لأم الشعث وإثارة الحرب . ولكن الإفريقيين كائنات بشرية ، ولا بد أن يظهر فيهم وهن اللحم والدم . ويروى وليم كوندون ، القصصى الجامبي ، في قصته « الإفريقي » ، عن عودة شاب من غرب إفريقيا إلى موطنه بعد عدة سنوات من الدراسة في إنجلترا ، فيقول :

« عدت إلى أرض تموج بالحركة . ماثية بنشاط محموم دهرق . ولم تكن المظاهر المادية فحسب هي التي تغيرت تماماً : المباني ، الموانى ، الطرق ، الجسور ، وغيرها . وإن كان التغير هنا كان رائعاً بما فيه الكفاية . ولكن ما أدهشني أكثر كان التغير في الأشخاص ، وسرعان ما وجدت أنه أيضاً

كان مصدر إزعاج . كان واضحاً أن هنالك أهدافاً جديدة للحركة ، وتصرفات جديدة حيال الآخرين كانت هنالك رغبات جديدة أيضاً لا أذكر أنها كانت موجودة بمثل هذا الصخب من قبل — الشهوة للسلطة سريعة ، وغنى سريع . مع عدم الاهتمام بنوع الوسائل المستعملة في سبيل ذلك ، وحتى الاستعداد لاستعمال العداء القبلي القديم ، وأحياناً إثارته عمداً .

أعطيت هذه الأشياء حدّاً متناهي النطع . . . لم تكن المسألة مجرد أن الإفريقي كان رجلاً طيباً بسيطاً أفسده بين يوم وليلة اتصال وثيق بصاحب شرير . ولكننا قد وصلنا إلى نقطة وجدنا من الصعب جداً علينا أن نجد فيها مكاناً للاستقرار على أى شيء . إننا في خطر من أن نفقد شعورنا بالاتجاه ، وبالغرض ، وبالثقة في أنفسنا .

ولأنه لمن مميزات النخبة أن أعضاءها لهم قدرة كرنادون على أن ينظروا إلى أنفسهم . وإن دولهم الجديدة نظرة مجردة . لأنهم يعلمون كثيراً عن الغرب ، وهم لامشاحة أيضاً في أوطانهم ، في إفريقيا ، ولكنهم غير مرتاحين تماماً في أماكنهم . وعلى قدر ما يعرفون عن التاريخ الإفريقي ، والعادات الإفريقية: والتقاليد الإفريقية ، وأشباهاها، فإنهم تعلموها تماماً كما تعلموا عن الغرب — خلال الدراسة والقراءة والمحادثة . ومن جهة أخرى فإنهم قد اكتسبوا كلا الحضارتين : الإفريقية والغربية ، لأنهم ببساطة قد ولدوا في الوقت والمكان الذي ولدوا فيه . ولا يمكنهم حقيقة أن يهملوا أيهما . إنهم في عالم وسط بين الاثنين .

إنني مقتنع بأنه بالرغم من الصلوات التي ينطق بها الفم « لغرائز تشاكا » وبالرغم من طقوس دين الساف ، فإن المثقف العادي لا يضع فيها قلبه وروحه حقيقة . يمكن أن يحترم الآلهة والطقوس القداسي ، لكنه لا يمكنه أن يؤمن بهم بإخلاص . قد يكون لديه بقية من الإعجاب بالسكر والكهانة ، وربما لا يزالان يجدان استجابة داخلية ، ولكن عقليته قد ارتبطت بالعلم . هو يحلم أحلام يقظته العميقة بمزج مستقبل للحضارتين الإفريقية والغربية ، ولكنه

في الوقت نفسه يروض عقله بالموجودات مثل توينبي وفرويد ، وجنج ، وزن البوذي . وفي المعظم تسيطر على حياته كزوج ، وأب ، وجار ، وطالب ، وصاع لقوته ، قيم ومستويات الطبقة المتوسطة ، بمثل قدر الإخلاص والثورة اللذين يجدهما الشخص في شبيهه الغربي . له إحساسات مختلطة من الإعجاب ، والسخرية لهؤلاء الذين يبدو أنهم مستقرون ومرتبطنون بنظام مسيطر على كل ما في الحياة سواء أكان هذا هو الإسلام ، أم المسيحية ، أم الشيوعية ، أم الغرفة التجارية ، أم الروحانيات القبلية .

ويفرّ بعض زملائه المثقفين من التوتر الناشئ عن محاولة موازنة القيم الإفريقية والغربية منطلقين إلى ارتباط كامل ، كالانضمام إلى الحزب الشيوعي ، أو الإخلاص التام للمسيحية ، أو الاندفاع كلية نحو عقيدة الأسلاف . ولكن المثقف العادي ، ونسبة كبيرة جداً من زملائه ، لا يستطيعون أن يرغبوا أنفسهم على مثل هذا القرار الخطير . هم يستمسكون بالعالم السفلى . يشكون أحياناً من اضطراب الأعصاب ، وارتفاع ضغط الدم ، ولكنهم دائماً يعيدون بفخر تأكيد نواياهم بأنهم سوف يجدون طريقاً جديداً .

وقد تغلغل التمدين ، وهو هدية الغرب الروحية إلى إفريقيا ، في قلوب ، وأرواح ، وعقول النخبة الإفريقية . ومع هذا فحينما يتكلم الإفريقي من قلبه ، أو روحه ، أو عقله فهو عادة معاد للغرب ، وكثيراً ما هو معاد أيضاً للمسيحية . إن بحثه عن نفسه معقد لدرجة مؤلمة ، فمن ناحية ، هنالك استياؤه الداخلي من الغرب ، ومن ناحية أخرى هنالك الحقيقة الظاهرة أنه — وإن كان الغاصبون الغربيون قد ذهبوا ، أو سوف يذهبون قريباً — لا يمكنه أن ينصح بأنه يمتدح وراءهم بهدية المدنية ، وإذا كان يرغب في أن يكون شيئاً آخر سوى « أوربي أسود » فيجب أن يكون لديه شيء يمنحه للغرب . ولهذا كان انهماكه في الفن الإفريقي ، والشعور الإفريقي ، والموسيقى الإفريقية ، والروحانيات : ولكن كم من الغربيين يعلم بهذه الهدايا ؟ فئة قليلة لا تتعدى

أصابع اليد على أحسن الفروض . إذاً يلزم أن يكون هناك شيء آخر ،
 خصيصاً ضخمة فريدة يمكن لإفريقيا إبرازها للغرب ليراها كل الغربيين .
 وتؤكد النخبة كهيئة وجود شيء » ، ولكن ليس هنالك اتفاق حقيقى على
 ماهيته — كلا ليس « مونتو » ، وليس دين الإله ، ولا حتى الشخصية
 الإفريقية .

فلنكن متأكدين من هذا . نحن الغربيين لانستطيع أن نحل مشكلة
 الإفريقى الروحية له . وفوق كل شيء يجب ألا نقف على رأسه صارخين
 بأن عليه أن يختار ، أن يفاضل بين طريقنا والرجعية ، بين المسيحية
 والشيوعية ، بين السير وراء الغرب كلية ، أو العودة إلى الأدغال !

كتب الشاعر الغانى داي انانج :

هنا نقف

متأرجحين بين مدينتين

إلى الخلف ؟ إلى أيام الطبول

وإلى رقص الاحتفالات فى ظلال

أشجار النخيل الباسقة

أو إلى الأمام ؟

إلى الأمام :

صوب ماذا ؟

صوب الأحياء القذرة حيث يرتطم الرجل بالرجل ؟

إلى المصانع

إلى ساعات الطحن الشاقة

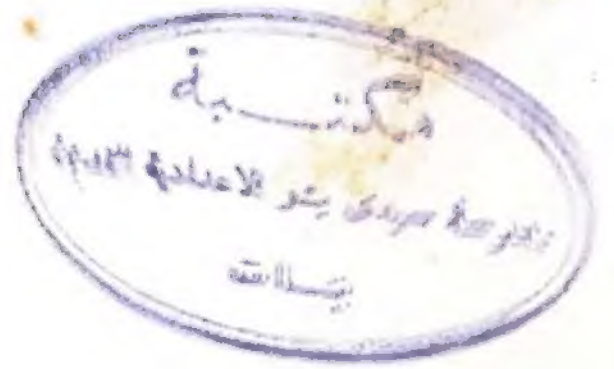
فى طاحونة غير بشرية

في فترة طويلة من الدهول لا توقف فيها ؟

لقد قام الغرب بالكثير ليحصر الإفريقي بين احتمالين لا ثالث لهما .
 ولن يقبل الإفريقي ذلك . إن ما يريده هو أن يصير رجلاً جديداً يجد
 وسيلة لإعادة تشكيل حياته على نحو فريد خلاق ، سواء بالنسبة لشخصه
 أو لحضارته ، كيف يفعل هذا ؟ هل يمكنه أن يفعله ؟ وإذا فعل ، فما هي
 الصورة التي سيكون عليها هذا الرجل ؟ لا يستطيع أحد أن يتنبأ وبخاصة
 الإفريقي نفسه . ولكننا يمكننا القول بأن له الحق في المحاولة .

فهرس

الصفحة	
١٩	مقدمة
٢٣	١ - صليب إفريقيا الأسود
٣٥	٢ - آلهة إفريقيا العظام
٦٥	٣ - جوجو
١٠٣	٤ - الله في إفريقيا
١٤١	٥ - مملكة المسيح في إفريقيا
١٩٤	٦ - مواقف النخبة الإفريقية تجاه الدين



تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧١/٣٤٧٤

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧١

